فى فقه الإصلاح والتجديد

عند الإمام حسن البنا

« ٨ »

ركــن التــجــرد

تحليل وشرح أعده

الدكتور على عبد الحليم محمود

من علماء الأزهر

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى المؤمنين الذين يعملون الصالحات،

وإلى الذين هداهم الله إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

وإلى الذين يرون أن التجرد لهذا الدين ولدعوته وحركته ومنهجه ونظامه أصلٌ من أصول عملهم من أجل الإسلام وركن من أركانه،

إليهم أقدم هذه الحلقة الثامنة من سلسلة:

«فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى».

حلقة: «ركن التجرد» من أركان البيعة العشرة.

داعيًا الله تبارك وتعالى أن ينفع بها من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

علي عبد الحليم محمود

القاهرة: فى شهر ربيع الأول من عام ١٤١٩هـ

الموافق لشهر يوليو من عام ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يَدَىْ هذه السلسلة

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه،
وبـعـــــد :

فإن هذه السلسلة من الكتب وهى : «فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا رحمه الله» تستهدف أهدافا عديدة، أودُّ الإشارة إليها فى هذه المقدمة للحلقة الثامنة من حلقات هذه السلسلة وهى «حلقة التجرد» وكنت أشرت إلى بعضها فى حلقات سابقة.

وهذه الأهداف هى :

أولا :

إلقاء ضوء على المفهوم الصحيح لكل كلمة من الكلمات التى هى عنوان لهذه السلسلة وهى : الفقه، والإصلاح، والتجديد ليكون الناس على علم بها فلا تضطرب لديهم الرؤية، ولا يضل بهم الطريق إلى الإصلاح والتجديد.

ثانيًا :

توضيح أن الإصلاح والتجديد لابد أن يقوما على أساس راسخ من الفقه الصحيح لهذا الدين الخاتم، والفقه فهم عميق وعمل صالح، وذلك من أجل أن يتجنب الناس التقليد والتبعية والجمود، ومن أجل أن يراعوا فيما يمارسون من إصلاح وتجديد ظروف الحياة الإنسانية وما يطرأ عليها من متغيرات، يجب أن يأخذها المصلحون والمجددون فى اعتبارهم، حتى يكون إصلاحهم وتجديدهم ملائما لمقتضيات المنهج الإسلامى فى الحياة.

ثالثا :

بيان أن منهج الإسلام فى الحياة الذى تقتصر أصوله ومرجعياته على أصلين كبيرين هما : الكتاب والسنة، هذا المنهج له جانبان هما :

- الجانب الثابت من المنهج :

وهو كل ما يتصل بالعقيدة والعبادة والخُلُق، وهذا الجانب لا يدخله إصلاح ولا تجديد، لأنه ثابت غير قابل للتغيير ولا للتبديل.

- **والجانب المتغير من هذا المنهج :**

وهو كل ما يتصل بحياة الناس المختلفة باختلاف الزمان والمكان والظروف من نظم اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، وهذا الجانب هو الذى يحتاج ما بين آن وآخر إلى الإصلاح والتجديد، وهو الجانب الذى ورد فيه حديث رسول الله ﷺ الذى رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»؛ أى لابد من الإصلاح والتجديد لأمر هذه الأمة فى هذا الجانب من المنهج.

رابعا :

تأكيد أن هذا الإصلاح والتجديد للجانب المتغير من المنهج هو من صميم ما يجب على المسلمين من اجتهاد يؤدى بهم إليه، مستعينين فى ذلك بالقياس والمصالح المرسلة وسد الذرائع، حتى يصلوا إلى هذا الإصلاح والتجديد، وذلك يؤكد أن باب الاجتهاد فى أمور الدين مفتوح دائما لمواكبة متغيرات الزمان والمكان.

خامسا :

تأكيد أن المسلمين بغير إصلاح وتجديد لأمور دينهم ودنياهم سيجدون أنفسهم فى جمود وتبعية وقعود عن موكب الحضارة والتقدم، ثم يجدون أنفسهم متراجعين حضاريا(١)، وذلك ما يعانى منه المسلمون اليوم فى معظم أقطارهم، ويدفعون له أبهظ الأثمان.

تلك أهم أهداف هذه السلسلة أردت أن أشير إليها باختصار بين يدى هذا الكتاب.

ولنلق ضوءا على مفهوم كلمات الفقه والإصلاح والتجديد فنقول :

- الفقه - فى هذا العنوان - مصطلح يعنى التعمق فى الفهم، كما يعنى إخراج الفهم من حيز النظرية إلى مجال التطبيق، وكذلك كان يفقه الإمام البنا - رحمه الله - الإصلاح والتجديد، ويحاول - ما وسعه الجهد والجهاد - أن يخرج كلا منهما من مجال الكلام والتنظير إلى ميدان العمل والجهاد.

---

(١) انظر للمؤلف : التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى اليوم، وطرق التغلب عليه. نشر دار الوفاء - القاهرة : ١٤١١ هـ ١٩٩١م.

- والإصلاح: يكون للأمر أو للشيء الذى فيه فساد - أى خروج عن الاعتدال - بعد وجوده صالحا، وقد كان للإمام البنا فقه فى إصلاح ما فسد من حال المسلمين وظروفهم، بل فهمهم للإسلام نفسه، كما كان له فقه فى إصلاح مَنْ فسد من المسلمين ليعود به إلى حال الصلاح الذى فطره الله عليه أو الذى يجب أن يكون عليه، وكثيرا ما كان يقول: إن شُعب الإخوان ودُورهم، وإن الدعوة إلى الله تشبه المشفى يدخلها المريض فيصح وينصلح حاله.

- والتجديد هو الترميم والإصلاح والتغيير لما عليه الحال، وبخاصة إذا كان هذا الحال ليس صالحا، وهذا التجديد من سنة الله فى المصلحين المجددين من المسلمين، كما جاء ذلك على لسان النبى الخاتم محمد ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(١).

- ومن التجديد مواكبة المتغيرات وإحسان التعامل معها، إما بهضمها فكريا وثقافيا بحيث تتلاءم مع العناصر الأساسية للأمة، ولا تتعارض مع شىء من أصول الدين وأحكامه، وآدابه، ولا تؤدى إلى تشويه الشخصية المسلمة؛ وذلك أن العجز عن مواكبة هذه المتغيرات، وبخاصة ما كان منها ملائما أو غير معارض للقيم الإسلامية، هذا العجز يعتبر لونا من ألوان الجمود الفكرى والتخلف العلمى والتراجع الحضارى، وكل ذلك غير محمود، بل غير جائز من الأمة المسلمة التى أراد الله تعالى لها أن تكون الأمة الوسط التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

- وكان للإمام البنا فى ذلك التجديد فقه مواكب لهذه المتغيرات موجه لها بما يتفق وقيم الإسلام وأحكامه، وضح ذلك فى كثير من الرسائل التى كتبها للإخوان خاصة، وفى مقالاته التى كتبها للمسلمين عامة.

- وليست رسالة «التعاليم» التى نتصدى منذ فترة لشرح أركان البيعة العشرة فيها، ليست تلك الرسالة إلا فقها للإصلاح والتجديد على نحو ما بينا فى تحليل هذه الأركان فى كتبنا السالفة:

١ - ركن فهم أصول الإسلام.

٢ - وركن الإخلاص فى مجالات العمل الإسلامى.

---

(١) رواه أبو داود والحاكم بسنديهما عن أبى هريرة.

٣ – وركن العمل، أو منهج الإصلاح الإسلامى للفرد والمجتمع.

٤ – وركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به .

٥ – وركن التضحية.

٦ – وركن الطاعة.

٧ – وركن الثبات.

– وذلك هو التجديد الذى أشار إليه الحديث النبوى الشريف الذى ذكرناه آنفا: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

● ولقد كانت قضية التجديد فى أمور الدين، وما تزال، من أكثر القضايا احتمالا لاختلاف وجهات النظر بين المفكرين والمصلحين من المسلمين.

● ونستطيع أن نرصد فى فاتحة هذا الكتاب مذاهب ثلاثة فى هذا التجديد، نعرضها هنا ليستبين القارئ أيها أولى بالاتباع، وأيها أقرب إلى فقه الإصلاح والتجديد:

المذهب الأول :

وهو مذهب يقوم على رفض التجديد مطلقا، والوقوف بقوة فى مواجهته، واعتباره بكل معطياته خروجا على الشريعة الكاملة التامة، لأنه يتضمن دلالة على أن الشريعة الإسلامية فى احتياج لهذه المتغيرات، والأصل ألا يكون هناك احتياج.

– إن أنصار هذا المذهب يغفلون عن طبائع الأشياء، وطبيعة الحياة الإنسانية المستمرة فى التغيير والتلاؤم مع المستجدات، إنهم لم يقبلوا هذه المستجدات بحجة لو تأملوا فيها وتدبروا لأراحوا واستراحوا، إذ كيف يتخذون هذا الموقف الرافض لكل تجديد دون التدبر فى الحديث النبوى الشريف الذى يخبر بأن الله تعالى يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها؟!

● إن من شأن المسلمين أن يحاولوا التجديد فى أمور الدين لا فى أمور الدنيا وحدها، وبخاصة فى الأمور المتغيرة وغير الثابتة.

● إن بعض هؤلاء الرافضين للتجديد ينادون بأن المسلمين اليوم يجب أن يعيشوا فى القرن الخامس عشر الهجرى على نحو ما كان يعيش عليه أو به المسلمون الأوائل من وسائل العيش وآلياته، بل أنماطه فى الملبس والمسكن والمطعم والمشرب وما إلى ذلك!!!

● وبعض هؤلاء ينادون بأن التجديد فى أى أمر من أمور الحياة يُعد من المحرمات التى لا يجوز للمسلمين أن يقترفوها!!!

ولا أحب أن أسمى هؤلاء ولا أولئك وإن كانت أسماؤهم وانتماءاتهم لا تخفى على أى مثقف مسلم؛ لأنى لا أرغب فى إدانة من اجتهدوا فأخطأوا، فالله تعالى يتولاهم ويتولانا جميعا بما يصلح لنا أمور ديننا ودنيانا.

● وعلى وجه القطع والتأكيد، لم يكن الإمام حسن البنا من أنصار هذا المذهب، ولا ممن يقبلون ما ينادى به، لا أقول هذا من عند نفسى، ولا استئناسا بما كنت عليه من قرب ومعرفة بالإمام البنا رحمه الله، ولكنى أقول ذلك من خلال دراستى لما كتب الإمام البنا من رسائل ومقالات وكتيبات ومذكرات تعرضت لشرحها وتحليلها فى كتابى: «منهج التربية عند الإخوان المسلمين»[1].

● ويستطيع كل قارئ لوثائق الجماعة وأوراقها التاريخية وكلمات الإمام البنا وخطبه أن يتأكد من ذلك بنفسه.

● وليست دراستنا لهذه السلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا إلا أدلة موثقة على صدق ما نقوله من أن الإمام البنا لم يكن يرفض التجديد رفضا مطلقًا، وإنما كان ممن يأخذون بهذا التغيير والتجديد فى ظل القواعد الشرعية المعروفة.

● وبغض النظر عما جَرَّ إليه هذا المذهب من تهجم أعداء الإسلام على الإسلام نفسه - لا على المسلمين أصحاب هذا المذهب - لأن هؤلاء الأعداء يخلطون غافلين أو عامدين بين الإسلام والمسلمين. وبغض النظر عن هذا - وهو خطير - فإن أنصار هذا المذهب يسيئون إلى فقههم للإسلام، وإلى كل من اتبعهم فسار على مذهبهم بصفة عامة، فإذا نظرنا إلى هذا المذهب من خلال فقه الدعوة والحركة من أجل الإسلام فإن أعدادا كبيرة من المسلمين المثقفين سوف ينصرفون عن الإسلام نفسه نفورا من هذا المذهب، وخوفا من نتائج الأخذ به.

---

(١) كتاب موسع من جزءين كبيرين حللت فيه وثائق الجماعة وأوراقها التاريخية وأنا بصدد الوقوف على منهج الجماعة فى التربية نشرته دار الوفاء بالمنصورة بمصر فى طبعته الأولى سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

● وأنصار هذا المذهب ليسوا قليلى العدد، وإنما لهم وجود بل حضور فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، وإن كانوا بمذهبهم هذا يساندون فكرا لا يستطيع أن يواجه الحياة فضلا عن أن يبقى ويستمر.

● وحسبنا أن نذكر من سلبيات هذا المذهب ما يلى:

– أن التجديد ليس شرا كله – كما يزعمون – وأن بعض هذا التجديد يجب الأخذ به إذا لم يتعارض مع الثوابت فى حياة المسلمين.

– وأن التجديد ليس معناه قبول كل جديد دون فحص – كما يتوهمون – لما يوافق الإسلام وما يعارضه، ومعنى ذلك أن رفضه كله دون تمييز، تفويت لمصالح قد تعود على المسلمين فى حاضرهم، أو تفويت لأمور قد تدفع عن المسلمين بعض الشر والضرر.

– وأن هذا الموقف منهم معناه رفض الاستفادة من تراث الحضارة الإنسانية برمته،مع أن هذا التراث ملك للبشرية كلها، وأن للناس جميعا أن ينتفعوا بما فيه، بل عليهم ذلك وبخاصة إذا لم يكن هذا التجديد مخالفا لقيم دينهم.

والمذهب الثانى:

وهو مذهب يدعو إلى إعادة النظر فى تراث المسلمين برمته، ثم تطويعه وتغييره ليلائم التجديد الذى جاء به هذا القرن العشرون، ويرون فى هذا العمل مرونة ومواكبة للمتغيرات، بل يرونه تجديدا!!!!

● وهؤلاء وإن قالوا بتقديس كل ما جاء فى القرآن الكريم من أحكام وقيم، إلا أنهم يعترضون على أمرين هامين – يعد الاعتراض عليهما فى غاية الخطورة، لأنه فى الحقيقة اعتراض على بعض ما شرع الله –.

هذان الأمران هما :

الأولى: مكان المرأة فى النظام الاجتماعى فى الإسلام، حيث يتصورون – مخطئين – أن الإسلام حرمها من بعض حقوقها التى تمارسها المرأة فى الغرب.

والآخر: الحدود التى شرعها الإسلام بقطع يد السارق ورجم الزانى المحصن وجلد الزانى غير المحصن، وجلد شارب الخمر والقاذف فى الأعراض، حيث يتصورون – مخطئين أيضا –

أن إقامة هذه الحدود قسوة بل وحشية يغنى عنها عقاب بالسجن أو التغريم!!!

● ولست بحاجة هنا إلى أن أرد هذا المذهب والقائلين به إلى منابعهم ومصادرهم ومرجعياتهم، فهى أوضح من أن أنبه إليها أو أفصل القول فيها، بل حسبى أن أشير إشارة عابرة إلى ذلك فأقول:

– إن أصحاب هذا المذهب تأثروا فيه بتقاليد الثقافة الغربية، حيث نجدهم جميعا ممن رُبُّوا تربية غربية أو ثقفوا ثقافة غربية فى جامعات الغرب ومعاهده ومدارسه، أو واصلوا دراساتهم العليا هناك، سواء أكانت هذه الجامعات والمعاهد فى بلاد الغرب أم كانت فى بلدان العالم الإسلامى الذى كان وما يزال يعج بالجامعات والمعاهد التى تفرض ثقافتها وتوجهها المناقض للتوجه الإسلامى على أبناء المسلمين!!!

ولو شئت أن أسمى هؤلاء بأسمائهم لفعلت، ولكن ما جدوى هذا وما تأثيره؟

وهؤلاء جميعا – إلا من رحم ربى – أحدثت فيهم الثقافة الغربية ما لابد لها أن تحدثه، وقد اتضح هذا فى أمرين خطيرين:

أحدهما :

زعزعة ثقتهم فى الإسلام؛ منهجه ونظامه وما جاء به من أحكام وأخلاق وآداب.

والآخر:

إقناعهم بشكل مباشر أو غير مباشر، واقتناعهم بأن الدين الإسلامى دين متجمد غير صالح لهذا الزمان، لأنه جاء فى زمان مضى ومضى أهله معه!

– وهذه وتلك مقولتان لعدد من أعداء الإسلام من المستشرقين من شرق وغرب ممن يدينون باليهودية أو الصليبية.

– وأصحاب هذا المذهب يرددون هذه المقولات دون وعى لأبعادها وآثارها فى نفوسهم وذويهم وأوطانهم، فرحين بأنهم أصبحوا غربيين أو يساريين أو علمانيين أو تقدميين أو ثوريين!!!

– وهؤلاء وإن وقف بعضهم فى مواجهة الاستعمار تجاوبا مع متطلبات سياسية – ربما رسمت

لهم – فطالبوا بالتحرر من الاستعمار إلا أنهم سقطوا فى حمأة الأفكار الاستعمارية الغربية المعادية للإسلام، وتبنَّوه بإخلاص الدعوة إليها والترويج لها، وسموا ما قاموا به فى ذلك تغييرا أو تجديدا أو تطويرا أو تنويرا!!!

– وهؤلاء الذين يدعون إلى هذا المذهب وقعوا بهذا فى أخطاء كثيرة بعضها فكرى ثقافى، وبعضها وطنى سياسى، وبعضها إسلامى، ونحب أن نذكر من هذه الأخطاء ما يلى:

الأول:

سوء فهمهم للإسلام، وضحالة ثقافتهم فيه؛ حتى إن بعضهم يجهل أولياته كما يبدو ذلك فى كتابتهم، ومع هذا الجهل يكتبون عن الإسلام كأنهم يعرفونه!!!

والثانى:

انبهارهم بكل ما هو غربى وتقبله تقبلا مطلقا بكل ما فيه من عيوب –كما قال قائلهم– دون فحص أو تمييز لغثه وسمينه، مع أن الغث فيه مما يخالف الدين ليس بالقليل، ولست أدرى كيف تقبلوا ذلك دون أن يخضعوه لمنهج الشك الذى أخضعوا له الدين؟ أو لمنهج العلم والمنهجية الغربية فى البحث التى تعلموها هناك؟

والثالث:

أنهم فقدوا الثقة فى قدرة الإسلام ومنهجه على حل مشكلات الناس، وعلى مواجهة المتغيرات بأسلوب علمى يأخذ ويترك وفق معايير معينة، حتى إن بعض غافليهم – وما أكثر الغافلين منهم – يتندر بمقولة: «إن الإسلام هو الحل» كأنها مقولة غير صحيحة!!!

والرابع:

أنهم تحولوا نتيجة لكل هذا إلى أن أصبحوا دعاة أو أذنابًا للفكر الغربى المناوئ للإسلام فى ماضيه وحاضره – والمعادى للمسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض، حتى ولو كانوا مسلمين أوربيين كمسلمى البوسنة والهرسك وكرواتيا – ومن أجل هذا فإنهم يستعينون دائما بخبراء الغرب فى كل المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية، ولأن هؤلاء الخبراء أعداء فى الحقيقة فإن المشكلات فى تزايد وتراكم، والدليل على هذا ذلك الكم الهائل من الديون والتبعية والتخلف الحضارى المشاهد على رقعة العالم الإسلامى كله!!!

والخامس:

أنهم رفضوا كل منهج إسلامي للإصلاح مقدما، وأدانوه قبل أن يعرفوه فضلا عن أن يجربوه، وجرموا المنادين به وزجوا بدعاته في السجون والمعتقلات، بل قتلوا بعضهم في رائعة النهار، ومن نجا من القتل شرد، وتوبع في مهربه بما يشق على أحد احتماله، كل هذا مع تبجحهم بأنهم من دعاة الحرية ومن أنصار حقوق الإنسان!!!

والسادس:

أنهم صنفوا من كان معهم في موالاة الغرب أو الشرق ومعاداة الإسلام بأنهم الشعب وأنهم حماة المكاسب الشعبية ودعاة التنوير، وصنفوا المتمسكين بمنهج الإسلام بأعداء الشعب وأعداء مكاسبه ودعاة الرجعية والغيبيات والظلاميات - كما يقولون!! - يفعلون هذا موالاة للغرب وللعلمانية وللشيوعية المنهارة في عقر دارها، ويتلقون كل يوم صفعات بأحذية الغرب والشرق على أقفيتهم، وبركلاته الموجعة في نظامهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي بحيث قد أصبحت استفاقتهم من أثر ذلك مستحيلة أو تكاد!!!

والسابع:

أنهم - وبتأثير أعداء الإسلام فيهم - حرموا الإسلاميين من التعبير عن أنفسهم وبرامجهم السياسية والإصلاحية بوصفهم مواطنين، وأدانوا كل صوت ينادي بالإسلام وكل إصلاح يقوم على منهج الإسلام، وحظروا بقوانينهم الجائرة المصطنعة - التي تناقض ما يزعمون من ديموقراطية - إنشاء أي حزب إسلامي، مع أن العالم الغربي الذي اتخذوه قبلة لهم مليء بالأحزاب اليهودية والمسيحية. بل إن هناك دولة بكامل كيانها تقوم على المسيحية هي «الفاتيكان»!!!

لقد صرّح أكثر من واحد من رؤسائهم بأنه لن يسمح بقيام حزب إسلامي طالما هو حي!!!

إن الغرب وإن كان يرضيه التضييق على الإسلام والمسلمين إلا أن العقلاء منهم يسخرون من هذا التصريح من رئيس يقول إن نظام الحكم في بلاده ديموقراطي!!!

والثامن:

أنهم وقد أعماهم الحقد على الإسلام ومنهجه في الإصلاح حرموا المسلمين من حقوقهم السياسية يوم جاءت بهم صناديق الانتخابات أو لعبة الديموقراطية التي يهذون بها، كما

حدث من جبهة الإنقاذ الإسلامى فى الجزائر، وما هو إلا ان تحركت فرنسا التى كانت تقول: إن أرض الجزائر امتداد لفرنسا، فتحرك الجيش الجزائرى بانقلاب فعزل الشاذلى بن جديد وألغى الانتخابات وقتَّل وسجن وطارد المسلمين فى الجزائر فى قصة، لن ينساها التاريخ ولو بعد ألوف السنين، ولا تزال أحداث القصة تجرى حتى الآن، ولكن الله من ورائهم محيط.

والتاسع:

أن كثيرا من حكام تلك الأنظمة الموالية للغرب فى نظامه القديم أو نظامه «البوشى الجديد» أخذت تستعدى الغرب على الإسلاميين فيها وتطلب منه الخبراء والوسائل التى تقمع بها كل حركة إسلامية، مع أن ذلك فى محصلته على حساب حريتها واستقلالها، وهو مما يتطلب كفاح عشرات السنين من أجل التخلص من هذه التبعية وأولئك الخبراء وتلك الآليات فى التنصت والرصد والتسجيل، ولهؤلاء وأوليائهم نقول: ﴿ ...**لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [آل عمران: ٩٩].

والعاشر:

وهو الأخير فى جمعنا لهذه الأخطاء، هو مناصبة العداء لأى حكم إسلامى أو حكومة إسلامية فى أى مكان من العالم كراهية للإسلام وخوفا على ثقافة الغرب وقيمه ومصالحه، كما حدث فى الوقوف ضد الثورة الإسلامية فى إيران وقوفا غربيا أولا ثم عربيا بإغراء مشئوم العراق بالدخول فى حرب استمرت تسع سنوات أكلت الأخضر واليابس من البلدين المسلميْن، وكما يحدث الآن من التضييق على السودان وحصاره سياسيا واقتصاديا.

تلك مجمل أخطائهم، وهذه غاية جهدهم، غير أن المد الإسلامى آخذ فى الازدياد، وحركة التجديد والإصلاح ماضية فى طريقها، لا تبالى بما يضعه العدو فى هذا الطريق من عقبات ولا بما تقدمه من ضحايا وشهداء، ولابد أن يأتى يوم تتحقق فيه سنة الله فى دعوته ودعاته، فيكتسح ذلك ما أمامه من باطل وزيف وخداع وفساد، وسنة الله كونية لا تعرف توقفا فى أى زمان أو مكان، وهى سنة أكدتها آيات القرآن الكريم وكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التى نشير إلى بعضها فيما يلى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الروم: ٤٧].

وقال عز وجل: ﴿ ... كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

– روى الإمام أحمد بسنده عن معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس ».

– وروى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صَلِّ لنا – فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمير، تكرمة الله لهذه الأمة ».

● ولقد تقدم الإمام البنا رحمه الله بأكثر من برنامج للإصلاح إلى الحكام فى مصر.. فى مختلف أقطار العالم الإسلامى وكان برنامجا نابعا من الإسلام؛ من الكتاب والسنة، وطالبهم بتطبيقه ولكن هؤلاء الحكام – الذين كان أكثرهم إن لم أقل جميعهم يعيشون تبعية للغرب – رفضوا هذا البرنامج فساقوا البلاد برفضهم هذا إلى المهاوى فى السياسة والاقتصاد والثقافة والتعليم والإعلام، ومكنوا بهذا الرفض لأعداء الإسلام من البلدان الإسلامية، حتى أصبح هذا العدو اليوم يسيطر على رغيف الخبز والثقافة والتعليم والإعلام.. وعلى حرية التعبير، فضلا عن السيطرة السياسية والاقتصادية والدفاعية!!!

والمذهب الثالث :

وهو مذهب يقوم على استبعاد الرفض المطلق للتجديد، واستبعاد القبول المطلق لكل ما هو جديد. وإنما هو مذهب وسطى يقبل ما لا يتعارض مع ثوابت الإسلام، ويرفض ما يتعارض معه فى عقلانية وحيادية وإيمان بأهمية التجديد.

● وهذا المذهب هو الذى أخذ به الإمام البنا وأخذت به جماعة الإخوان المسلمين منذ وضع قانونها الأساسى، كما سنوضح ذلك بنصوص من القانون – وهو أهم وثيقة من وثائق الجماعة –.

● إنه مذهب الإصلاح والتجديد مع المحافظة على الأصالة والحرص على القيم الثابتة التى جاء بها الإسلام.

ولهذا المذهب أسس يعتمد عليها يمكن أن نوجزها فيما يلى:

أولا :

الإصلاح لكل ما فسد من أمور المسلمين فى الأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والإعلامية والتربوية عموما، والحضارية بوجه أعم.

ثانيا :

التجديد لكل ما بلى أو تقادم أو تآكل فى نفوس الناس من عقائدهم وعباداتهم، وقيمهم الخلقية، بحيث تتفق مع الإسلام.

● وهذان الأساسان يستهدفان أن يستعيد الإسلام حقيقته فى نفوس المسلمين، ويعيد بناء تركيبه الوظيفى فى الحياة ليستقيم به الناس على الحق، وينجحوا به فى تحقيق مصالح دنياهم وأخراهم.

ثالثا :

الاهتمام بالخبرة التاريخية للمسلمين، ووضعها فى الاعتبار عند ممارسة أى إصلاح أو تجديد، إذ من الخطأ الفادح إهمال هذه التجارب التاريخية مع غنائها وقدرتها على إعطاء العظة وتعميق الرؤية، ولقد علمنا القرآن هذا النظر والتأمل فى الماضى قريبه وبعيده لأخذ العبرة، وشق طريق صحيح فى الحياة، وما أكثر الآيات القرآنية التى طالبت بذلك.

– ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٩] وقد تكرر طلب السير فى الأرض فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة(١).

رابعا :

وضع الوظيفة الحضارية للإسلام فى الاعتبار، وذلك أن الإسلام ليس مجرد عقائد وعبادات وقيم، وإنما هو حضارة كاملة بكل ما تعطيه الحضارة من معنويات وماديات، وبكل ما تنادى به الحضارة الإسلامية من تقدير وتكريم للإنسان، وبكل ما تطالب به من إحسان التعامل مع الحيوان والنبات والجماد، ومفردات الكون كله.

---

(١) وذلك في سور الحج: ٤٦، والروم: ٩، وفاطر: ٤٤، وغافر: ٢١، وغافر: ٨٢، ومحمد: ١٠، وآل عمران: ١٣٧، والأنعام: ١١، والنحل: ٣٦، والنمل: ٦٩، والعنكبوت: ٢٠، والروم: ٤٢، وسبأ: ١٨.

إنها حضارة تقوم على الاعتراف بالروح والعقل والبدن، كطاقات إنسانية من حق الإنسان أن يعبر عنها فى إطار من الشرعية التى تحفظ حقوقه وحقوق غيره.

إنها حضارة النظم الدقيقة للمجتمع فى سياسته واقتصاده، وفكره، وثقافته، ولذلك كانت حضارة تنشئ الإيمان والإسلام وتلزم بالعدل والإحسان، وتوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتدعو للجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

خامسا:

إن على الأمة الإسلامية كلها -وعلى الأخص دعاتها- أن تدعو إلى الله وأن تبذل فى سبيل الدعوة إليه ما تستطيع من جهد ووقت ومال وجهاد، فلا دعوة بغير جهاد، وإن الدعوة إذا عطلت أو حصرت فى المتخصصين فى علوم الإسلام ضاق ميدانها وخسرت كثيرا من الرجال القادرين عليها، وهى لا تحتاج إلى أكثر من أن يكون الداعى على بصيرة بما يدعو إليه: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: ١٠٨].

سادسا:

وعلى المسلمين فى شتى بقاع الأرض أن يتمسكوا بجذور حضارتهم الإسلامية وألا يصرفهم عنها صارف، ويجعلوا ولاءهم لها لا لسواها من حضارات الغرب والشرق، فإن تلك الحضارات تخلو من الإيمان بالله الواحد الأحد، وتهمل التكاليف الشرعية، وتطلق العنان للحيوان الكامن فى الإنسان، فتبيح الصلة الجنسية بغير زواج شرعى بل تبيح اللواط والسحاق «الشذوذ الجنسى» وتعلى قدر المادة على حساب الروح!

سابعًا:

رفض المفهوم المغلوط الشائع القائل بعلمانية الدولة والحكم.

- وإنما كان هذا المفهوم شائعا لأن كل من هب ودب واستطاع أن يمسك قلما ويسوِّد قرطاسا، وتوظفه حكومة علمانية كاتبًا وتعطيه فى صحافتها حيزا، أصبح يتبنى فكرة علمانية الدولة؛ بمعنى طرد الدين من الساحة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية فضلا عن الإعلامية!

وكل من جهر بهذا وأساء للإسلام كافأته الدولة بحجة أن هذه هى حرية الرأى، لكن عند ما يعبر الإسلاميون عن آرائهم فتلك جرائم تستوجب الاعتقال والتعقب والمراقبة ورصد حركة السفر والتوقيف فى المطار ذهابا وعودة!!!

إن الدولة فى معظم بلدان العالم الإسلامى بل والغربى تكافئ وتكرم كل من تهجم على الإسلام وافترى عليه المفتريات، بل إن بعضهم يقابله رؤساء الدول، ويُمنح المال والمنصب والجاه والحراسة المشددة كأنه رئيس دولة ظالمة!!!

إن بعض هذه الدول المسلمة تكافئ المتهجم على الإسلام بمكانة ومكان فى إحدى وسائل الإعلام، وتمد له فى الأسباب حتى يتخم وتفيض جوانبه إفرازات مضادة للدين عموما وللإسلام على وجه الخصوص، يحدث هذا فى الوقت الذى يحرمون فيه على الإسلاميين أن يحلموا - مجرد حلم - بحكومة إسلامية!!!(١).

- وأما أن هذا المفهوم مغلوط ينادى به الغافلون عن الفروق الدقيقة بين ما نادت به أوربا من علمانية وما ينادون هم به من علمانية.

فنستطيع أن نذكر من هذه الفروق ما يلى:

- العلمانية التى نادت بها أوربا، هى أقصى درجات عداء أوربا للكاثوليكية وما كان فيها من سلبيات مارستها الكنيسة ورجالها، ومع ذلك لم تصل هذه العداوة إلى رفض الدين جملة وتنحيته عن حياة الناس، واستبعاد الظاهرة الدينية فى عمومها، وإنما كانت رفضا للمنظمات الكنسية التى عانت منها أوربا مئات السنين، ورفض اشتراك هذه المنظمات الكنسية فى المشاركة فى صنع القرار السياسى فحسب.

- والعلمانية التى ينادى بها معظم المسيطرين على الحكم فى البلدان الإسلامية، علمانية ابتدعوها، وزادوا فيها -على علمانية أوربا- رفضهم للدين كله مبادئه وقيمه ودعاته، وتحديهم لكل حركة إسلامية، بل لكل حزب إسلامى، مطلقين أسوأ الصفات وأخسها لكل ما هو إسلامى، بخلطهم بين الإسلام وبين أخطاء بعض المسلمين، والعداء الشديد الذى يصل إلى السجن والقتل لكل من ينادى بالإسلام نظام حكم ومنهج حياة.

كل ذلك فعلوه باسم العلمانية، والعلمانية من كل ذلك براء إذ لم تقتل أوربا من يعرفون عندهم برجال الدين ولم تسجنهم ولم تشردهم ولم تشوههم، وإنما قصارى ما دعت إليه علمانية أوربا هو رفض التنظيمات الكنسية وليس رفض الدين المسيحى!!!

---

(١) انظر جريدة الأهرام المصرية اليومية يوم ١/٨/٩٤ مقال في مكان ثابت للأستاذ سيد ياسين.

إن علمانيتهم مزيج من العلمانية واليسارية والشيوعية والاشتراكية واللادينية!!!

- وثالث الفروق بين علمانية أوربا وعلمانيتهم أنهم جهلوا أن الإسلام لا يوجد فيه منظمات تضم رجال دين لهم سلطة على الناس وسلطة على الجنة والنار وقدرة على مغفرة الذنوب وبيع قراريط فى الجنة، ولهم كراسى اعتراف يجلس عليها العصاة الراغبون فى التوبة.

- تجاهلوا ذلك كله، وأخذوا يحاربون فى غير ميدان ويزورون المعارك ويختلقون أسبابها، وتناسوا أن الإسلام يعرف وحدة العقيدة ووحدة العبادة ووحدة القبلة ووحدة النظام القيمى ولا يعطى سلطة دينية لأحد على أحد.

- وتجاهلوا أن الإسلام منهج حياة كاملة ونظام متكامل للحياة الإنسانية، تأتى فيه السياسة والاقتصاد جزءا صغيرا من كل كبير، وذلك أن الإسلام ومنهجه هو الإطار الكبير لكل مرافق الحياة الإنسانية.

- والفرق شاسع بين الإسلام بسماحته ومرونته وقدرته على مواكبة كل المتغيرات، وبين الحكومة الدينية «الثيوقراطية» كما يعرفها الغرب، وكما غالط فيها دعاة العلمانية المبتدعة، ودعاة نبذ الإسلام بزعم أنه حكومة دينية يجب أن يحمل أوزار الثيوقراطية والكاثوليكية والمنظمات الكنسية فى العصور التى كانت تتحكم فيها الكنيسة فى البلاد والعباد!!!

- وهؤلاء العلمانيون المغالطون يصرون على ما يقولون، ويؤيدهم فى ذلك كل حاكم ظالم مستبد يحكم بالحديد والنار والقهر والعبث بحقوق الإنسان، ليقين هذا الحاكم بأنه قد يشترى العلمانيين بعرض من أعراض الدنيا فيسكتون عن ظلمه بل يبررون استبداده ويشيدون به وبعدالته.. ماذا يمنع هؤلاء أن يفعلوا وهم يعلمون أن صاحب السلطة يخلعهم ويجردهم إن هم امتنعوا. بينما هو على يقين بأن الإسلاميين لا يشترون بشىء، ولا يرضون عن استبداد الحاكم بحال!!!

- إن الحاكم المستبد يقول للناس بلسان حاله - كما قال سلفه -: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، ويقول بلسان مقاله ما قاله سلفه أيضًا: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]، وما كان ذلك ليرضى الإسلام ولا المسلمين بحال من الأحوال.

مذهب الإمام البنا فى الإصلاح والتجديد :

يقوم هذا المذهب على الأسس التى أشرنا إليها آنفا حيث وعدنا بأن نستدل على ذلك بالقانون الأساسى لجماعة الإخوان المسلمين.

وجماعة الإخوان المسلمين هى جزء من تاريخ الإصلاح السياسى والاجتماعى والثقافى فى تاريخ مصر منذ عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٥٤م يوم صدر قرار حكومى بحلها، لأنها فى هذه الفترة التى تقارب ربع قرن من الزمان استطاعت أن تحقق إنجازات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ورياضية وكشفية لم تحققها جماعة مثلها فى هذه المدة أو مثلها.

فلقد استطاعت الجماعة فى هذه المدة الوجيزة نسبيا أن تنشئ أكثر من ألفى شعبة من شعبها تعج كل واحدة منها بأنواع الأنشطة التى أشرنا إليها، بحيث أصبحت هذه الشعب أندية اجتماعية ثقافية دينية سياسية أقبل عليها الشباب والشيوخ من كل حدب وصوب.

واستطاعت أن تقيم مؤسسات اقتصادية وشركات تجارية سدّت فراغًا ليس بالقليل فى اقتصاد مصر آنذاك.

واستطاعت أن تنشئ عددا من المدارس النهارية والليلية تعلم فيها الصغار وتمحو أمية الكبار وتقدم لهم هذه الخدمة التعليمية بالمجان تقريبا.

واستطاعت أن تنشئ فريقا للجوالة قوامه أكثر من عشرة آلاف جوال طبقوا قانون الكشافة بعد أن أدخلوا عليه من التعديلات ما يجعله غير متعارض مع أخلاق الإسلام ومبادئه.

واستطاعت الجماعة أن تشترك بكتيبة فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨م أبلوا ضد اليهود بلاءً حسنا وفكوا حصار القوات المصرية فى الفالوجا.

وكل تلك أعمال من أجل الوطن العربى والإسلامى لا ينكرها منصف له عين ترى وقلب يعى.

والقانون الأساسى للجماعة وكثير من الوثائق والأوراق التاريخية لجماعة الإخوان المسلمين تنطق بهذا وتؤكده، مما نستشهد به فيما يلى :

ومن ذلك ما نشير إليه فى القانون الأساسى للجماعة على النحو التالى :

١ - الفقرة «أ» من المادة الثانية. ونصها هو :

« شرح دعوة القرآن شرحا دقيقا يوضحها ويردها إلى فطريتها وشمولها، ويعرضها عرضا يوافق روح العصر، ويرد عنها الأباطيل والشبهات ».

٢ – والفقرة « ب » من المادة الثانية أيضا، ونصها هو :

« جمع القلوب والنفوس على هذه المبادئ القرآنية وتجديد أثرها الكريم فيها، وتقريب وجهات النظر بين الفرق الإسلامية المختلفة ».

٣ – والفقرة « جـ » من نفس المادة الثانية، ونصها هو « تنمية الثروة القومية وحمايتها وتحريرها والعمل على رفع مستوى المعيشة ».

٤ – والفقرة « د » من نفس المادة الثانية، ونصها هو :

« تحقيق العدالة الاجتماعية والتأمين الاجتماعى لكل مواطن، والمساهمة فى الخدمة الشعبية، ومكافحة الجهل والفقر والرذيلة، وتشجيع أعمال البر والخير ».

٥ – والفقرة « هـ » من نفس المادة الثانية، ونصها هو :

« تحرير وادى النيل والبلاد العربية جميعا والوطن الإسلامى بكل أجزائه من كل سلطان أجنبى، ومساعدة الأقليات الإسلامية فى كل مكان، وتأييد الوحدة العربية تأييدا كاملا، والسير إلى الجامعة الإسلامية ».

٦ – والفقرة « و » من نفس المادة الثانية، ونصها هو :

« قيام الدولة الصالحة التى تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه عمليا، وتحرسها فى الداخل وتبلغها فى الخارج ».

٧ – والفقرة « ز » من نفس المادة الثانية، ونصها هو :

« مناصرة التعاون العالمى مناصرة صادقة فى ظل المثل العليا الفاضلة التى تصون الحريات وتحفظ الحقوق، والمشاركة فى بناء السلام والحضارة الإنسانية على أساس جديد من تآزر الإيمان والمادة، كما كفلت ذلك نظم الإسلام الشاملة »، فهذه كلها أهداف إصلاحية تجديدية تضمنها القانون الأساسى للجماعة.

ومن رسالة « عقيدتنا » وهى من أقدم رسائل الجماعة حيث كتبت كالقانون الأساسى سنة ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م.

وقد جاء فيها مما يدل على مذهب الجماعة فى الإصلاح والتجديد ما يلى :

« أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه، وأن راية الإسلام يجب أن تسود البشر، وأن من مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام.

وأتعهد : بأن أجاهد فى سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت، وأُضحى فى سبيلها بكل ما أملك ».

« أعتقد أن المسلمين جميعا أمة واحدة تربطها العقيدة الإسلامية، وأن الإسلام يأمر أبناءه بالإحسان إلى الناس جميعا.

وأتعهد : بأن أبذل جهدى فى توثيق رابطة الإخاء بين جميع المسلمين، وإزالة الجفاء والاختلاف بين طوائفهم وفرقهم ».

« أعتقد أن السر فى تأخر المسلمين ابتعادهم عن دينهم، وأن أساس الإصلاح العودة إلى تعاليم الإسلام وأحكامه، وأن ذلك ممكن لو عمل له المسلمون، وأن فكرة الإخوان المسلمين تحقق هذه الغاية.

وأتعهد : بالثبات على مبادئها والإخلاص لكل من عمل لها، وأن أظل جنديا فى خدمتها أو أموت فى سبيلها ».

كما سوف نستدل على ذلك بما جاء فى كثير من رسائل الإمام البنا، على نحو ما سنتناوله فى ثنايا هذا الكتاب إن شاء الله ويسر وأعان.

إن فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا هو الوسط، وهو الاعتدال، وهو المحافظة على الأصالة مع الإصلاح والتجديد، وهو مواكبة المتغيرات بعقل مفتوح وقلب سليم وروح وثابة ذات طموح.

وكل ذلك لا يستطيع أن يرى النور ولا أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ إلا بالجهاد، والعمل المستمر، والثبات على مبادئ الإسلام والتمسك بها فى كل موقف.

وعلى الرغم من أن الجماعة قد حظر نشاطها منذ ذلك التاريخ الذى أشرنا إليه إلا أنها استطاعت أن تمد وجودها خارج مصر فى البلدان العربية والإسلامية، ثم بلدان أوربا وأمريكا.

والذى أراه أن أعمال الجماعة فى مجال الدعوة إلى الله، ومجالات الاقتصاد والثقافة والأنشطة الاجتماعية لا يمكن أن تُنسى - فضلا عن أن تُتجاهل أو يطويها تطاول الأيام، فقد أصبحت جزءا من تاريخ مصر فى العصر الحديث.

ولا يستطيع أحد من الأصدقاء أو الأعداء أن ينكر ما قامت به الجماعة من أنشطة متعددة، ولا ما أحدثته فى المجتمع من تغيير، ولا ما أسهمت به فى حركة الإحياء والتجديد.

وعلى الرغم من أنَّ عددا من الحكومات المصرية تصدى لهذه الجماعة بالحل أو الحظر، فإن ذلك شمل نشاطها ومنعه بعد قرار الحل أو الحظر، أما ما سجلته الجماعة من أعمال وأنشطة ومشاركة فى تطوير المجتمع وتنويره وتشجيعه على الإسهام فى عديد من مناحى الإصلاح، إن ذلك حدث بالفعل ولا يمكن أن يمحى من ذاكرة من يرقب حركة الإحياء والتجديد لأمر هذا الدين.

وهذه السلسلة تتتبع هذه الحقبة التى شاركت فيها الجماعة فى حركة الإحياء والتجديد، لتوضح ما كان لمؤسس هذه الجماعة من فقه للإصلاح والتجديد.

بَيْن يَدَىْ هذا الكتاب

هذا الكتاب الخاص بركن « التجرد »، وهو من أركان البيعة العشرة التى كان يبايع عليها أعضاء الجماعة لتكون ممارستهم للأنشطة التى تصل بهم إلى الإصلاح والتجديد، عن علم وفقه، ووعى وعمق إدراك.

هذا الركن « التجرد » هو موضوع هذه الحلقة من تلك السلسة. ونسأل الله تعالى توفيقه ورضاه من الكتابة والشرح والتحليل لهذه الأركان العشرة فى تلك السلسلة.

ونرجو أن نحقق بجهدنا هذا عدداً من الأهداف نراها هامة وضرورية لكل من يشتغلون بالعمل من أجل الإسلام، وهذه الأهداف فى إجمال هى:

- توضيح مفهوم « التجرد » ابتداء من مفهومه اللغوى وهو: الخلع، والتخلص، إلى معناها الإيمانى وهو: خلع ما فى القلب والعقل مما سوى الله تعالى، إلى المعنى الدعوى الحركى للكلمة وهو: بذل أقصى ما فى الوسع خالصا لله تعالى لدينه ودعوته ووقف معظم هذا الجهد للوصول بهذا الدين إلى مكانته التى تليق به وهو أن يكون المنهج الذى يعيش الناس على هديه والقانون الذى يتحاكمون إليه.

فإذا اتضح مفهوم التجرد للمسلم المشغول بالعمل من أجل الإسلام سهل عليه أن ينسق – فى جهده وماله ووقته – بين متطلباته الذاتية من شئون نفسه وبيته وعمله، ومتطلبات دينه ودعوته وحركته بالإسلام فى الناس والآفاق، دون أن يخل جانب بواجبات الجانب الآخر.

- وتأصيل معنى « التجرد »: أى البحث عن أصوله وجذوره فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتأييد معناه ودلالاته بنصوص الكتاب والسنة، إذ هما أصلا الإسلام ومرجعاه الأساسيان.

وكل كلمة عندنا – معشر المسلمين – يعرف أصلها أو مرادفها أو مشابهها فى الكتاب والسنة فقد أصبحت بذلك جزءا أصيلا من الدين، ومطلبا ثقافيا واجتماعيا ونفسيا لكل فرد من المسلمين، بحيث تصبح بمدلولها جزءا من قيمه وأخلاقه وتشكيل سلوكه.

● والبحث عن خلق « التجرد » فى سيرة الرسول ﷺ وفى مواقف صحابته رضوان الله عليهم الذين نجحوا فى نشر هذا الذين الخاتم، وتحركوا به فيما يقرب من نصف العالم المعروف آنذاك فى أقل من نصف قرن من الزمان . وتتبع خلق « التجرد » فى سِيَر التابعين وأهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون، وفيمن بعدهم من المصلحين الذين جددوا أمر هذا الدين، على الرغم مما لاقى هؤلاء جميعًا –وأولهم رسول الله ﷺ – من عنت المشركين وتعنت أهل الكتاب وظلم الباطشين الجبارين، فى كل عصر ومصر.

مع عرض هذه النماذج أمام مسلمى اليوم، لتسهم فى تربيتهم تربية إسلامية من خلال التأمل والتدبر فى سِيَر هؤلاء القادة والمصلحين.

● ومن أهدافنا أن نُعرِّف مسلمى اليوم أن خلق « التجرد » كان له أثر كبير فى انتشار الإسلام فى الناس، بل إقبالهم عليه، إقبالاً كبيراً، حتى إن بعض أعداء المسلمين – الذين شنوا عليهم حروبا ضارية عرفت بالحروب الصليبية – هؤلاء قد دخل بعضهم فى الإسلام بسبب ما رأوا عليه المسلمين من تجرد لدينهم ومنهجه ونظامه.

وذلك من أجل أن ينشط المسلمون فى نشر هذا الدين الخاتم التام الكامل فى الناس جميعًا كما أوجب الله عليهم متسلحين لذلك بخلق التجرد لله ولدعوته ولدينه ومنهجه، فبغير هذا التجرد سوف يظلون منجذبين إلى تحقيق أغراضهم الشخصية مشغولين بها عن أغراض الدين وتبليغ الدعوة للناس أجمعين.

● ومن أهداف هذا الكتاب – من خلال تحليل معنى التجرد وشرحه – أن يؤكد للمسلمين أن أعداءهم لهم بالمرصاد، وأنهم يحقدون عليهم أن كانوا أصحاب هذه الانتصارات التاريخية بالإسلام وبأخلاقه – وعلى رأسها التجرد – عددا من القرون، وأنهم أقاموا نظام الإسلام فى أوسع رقعة قام فيها نظام دين من الأديان . هؤلاء الأعداء يودون – ولو جُدِعتْ أنوفهم – أن يخملوا الإسلام وأن يظهروا عليه باطل المِلَل وفاسد النِّحَل، وما يكون ذلك – فى رأينا – إلا بقتل معنى التجرد وروحه فى المسلمين، إنهم يودون أن تشيع فى المسلمين تلك المقولة الخاطئة الخانعة الانهزامية التواكلية السلبية التى تقول: « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » إنها تبرير لظلم الظالمين وجبروت الجبارين وتركهم وما يَفْعَلون.

أما فى الإسلام فلا خنوع ولا انهزام ولا تواكل ولا سلبية وإنما هناك الفهم لهذا الدين والإخلاص لله فى العمل، والعمل من أجل هذا الدين بل الجهاد فى سبيله، والتضحية، والطاعة، والثبات على هذا الدين والتجرد له، وهناك أن: ما لله لله وما لقيصر لله وقيصر نفسه لله، أى يجب أن يخضع ذلك كله لمنهج الله تعالى وعدله ونظامه، بحيث لا يشارك الله تعالى فى عباده متسلطا عليهم أحد الظالمين ولو كان قيصرا.

- ومن أهداف هذا الكتاب أن يؤكد للمسلمين اليوم أنهم يعيشون عصر معاداة الإسلام والمسلمين فى ظل النظام العالمى الجديد - الذى تقوده وتسيطر عليه الولايات المتحدة الأمريكية - يسانده فى ذلك التحالف الأوربى الصليبى الحديث، ويؤيده الإلحاد الوافد مما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى الذى انهار فى تسعينيات هذا القرن، وكل أولئك يتعاملون مع المسلمين، بل مع كل قضية إسلامية بجور ظاهر، وكيل بمكيالين وانتهاك لما يتشدقون به من شرعية دولية، وحقوق للإنسان، تساندهم فى ذلك كل المنظمات الدولية التى أنشأوها أو سيطروا عليها، وفى وقتنا هذا عشرات الشواهد على العداء الأسوأ الموجه من الغرب وأذنابه إلى المسلمين(١).

إن المسلمين إزاء هذا العداء الصارخ بحاجة إلى التجرد لدينهم ليتمكنوا به من الدفاع عنه، وليس كالتجرد خلق يرد كيد الأعداء ويحول بينهم وبين ما يريدون.

فإذا أضفنا إلى هؤلاء الأعداء عدوا هو أخبثهم وأشدهم إضراراً بالمسلمين وإصراراً على الكيد لهم، وهم اليهود ومن يساندونهم، علمنا إلى أى حد نحتاج إلى التجرد لخوض هذه المعارك الضارية ضد هؤلاء الأعداء الألداء!!!

- ومن أهداف هذا الكتاب التعريف بالفكرة الإسلامية التى يجب أن يتجرد لها المسلمون، وتحديد خصائصها، وتوضيح تميزها وانفرادها بصفات لا تشاركها فيها فكرة أخرى، لكى تكون هى الفكرة الجديرة بأن يدين لها الناس ليوم الدين.

وبيان أنواع الناس أمام صفة التجرد، وكيفية تعامل المسلمين مع هذه الأنواع من الناس، لكى يسهم ذلك فى تحديد واجب كل مسلم نحو اتصافه بالتجرد، وتعامله مع المتجردين

---

(١) على القارىء المسلم فى هذا المجال أن يتذكر ما حدث فى تسعينيات هذا القرن العشرين من أهوال تشيب لها الولدان فى البوسنة والهرسك والشيشان وكوسوفو والجمهوريات الإسلامية التى كانت تابعة لما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى، فضلا عما يحدث فى فلسطين من تمكين لإسرائيل فى كل شبر من أرض فلسطين وعلى العرب والمسلمين أن يضربوا رؤوسهم فيما يشاءون من صخور!!!

ومع غيرهم من الناس.

- إن هذا الكتاب «التجرد» خطوة من خطوات الطريق إلى الله، الطريق المستقيم الذى يسلكه المسلمون ليصلوا إلى التمكين لدين الله فى الأرض، ولكى يحافظوا على هذا التمكين.

والله تعالى هو حسبنا فيما استهدفناه، عليه نتوكل وعليه يتوكل المؤمنون.



الباب الأول:

فى مفهوم التجرد

وفيه فصلان:

الفصل الأول: مفهوم التجرد فى الكتاب والسنة.

ويتناول:

أولاً: معنى التجرد فى القرآن الكريم.

ثانيًا: معنى التجرد فى السنة النبوية المطهرة.

والفصل الثانى: مفهوم التجرد فى تاريخ المسلمين ونماذج من تجردهم.

ويتناول:

أولاً: التجرد عند رسول الله ﷺ.

ثانيًا: التجرد عند بعض الصحابة رضى الله عنهم.

ثالثًا: التجرد فى تاريخ المسلمين.

ويشمل:

أ - نماذج من التجرد فى تاريخ المسلمين.

ب - نماذج من إقبال الناس على الدخول فى الإسلام بسبب ما رأوا من تجرد المسلمين.

فــى مفهــوم التجــرد

التجرد فى اللغة: هو خلع ما على الجسد من ملابس، والتعرى منها.

● **ومن معانيه**: خلع ما فى القلب والعقل مما سوى الحق وإماطة السِّوَى والكون عن السر والقلب، أى خلع الأغيار.

● **ومن معانيه**: تجرد للعبادة أعطاها كل اهتمامه وعمله، وتجرد للأمر أى وقف جهده كله عليه، وجَدَّ فى القيام به.

● **ومن معانيه المجازية**: قلب أجرد أى ليس فيه غل ولا غش.

● وهناك كلمات متقاربة فى المعنى مع التجرد نذكر منها:

– التجريد، والتفريد، والجَرْد: وكلها تشترك فى معنى الخلوص والانخلاع والتخلى، والتبرؤ، سواء أكان ذلك عما يستر الجسم من الثياب والأغطية أم عما يستر القلب والنفس والعقل من الأغيار والمشاغل، أم عما يستر من الصفات والسمات، بحيث يصبح المتجرد وقد صفت نفسه وخلا قلبه وتخلص عقله مما سوى الله تعالى.

● ولكلمة التجرد دلالات عند المتصوفين والفقهاء والدعاة إلى الله تعالى نذكر منها ما وفق الله إليه فيما يلى:

التجرد فى مصطلح علماء التصوف:

يرون أن التجرد هو أن المقبل على الله يجب أن يخلع من قلبه كل ما سوى الله تعالى، أى يخلع الأنداد والشركاء، وكل ما هو غير الله ويتجرد منها، أى ينقطع عن الأغيار، ويفرد الله تعالى بالإيثار.

– **ويرى المتصوفة أن التجريد متعلق بالعبودية لله تعالى.**

– **ويرون أن التفريد متعلق بالمعبود سبحانه وتعالى.**

– **وكل من التجريد والتفريد عندهم يحتاج إلى صدق وإخلاص أى صدق التجرد عما سوى الحق، والإخلاص فى هذا التجرد بحيث يقصد به وجه الله تعالى.**

التجرد فى مصطلح الفقهاء:

يرى فقهاء المسلمين أن كل مسلم مطالب بالعبودية لله وحده، وإنما يكون ذلك بعبادته وحده لا شريك له، ويرون لهذه العبودية مراتب ودرجات نذكر منها:

- الالتزام بالعبادة التى شرعها الله من فرائض ونوافل، دون غلو فيها يخرجها عما شرعها سبحانه، ودون تقصير فيها يؤدى إلى عقاب الله تعالى.
- والقيام بالدعوة إلى الله دعوة الناس جميعا إلى عبادته، دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.
- وممارسة الحركة بهذا الدين فى الناس والآفاق، والحركة أسلوب عملى للتعبير عن قيم الإسلام وأحكامه وأخلاقه وآدابه.
- والقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إذ فى الأمر بالمعروف نشر لقيم الدين وأحكامه وأخلاقه، وفيه شَدٌّ لظهر المؤمن وتشجيع له على المضى فى طريق الحق.

وفى النهى عن المنكر تطهير للمجتمع من العيوب والآفات، وفيه قمع لأهل الفساد وحصار لهم، وحملهم فى النهاية على ترك المنكرات.

- والقيام بالجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، جهاد الشيطان وجهاد النفس الأمارة بالسوء، وبمختلف وسائل الجهاد، الجهاد بالقلب وهو الإنكار عند العجز عن غيره، وجهاد باللسان والكلمة، وجهاد بالمال، وجهاد باليد والسلاح.
- ويرون أن التجرد مطلب أساسى فى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له فى كل أنواع العبادة، سواء منها ما كان فرضا كالنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، والصدق والأمانة والعفة والوفاء بالعهد والاستقامة وبرّ الوالدين والعدل وفعل الخير عموما.

أو ما فرضه سبحانه من تعلم وعلم وتعليم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وجهاد فى سبيل الله تعالى.

- ويرون التجرد للعلم مطلبًا أساسيًا للمسلم، أى الاهتمام بالعلم فوق كل اهتمام بغيره، والتبحر فيه مطلب رئيس يهيىء للناس حياة أفضل وأرضى لله تعالى، والله تعالى يوصى نبيه الخاتم بل يأمره بان يتزود من العلم ما استطاع فى قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

وكانت تلك سنة علماء المسلمين فى مختلف العصور والأزمان، ومن هذا التجرد للعلم كانت أسباب نهضتهم وسيادتهم وانتصاراتهم وبالعلم هيأوا لأنفسهم ولمن حولهم حياة إنسانية راقية كريمة تليق بتكريم الله تعالى للإنسان.

وليس معنى التجرد للعلم أن يكون العلم للعلم فى ذاته وإنما الأصوب أن يكون العلم لإعانة الإنسان على عبادة الله تعالى وليكون فى خدمة الإنسان حاضره ومستقبله وتعامله مع الأولياء والأعداء.

● فكل هذه الفرائض تحتاج – لكى تُؤَدَّى أداء صحيحا سليما – إلى تجرد، يحول بينها وبين كل ما يعوقها أو يقف في طريقها.

التجرد فى مصطلح الدعاة إلى الله:

يرى الدعاة إلى الله أن التجرد بكل معنى من معانيه ألزم لهم فى كل عمل يقومون به من أعمال الدعوة والحركة، وفى كل عمل يؤدى إلى التمكين لدين الله فى الأرض، إذ بغير التجرد لا يتم عمل من هذه الأعمال على وجهه الصحيح.

فلابد من خلوص النية فى التوجه بالعمل أيًا كان إلى الله تعالى، ولابد من التخلى عن المشاغل التى تعوق عن أداء العمل، ولابد من التنسيق بين العمل من أجل مطالب الدنيا ومطالب الدعوة أى مطالب الدين.

● ومن مفاهيمهم الأساسية للتجرد، التبرؤ من أعداء الله ومن الظلمة والمفسدين ورفض اتخاذهم أولياء أو أصدقاء، إلا لضرورة، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ **لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فهذه الآية الكريمة أوجبت التبرؤ من أعداء الله أعداء دينه وأعداء المؤمنين عموما وأعداء الدعاة إلى الله على وجه الخصوص؛ ليسلم المجتمع المسلم من آفات القرب من أعداء الله وما أكثر آفاتهم ومعايبهم وكيدهم للإسلام والمسلمين!!!

والآية الكريمة تهدد من لم يستجب لهذا النهى بأنه سوف يعزل نفسه عن الله ومنهجه ونظامه، ويتشرب من هؤلاء الأعداء مناهجهم وأنظمتهم وأخلاقهم، ويصبح كأنه واحد منهم!!!

وتؤكد الآية الكريمة أن الاقتراب من هؤلاء باتخاذهم أولياء أو أصدقاء لا يجوز إلا لضرورة، أى خوف فوات مصلحة أساسية، أو درءًا لمفسدة ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

● ويفهم وجوب التبرؤ منهم من آيات قرآنية كريمة غير هذه الآية، ومن عدد من الأحاديث النبوية، لأن هذا التبرؤ من أعداء الله هو الذى يميز المجتمع المسلم، ويحول بينه وبين التأثر بأعداء الله.

ومن هذه الآيات الكريمة:

قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ١ - ٥].

وهذه الآيات الكريمة جامعة فى وجوب البراء من الكفار أعداء الله أعداء المؤمنين، وفيها تبرير لهذا التبرؤ منهم لما فيهم من صفات توجب ذلك البراء، وهذه الصفات هى:

- عداؤهم لله وللمؤمنين.
- وكفرهم بما جاء به المؤمنون من الحق.
- وإخراجهم الرسول والمؤمنين من أوطانهم لإيمانهم.
- وعقابهم المؤمنين على إيمانهم.
- وأنهم إن تمكنوا من المؤمنين أطلقوا فيهم شر ألسنتهم بالتهم الباطلة وشر أيديهم بحربهم والتنكيل بهم.

- وتمنيهم الكفر للمؤمنين.

بهذه الصفات وهى ذميمة كلها يجب أن تتبرؤوا منهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا صديقًا، حتى لو كانت بينكم وبينهم قرابات لأن هذه القرابات لن تنفعكم يوم القيامة حين يجعل الله تعالى أولياءه فى الجنة وأعداءه فى النار.

● وفى الآية الكريمة توصية للمؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم عليه السلام والذين معه إذ تبرؤوا من الكفار ومما يعبدون وأعلنوا استمرار عدائهم لهم حتى يرجعوا عن كفرهم ويؤمنوا بالله وحده.

● ومن هذه الآيات الموجبة للتبرؤ والتجرد عن الكفار أعداء الله مهما كانت بينهم وبين المؤمنين أرحام وقرابات قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

وبعـد:

فهذا مفهوم التجرد عند الدعاة إلى الله، وهم أحرص الناس على التدقيق فى هذه المعانى بما آتاهم الله من علم.

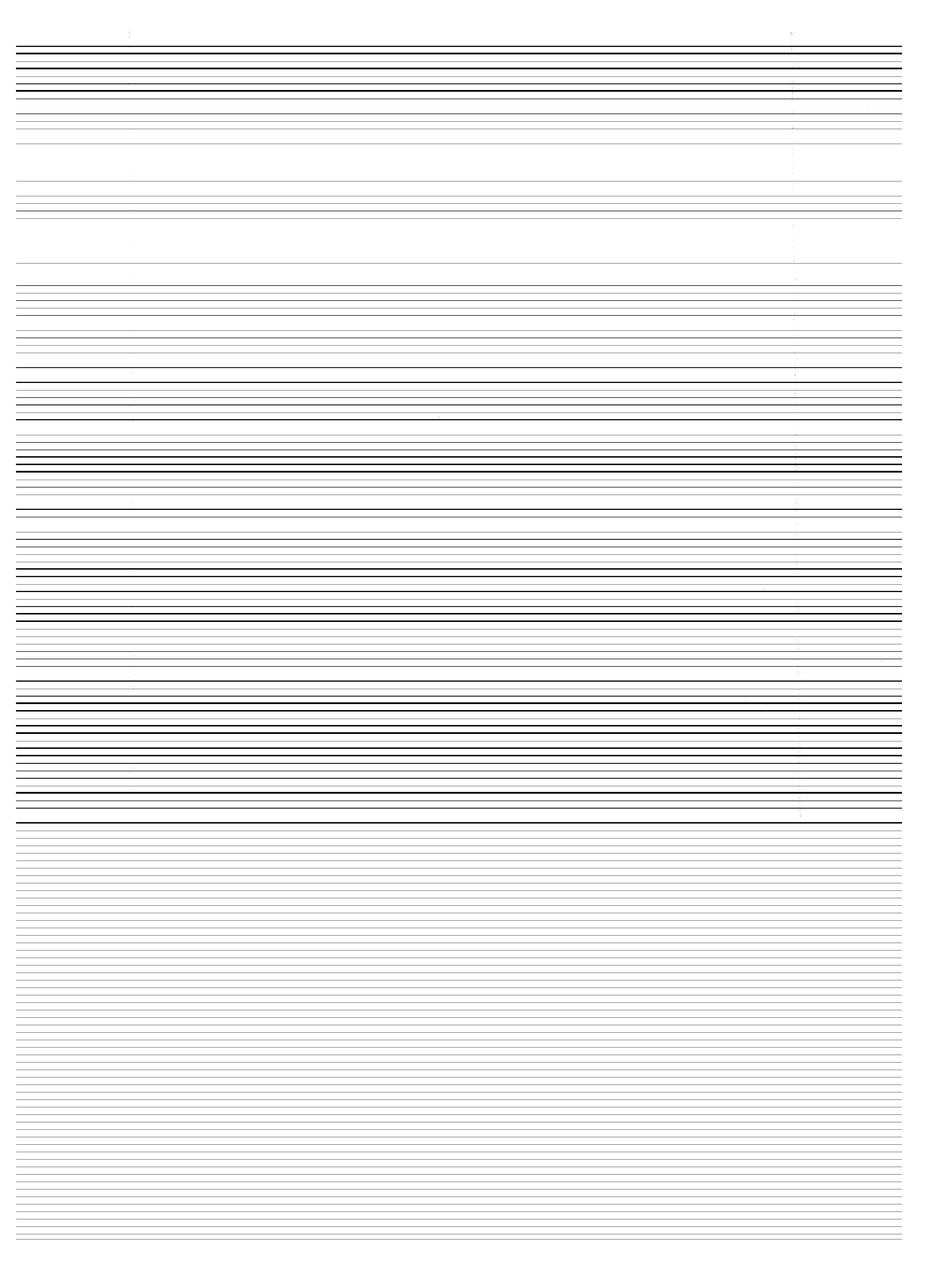
الفصل الأول

مفهوم التجرد فى الكتاب والسنة

وفيه موضوعان :

الأول : مفهوم التجرد فى القرآن الكريم .

والآخر : مفهوم التجرد فى السنة النبوية المطهرة.



مفهوم التجرد فى الكتاب والسنة

نحاول فى هذا الفصل - على نحو ما صنعنا فى الحلقات السبع السابقة من هذه السلسلة - أن نتتبع معنى التجرد ودلالاته فى القرآن الكريم، وفى السنة النبوية المطهرة، إيمانًا منًّا بأن الكتاب والسنة أوثق وأدق وأصدق فى الدلالة على معانى الكلمات من أى كلام آخر، فهما محضن اللغة العربية فى صفائها ونقائها وبعدها عن التقعير والمعاظلة، وسائر ما قد يعيب الكلام من عيوب لفظية أو معنوية أو عيوب فى تركيب الجملة وتعقيد العبارة، فاللغة العربية قد اختارها الله تعالى لتكون لغة خاتم كتبه على خاتم رسله ﷺ، ومحمد ﷺ أفصح من نطق العربية.

● فإذا وردت الكلمة فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية فقد اتضحت دلالتها، واستبانت مقاصدها وأبعادها، وأصبحت بهذا الورود أكثر دقة وتحديدا وبيانا، ولا عجب من ذلك فإن الكتاب والسنة من هذا الجانب هما ديوان العربية الذى يرجع إليه من أراد هذه اللغة فى أوج فصاحتها وبلاغتها ودلالتها على معانيها بكل دقة ووضوح.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا ويعيننا على الوصول إلى ذلك فى كلمة التجرد، وفى غيرها من الكلمات.

أولاً: معنى التجرد فى القرآن الكريم

لم ترد كلمة «التجرد» بحروفها هذه فى القرآن الكريم، ولكن وردت بمعناها، وبالمعانى القريبة من معناها. أى وردت فى القرآن الكريم كلمات يفهم منها معنى التجرد أو ما هو قريب منه فى المعنى.

ومن ذلك ما نذكره فيما يلى:

١ - التجرد بمعنى: الخَلْع والتَّخَلُّص.

فقد ورد لفظ: «اخلع» أى تجرد مما تلبسه فى قوله تعالى يخاطب نبيه موسى عليه السلام: ﴿ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** ..... ﴾ [طه: ١٢].

والخلع أو التجرد هنا قد يكون خلعًا ماديًا – كما يرى ذلك أكثر المفسرين – إذ قالوا هو خلع النعلين تكريما للمكان الذى نودى فيه من ربه، وهو تجرد من الملبوس فى القدمين.

وقال بعض المفسرين من الصوفيين: هذا التعبير ﴿ **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** ﴾ مَثَلٌ يعنى الإقامة والتمكن، أى أقم وتمكن فى إقامتك من هذا الوادى المقدس وتجرد من سواه حتى يأذن الله تعالى لك فى الانتقال عنه.

٢ - والتجرد بمعنى: الإخلاص لله والخلوص مما سواه، أى التجرد له سبحانه بإخلاص عبادته وحده والإنابة إليه سبحانه وتعالى. والتجرد مما سواه.

والتجرد بمعنى الإخلاص أكثر وأوسع معنى ورد له فى القرآن الكريم، إذ جاءت فيه آيات قرآنية عديدة نذكر منها:

- قوله تعالى: ﴿ ... **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١٤٦].

فإخلاص الدين لله تعالى يعنى التجرد من كل معبود سواه، ويعنى التوكل عليه وحده، والتوبة إليه من كل ذنب، وابتغاء وجهه وحده بكل قول وعمل، وهذه الصفات من تجرد عما سوى الله وتوكل عليه وتوبة إليه، وابتغاء وجهه هى الصفات التى يجب أن يتحلى بها المؤمن، وتحليه بها هو الذى يجرده عن الصفات المضادة لها، لأن الإخلاص فى الدين

هو الأصل، فالله تعالى لا يقبل من الدين إلا ما كان خالصا له وحده، ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ.... ﴾ [الزمر: ٣]، أى الدين المتجرد فيه المتدين عن كل ما سوى الله تعالى، والدين الحق لا يكون إلا بالإخلاص لله تعالى.

– وقوله جل شأنه: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

أى يتجردون لله من كل دين ومن كل معتقد، ومن كل مذهب، فذلك التجرد هو الإخلاص لله الذى أمر به عباده، وهو الذى يجعل الأعمال مقبولة عنده تعالى.

– وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، أى أنزلنا إليك يا محمد القرآن بالحق فاعبد الله مخلصا له وحده الدين أى العبادة، فله وحده سبحانه الدين البرىء من كل شائبة، المتجرد من الأغيار جميعا.

– وقوله جل وعلا: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وهذه الآيات الكريمة الخمس التى استشهدنا بها على معانى التجرد من: خلع وتخلص وإخلاص لله تعالى وخلوص مما سواه، تعنى أمورا عديدة على جانب كبير من الأهمية فى بناء العقيدة الصحيحة للإنسان، ومن هذه الأمور:

أ – أن إخلاص الدين لله وتجرده عن كل ما سواه سبحانه وتعالى يؤدى إلى معية المؤمنين، ومن كان مع المؤمنين فسوف يؤتيه الله أجرا عظيما.

ب – وأن التجرد لله والتوجه إليه بالدين الخالص يعنى: الإيمان والإسلام والاستقامة، وأن ترجمة ذلك تكون بعبادة الله وحده والتجرد من الباطل، والالتزام بالاستقامة على الحق، مع أداء الصلاة وإيتاء الزكاة، وذلك كله هو الدين القيم.

جـ – وأن الله تعالى أنزل خاتم كتبه على خاتم رسله ﷺ لإحقاق الحق بعبادته سبحانه وحده وإخلاص الدين كله له عز وجل.

د – وأن مجمل أوامر الله تعالى التى يستقيم عليها أمر الناس فى دينهم ودنياهم هى: أن يُخَص الله وحده بالعبادة فى كل زمان ومكان، وأن تتجه القلوب والنوايا والأعمال إليه

وحده سبحانه وتعالى، مع اليقين بأن المرجع والمآب إليه وحده.

٣ - **والتجرد بمعنى**: ابتغاء وجه الله تعالى فى أمر يأتيه الإنسان أو يدعه، وقد وردت فى هذا المعنى للتجرد آيات قرآنية كثيرة نذكر منها:

- قوله تعالى: ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

أى سيبعد عن النار من بالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى المتجرد عنهما، الذى يعمل الصالحات ابتغاء وجه الله تعالى، وسوف ينال من ربه ما يبتغيه.

- وقوله: ﴿ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** ﴾ [الروم: ٣٨، ٣٩].

والمعنى أن الحسنة التى يقصد بها وجه الله دون رياء أو طمع فتلك هى الصدقة المقبولة عند الله لأن صاحبها تجرد فيها عن غير الله تعالى.

- وقوله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** ﴾ [الشورى: ٢٠].

أى أن من كان يريد بعمله ثواب الآخرة قاصدا وجه الله تعالى متجردا من قصد سواه نضاعف له أجره، ومن كان يريد بأعماله متاع الدنيا وحدها نعطه ما قسمناه له فيها، وليس له فى الآخرة نصيب من الثواب لأنه لم يقصد بعمله وجه الله، بل قصد متاع الدنيا فحسب.

وهذه الآيات الكريمة الثلاث تقرر عددا من الحقائق أهمها ما نذكره فيما يلى:

أ - أن ابتغاء وجه الله وحده فى العمل كله، وعلى رأس هذا العمل إنفاق المال فى وجوه الخير، وتجريد هذا العمل من غير قصد الله تعالى، يجنب قاصد وجه الله دخول النار الكبرى، أما من يقصد بعمله - مهما كان خيرا - غير الله تعالى كرد على نعمة منعم أو جزاء لإنسان آخر فليس أمامه إلا جهنم يقع فيها ولا يبارحها.

ب - وأن الصدقة دون رياء أو طمع فى مكافأة هى التى تزكو عند الله ويبارك فيها، لأنه

قصد بها وجه الله، أما من قصد بإنفاق ماله أن يزيد عند الناس بالربا فقد خسر ما عند الله.

جـ - وأن قصد ثواب الله وثواب الآخرة بالعمل أى قصد وجه الله تعالى ورضاه وإخلاص النية فى ذلك والتجرد عن غيره سبحانه فإن ذلك يضاعف الأجر له عند الله، وأما قصد غيره سبحانه وتعالي فيعني خسران ثواب الآخرة.

٤ - **والتجرد بمعنى**: الجهاد في سبيل الله بالجهد والوقت والمال والنفس، فبذل كل ذلك من أجل الله تعالى والجهاد فى سبيله تجرد لله وإخلاص له.

وقد جاء ذلك فى عدد من آيات القرآن الكريم نذكر منها:

- قوله تعالى: ﴿ **وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦، ٧]

والمعنى: أن المخلص لله فى جهاده لإعلاء كلمة الله، جهاده لنفسه بالصبر على الطاعة وجهاده لغيره فى سبيل الله فإنه تكفر عنه سيئاته ويجزى أوفى جزاء.

- وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

أى أن الذين بذلوا جهدهم واحتملوا مشقة الجهاد لنصرة دين الله تعالى، متجردين فى هذا الجهاد عن الهوى، فإن لهم عند الله تعالى أن يزيدهم هداية إلى الخير وإلى الحق، وأن يكون معهم ومع كل محسن لعمله ومخلص فيه لله تعالى.

وهاتان الآيتان الكريمتان تقرران عددا من الحقائق التى يستهدى بها الإنسان فى حياته، ومن تلك الحقائق ما نذكر بعضها فيما يلى:

أ - أن التجرد لله وإخلاص العمل له سبحانه، ابتغاء وجهه وتجردا عما سواه يعود بالنفع على صاحبه، نفع الدنيا بأن التزم الطاعة وتذوق حلاوتها، ونفع الآخرة بأن سيحصل على رضا الله تعالى وجنته.

ب - وأن الله تعالى غنى عن طاعة الطائعين جميعا، ولاينتفع سبحانه وتعالى بشىء منها كما لا تضره معصية العاصين، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وقد أكدت السنة المطهرة هذا المعنى فيما رواه مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«قال الله تعالى: .. يا عبادى لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى لو أن أو لكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا...» الحديث.

جـ – وأن التجرد لله فى الجهاد لنصرة دينه هو الذى يتسبب فى الهداية إلى الخير وإلى الحق، وإلى كل ما يعود على الإنسان بالنفع فى دنياه ودينه، فالذين جاهدوا فى الله وأخلصوا فى جهادهم يهديهم الله السبل القويمة ويكافئهم على إحسانهم فى أعمالهم وإخلاصهم فيها وتجردهم عن غير الله فى القيام بها يوفقهم ويؤيدهم ويرضى عنهم فيثيبهم أحسن الثواب.

٥ – **والتجرد بمعنى**: التبرؤ من أعداء الله أعداء منهجه أعداء جميع المؤمنين.

التبرؤ منهم يعنى التخلص من موالاتهم ومصادقتهم، والتجرد من ذلك الولاء نهائيًا حتى يؤمنوا بالله وحده.

وفى التجرد بمعنى التبرؤ من أعداء الله وردت آيات كثيرة نذكر منها:

– قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [الممتحنة: ١ – ٥] وقد ذكرتها آنفا.

– وقوله تعالى: ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقد ذكرت هذه الآية آنفا.

- وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٨ – ١٢٠].

فهذه الآيات الكريمة تنهى المؤمنين عن أن يتخذوا بطانة لهم أى أصفياء وأولياء من غير أهل دينهم، لأن الذين على غير دين الإسلام أعداء للمسلمين لا يألون جهدا فى إفساد أمور المسلمين كلها.

ومن كانوا على غير دين الإسلام فهم يحبون دائماً أن يوقعوا بالمسلمين الضرر، وكثيرا ما تظهر عليهم علامات الحقد والكراهية للمسلمين فيما من ألسنتهم من كلمات، أو ما تضمره قلوبهم من شر، فكيف يتخذ مثل هؤلاء بطانة للمؤمنين يطمأن إليهم؟

وتنبه الآيات إلى أن هؤلاء الكفار مهما كانت لهم بالمؤمنين قرابات، فإن تعصبهم للكفر والباطل أشد وأقوى، ورغبتهم فى إيقاع الشر بالمؤمنين أكيدة يعيشون بها ويموتون عليها، ودليل ذلك أنهم يحزنون إذا انتصر المؤمنون، ويفرحون عندما يقع بالمسلمين هزيمة أو أذى!!!

وكيف يتخذ هؤلاء أصفياء للمؤمنين وهم منافقون إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا أناملهم ندما وحزنا وغيظا أن نال المؤمنين أى خير، هؤلاء يتركون ليموتوا بغيظهم ولا يتخذ منهم ولى أو صفى أو بطانة.

وتعلم الآيات الكريمة المؤمنين كيف يتعاملون مع هؤلاء أو يعالجون ما تنطوى عليه صدورهم من غل وحقد وكراهية للمؤمنين، والعلاج هو: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] أى اصبروا عليهم واتقوا الله فيهم واستعينوا به عليهم، فالله تعالى بما يعملون محيط، فمحاسبهم ومجازيهم على عدائهم للحق وأهله.

- وقوله جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ

وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

فهذه الآيات التى استشهدت بها على أن التجرد بمعنى التبرؤ وارد فى القرآن الكريم(١) لها دلالات وتوجيهات تنفع المؤمنين فى تعاملهم مع غير المؤمنين، وترسم لهم الطريق القويم الصحيح للتجرد والبراء من كل محبة أو صداقة أو ثقة فى واحد من أعداء الله تعالى وأعداء منهجه وأعداء المؤمنين، وفى الوقت نفسه تؤكد هذه الآيات الكريمة عددا من الحقائق التى من أهمها فى هذا المجال:

أ – أن المعيار الصحيح فى الولاء والبراء هو الإيمان والكفر، فمن كان مؤمنا اتخذه المؤمنون وليا، ومن كان كافرا عادوه وتبرؤوا منه، وتجردوا من كل صلة به.

ب – وأن موالاة أعداء الله ومصافاتهم تتجه بمن فعلها من المؤمنين مخالفا منهج الله، نحو الخطأ والإثم والمعصية، وكل ذلك يأتى بعده عقاب الله وغضبه، إذ كان الواجب التجرد عن هذه الموالاة وما يتصل بها بسبب.

جـ – وأن القرابات بمختلف درجاتها لا تشفع لمؤمن أن يوالى كافرا عدوا لله ولرسوله وللمؤمنين، حتى لو كان أباه أو ابنه أو أخاه أو زوجه أو من أقربائه وأرحامه، لأن رابطة الدين أقوى من كل الروابط ورابطة الدم لا تمنع من أن يلحق أحد الأقرباء أذى بقريبه، أما رابطة الدين فتجعل إلحاق الأذى بالمؤمنين كبيرة من الكبائر، يستحق صاحبها عند الله أشد أنواع العقاب، فللمؤمن حرمة عند أخيه المؤمن.

د – وأن للمؤمنين أسوة فى نبى الله إبراهيم عليه السلام والذين معه، فقد تبرؤوا من قومهم بغير تردد، حتى إن إبراهيم عليه السلام تبرأ من أبيه بسبب كفره: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وهذه الأسوة تقتضى التبرؤ من أعداء الله مهما كانت قراباتهم لصيقة وثيقة بالمؤمن.

هـ – وأن ترك التبرؤ عن الكافرين أعداء الله لا يباح إلا فى حالة الضرورة، كأن يكون المؤمن

---

(١) وهى آيات سورة الممتحنة من ١ – ٥، وآية سورة آل عمران: ٢٨، وآيات سورة آل عمران أيضا: ١١٨ – ١٢٠، وآيتا سورة التوبة: ٢٣ – ٢٤.

فى خوف من بطشهم فله عندئذ ألا يظهر التبرؤ منهم: «إلا أن تتقوا منهم تقاة» وقد يكون خوفهم على ولده أو ماله سببا فى عدم إظهار التبرؤ منهم، وذلك من رحمة الله تعالى بالمؤمنين أن يفتح لهم بابا يحافظون به على أنفسهم من بطش الباطشين وظلم الظالمين.

أما موالاتهم فلا وألف لا، إنه مجرد عدم إظهار التبرؤ منهم، فحسب.

و – وأن على المؤمنين أن يدركوا أن الكفار أعداء الله وأعداءهم يضمرون لهم الشر والحقد على وجه مستمر، وأنهم إن أظهروا غير ذلك فهو نفاق، وإن ألسنتهم كثيرا ما تفضح ما تنطوى عليه قلوبهم من حقد على الإيمان والمؤمنين، وأن الشواهد على ذلك كثيرة – كما أوضحت الآيات الكريمة –.

ز – وأن من يتولى هؤلاء الكفار أو يصافيهم، ولا يظهر التبرؤ منهم – مهما كانت درجة قرابتهم به – فقد ظلم نفسه أولا لأنه أوقعها فيما نهى الله عنه، وجعلها عرضة للعقاب والعذاب، وظلم دينه، وظلم أهله وقومه وظلم جميع إخوانه المؤمنين.

وأى معصية كهذه يمكن أن يستسيغها مؤمن بالله ورسوله؟.

وبعد:

فهذه هى المعانى التى وردت للتجرد بمعناه لا بلفظه فى القرآن الكريم، أرجو أن أكون قد وفقت فى إيضاحها وتحرير معانيها وبيان مقاصدها والله يتولانا ويتولى الصالحين.

ثانيًا: معنى التجرد فى السنة النبوية المطهرة

ورد «التَّجرد» فى السنة النبوية المطهرة بلفظه حينا، وبمعانيه أحيانا كثيرة، مما نأمل أن نوضحه فى هذه الصفحات والله ولى التوفيق.

- فقد وردت كلمة التجرد بلفظها فى ثلاثة أحاديث.
- ووردت كلمات بمعناها مثل: كلمة الخَلْع والتبرؤ والتخلص والتخلى، والإخلاص والجدّ والاجتهاد والجهاد، فى عدد من الأحاديث النبوية.

١ - التَّجرد بلفظه:

- روى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يفتح يأجوج ومأجوج يخرجون على الناس كما قال الله عز وجل من كل حدب ينسلون، فيغشون الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا، حتى إن مَنْ بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ههنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد فى حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم - بقى أهل السماء - قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمى إلى السماء فترجع مختضبة دمًا للبلاء والفتنة، فبينا هم على ذلك إذ بعث الله دودًا فى أعناقهم كنغف[١] الجراد الذى يخرج فى أعناقهم فيصبحون موتى لا يَسْمع لهم حسًا. فيقول المسلمون: ألا رجل يشرى نفسه فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فيتجرّد رجل منهم لذلك محتسبا لنفسه قد أظنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادى: يا معشر المسلمين ألا أبشروا فإن الله قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم فتشكر[٢] عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط».

فكلمة: «يتجرد» جاءت فى الحديث بلفظها ومعناها، أن يتجرد من علائق الدنيا، ويقبل على ما يقوم به من عمل من أجل المسلمين وهو يظن أنه سيموت.

---

(١) النَّغَف: دود يخرج من الأرض مستطيل أسود أو أغبر، أودود فى أنف الإبل والغنم.
(٢) تشكر: تمتلىء ضروعها.

– وروى البيهقي بسنده عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال: «جَرِّدُوا القرآن» أى لا تلبسوه شيئًا آخر مما ينافيه.

– وروى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: القلوب أربعة:

قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر.

وقلب أغلف مربوط على غلافه.

وقلب منكوس[1].

وقلب مُصَفَّح.

فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره.

وأما القلب الأغلف فقلب الكافر.

وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر.

وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فَمَثَل الإيمان فيه كمثَل البقلة يمدها الماء الطيب، ومَثَل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأىّ المدَّتَيْن غلبت على الأخرى غلبت عليه».

فلفظ «أجرد» فى الحديث الشريف يعنى قلبا متجردا من الكفر والنفاق، أو الجمع بين الإيمان والنفاق، أى ليس أغلف ولا منكوسا ولا مُصَفَّحًا.

٢ – التجرد بمعناه

جاء معنى التجرد بلفظ الخَلْع والانخلاع والتبرؤ.

– روى أحمد بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: بعثتْ بنو سعد بن بكر، ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله، ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ فى أصحابه – وكان ضمام رجلا جلداً أشعر ذا غديرتين – فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فى أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا ابن عبد المطلب، قال: محمد؟ قال: نعم، فقال: ابْنَ

---

(١) منكوس: مقلوب.

عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ فى المسألة، فلا تجدن فى نفسك، قال: لا أجد فى نفسى، فسل عما بدا لك.

قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولا؟ فقال: اللهم نعم.

قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئًا وأن نخلع هذه الأنداد التى كانت آباؤنا يعبدون معه؟ قال: اللهم نعم.

قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس؟

قال: اللهم نعم.

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة؛ الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها، يناشده عند كل فريضة كما يناشده فى التى قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف راجعا إلى بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولّى: إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة.

قال: فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللاتُ والعُزّى، قالوا: مَهْ يا ضمام؟ اتق البرص والجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم، إنهما والله لا يضران ولا ينفعان. إن الله عز وجل قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا، استنقذكم به مما كنتم فيه، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما.

قال: يقول ابن عباس رضى الله عنهما: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة».

وفى الحديث لفظ «نخلع» هذه الأنداد بمعنى نتجرد منها ومن عبادتها.

– وروى أحمد بسنده عن أم سلمة ابنة أبى أمية بن المغيرة زوج النبى ﷺ، قالت: لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشى، آمنا على ديننا وعبدنا الله لا نُؤْذَى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة – وكان أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم – فجمعوا له أدما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع: عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومى، وعمرو بن العاص بن وائل السهمى، وأمروهما أمرهم وقالوا لهما: ادفعوا لكل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشى فيهم، ثم قَدِّموا للنجاشى هداياه ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم – قالت: فخرجا فقدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتُشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشى فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثَنَا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشى كلامهما.

فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشى ثم قال: لا ها الله ايم الله إذن لا أسلمهم إليهما أبدا ولا أكاد. قوم جاءونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى؛ حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم؛ فقالوا: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى، ولا فى دين أحد من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فقال: أيها الملك: كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، يأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة والصيام.. قال: فعدّد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحَلَّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشَقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال النجاشي: هل معك مما جاء عن الله شيء؟

قالت: فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأ عليّ، فقرأ عليه صدرا من «كهيعص» قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدًا ولا أكاد.

قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنهم غدا عيبهم

عندهم ثم أستاصل به خضراءهم.

قالت: فقال له عبد الله وكان اتقى الرجلين فينا: لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

قالت: ثم غدا عليه لغَدٍ، فقال له: أيها الملك: إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسِلْ إليهم فاسألهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون فى عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله وما جاء به نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون فى عيسى ابن مريم؟

فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشى يده إلى الأرض فأخذ منها عودا، ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى - السيوم الآمنون - مَنْ سبَّكم غُرِّم ثم من سبكم غُرِّم، فما أحب أن لى دَبَرًا(١) ذهبا وإنى آذيت رجلا منكم، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين ردّ علىّ ملكى، فآخذ الرشوة فيه، وماأطاع فىّ، فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا - أى عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص - من عنده مقبوحَيْن مردودا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

قالت: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به يعنى من ينازعه فى ملكه.

قالت: فوالله علمنا حزنا قط كان أشدَّ من حُزْنٍ حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك على النجاشى، فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف.

قالت: وسار النجاشى وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ، مَنْ رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام: أنا - وكان من أحدث القوم سنًّا، فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

---

(١) الدبَر بلسان الحبشة الجبَل.

قالت: ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، واستوسق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة».

وقد وردت في هذا الحديث الجامع كلمة «نخلع الأوثان» أي نتجرد من عبادتها.

● وقد وردت كلمة «التبرؤ» بمعنى التجرد في الأحاديث التالية:

– روى أحمد بسنده عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله: اشترط عليّ، فقال: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتصلى الصلاة المكتوبة، وتؤدى الزكاة المفروضة وتنصح للمسلم وتبرأ من الكافر».

أي تتجرد من ولاء الكافر ومصادقته.

– وروى أحمد بسنده عن نوفل الأشجعي عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: جئتُ فعلمني ما أقول عند منامي، فقال: «اقرأ عند منامك» «**قل يا أيها الكافرون**» قال: ثم نَمْ على خاتمتها فإنها براءة من الشرك.

فالبراءة هنا بمعنى التجرد والانخلاع من الشرك.

– وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن سلام – رضى الله عنه – قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ، إذ سمع القوم وهم يقولون: أى الأعمال أفضل يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيل الله، وحج مبرور، ثم سمع نداء في الوادي يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وأنا أشهد، وأشهد أن لا يشهد بها أحد إلا برىء من الشرك».

والبراءة من الأمر معنى من معاني التجرد منه.

– وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برىء من الله تعالى وبرىء الله تعالى منه، وأيما أهل عرصة أصبح فيهم أمرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى».

والبرىء من الشيء المتجرد منه.

– وروى أحمد بسنده عن زهير بن عبد الله قال: حدثني رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: مَنْ بات فوق إجّار[1]، أو فوق بيت ليس حوله شيء يرد رجله فوقع

---

(١) أى سطح ليس عليه حاجز يمنع من السقوط.

فمات، فقد برئت منه الذمة، ومن ركب البحر عند ارتجاجه فمات فقد برئت منه الذمة».

● وردت كلمتا التخليص والمحض وهما من معاني التجرد في الحديثين الشريفين التاليين:

– روى أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا قعودا نكتب ما نسمع من النبي ﷺ، فخرج علينا فقال: ما هذا تكتبون؟ فقلنا: ما نسمع منك، فقال: أكتاب مع كتاب الله؟ فقلنا: ما نسمع، فقال: اكتبوا كتاب الله، محضوا كتاب الله، أكتاب غير كتاب الله، محضوا كتاب أو خلصوه، قال: فجمعنا ما كتبنا في صعيد واحد ثم أحرقناه بالنار، قلنا: أي رسول الله: أنتحدث عنك؟ قال: نعم تحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، قال: فقلنا يا رسول الله: أنتحدث عن بني إسرائيل؟ قال: نعم تحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، فإنكم لا تحدثون عنهم بشيء إلا وقد كان فيهم أعجب منه».

– وروى أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: شَكَوْا إلى رسول الله ﷺ ما يجدون من الوسوسة وقالوا: يا رسول الله إنا لنجد شيئًا لو أن أحدنا خَرَّ من السماء كان أحب إليه من أن يتكلم به، فقال النبي ﷺ: ذلك محض الإيمان».

● ومن معاني التجرد التي وردت في السنة التَّخَلِّي ونفي الصلة، فيما يلي:

– روى أحمد بسنده عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة: «أعاذك الله من إمارة السفهاء» قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدي لا يقتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولستُ منهم، ولا يردون على حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون على حوضي. يا كعب بن عجرة: الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة، والصلاة قربان – أو قال: برهان – يا كعب بن عجرة: إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت، النار أولى به، يا كعب بن عجرة: الناس غاديان؛ فمبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها».

فتعبير: ليس مني ولستُ منه تخلص ونفي للصلة، وذلك معنى من معاني التجرد.

– وروى أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي» وهذا يعني التخلي عن صحبة غير المؤمنين

والتخلص من مؤاكلة غير الأتقياء، وهما من معانى التجرد - كما أسلفنا -.

● ومن معانى التجرد مجانبة أهل البدع والأهواء والفساد، وكل من لا يعين على طاعة الله، وكراهية هؤلاء فى الله، وقد جاء ذلك فى الأحاديث النبوية التالية:

- روى أحمد بسنده عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال: «أى عُرَى الإسلام أوسط؟ قالوا: الصلاة، قال: حسنة، وما هى بها، قالوا: الزكاة، قال: حسنة وما هى بها، قالوا: صيام رمضان، قال: حسن وما هو به. قالوا: الحج، قال: حَسن وما هو به، قالوا: الجهاد، قال: حسن وما هو به.

قال: إن أوسط عرى الإسلام أن تحب فى الله وتبغض فى الله».

- وروى البيهقى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «يا ابن مسعود، أتدرى أى عُرى الإسلام أوثق؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال الولاية فى الله الحب فيه والبغض فيه...».

- وروى البخارى بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مثل جليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبا، ونافخ الكير إما أن يحرق ثوبك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة».

فالولاء للمؤمنين الصالحين تجرد من الفاسدين، والبعد عن أهل البدع والفساد تجرد منهم، وهكذا الجليس الصالح وجليس السوء.

● ومن معانى التجرد: الجد والتجديد والاجتهاد والجهاد، وكل ذلك ورد فى الأحاديث النبوية التالية:

- روى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان يخلط فى العشرين[1] الأولى من نوم وصلاة، فإذا دخلت العشر[2] جدَّ وشد المئزر» أى اجتهد فى العبادة وتجرد لها من مشاغله.

(١) أى العشرين الأولى من شهر رمضان.
(٢) أى العشر الأواخر من شهر رمضان.

- وروى البيهقى بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهداء أربعة: فمؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصَدَق الله فقاتل حتى يقتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم - ورفع رسول الله ﷺ رأسه حتى وقعت قلنسوة كانت على رأسه أو رأس عمر - فهذا فى الدرجة الأولى.

ورجل مؤمن جيد الإيمان إذا لقى العدو فكأنما يضرب جلده بسواك الطلح من الجبن، أتاه سهم غرب(١) فقتله، فهذا فى الدرجة الثانية.

ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا، لقى العدو فَصَدَق الله عز وجلّ فقتل، فهذا فى الدرجة الثالثة.

ورجل أسرف على نفسه فلقى العدو فقاتل حتى يقتل، فهذا فى الدرجة الرابعة».

فجودة إيمان الثلاثة الأصناف الأولى من الشهداء تعنى أنهم جردوا إيمانهم من أى شوائب تشوبه.

وهذا معنى من معانى التجرد كما قلنا.

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مِنْ خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغى القتل والموت مظانه(٢) أو رجل فى غُنَيْمة فى رأس شعف(٣) من هذه الشعف أو بطن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا فى خير» وفى رواية: «فى شِعْب من الشِعاب».

وهذا المؤمن الممسك بعنان فرسه ليستجيب لكل هيعة يسمعها، فيطير إليها على فرسه، لا يبالى الموت فى سبيل الله بل ينتظره ويبحث عنه فى مظانه، هذا المؤمن متجرد من التعلق بالدنيا، يؤثر ما عند الله على ما عند الناس، وهذا من معانى التجرد - كما أسلفنا -.

---

(١) أى سهم لا يُدْرى من رماه به.

(٢) أى فى الأماكن والأوقات التى يظن أنه يستشهد فيها.

(٣) الشعفة من الرأس ومن الجبل: أعلاه.

وبعــد :

فأرجو أن أكون قد أوضحت معنى التجرد، والمعانى القريبة منه، كما وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ويبقى أن نوضح فى الفصل التالى معنى التجرد ونماذجه فى تاريخ المسلمين – على ما جرت به عادتنا فى المنهج الذى أخذنا به لشرح أركان البيعة فى هذه السلسلة والله المستعان.

الفصل الثاني

مفهوم التجرد في تاريخ المسلمين

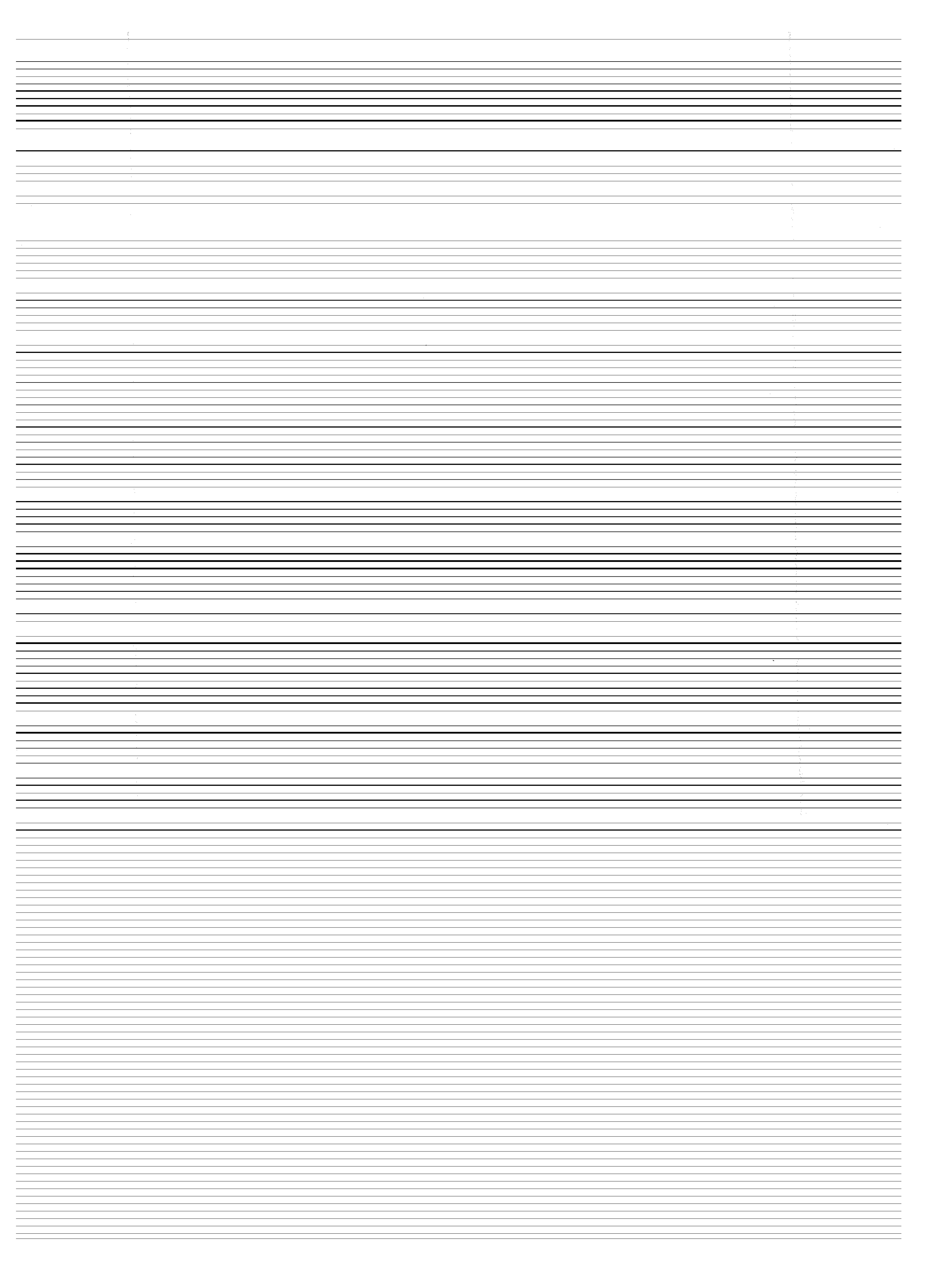
ونماذج من تجردهم

وفيه موضوعات ثلاثة:

الأول: التجرد عند رسول الله ﷺ.

والثاني: التجرد عند بعض الصحابة رضي الله عنهم.

والثالث: التجرد في تاريخ المسلمين.



مفهوم التجرد في تاريخ المسلمين

نحاول – بعون الله – في هذا الفصل أن نتصفح – في اختصار – تاريخ المسلمين في تجردهم لدينهم ودعوتهم، وللحق الذي يؤمنون به ويجاهدون في سبيله.

نحاول ذلك لنؤكد للناس مسلمين وغير مسلمين أن دين الإسلام ودعوته وحركته ومنهجه قد أسهمت إسهامًا حقيقيًا واقعيًا في صنع نماذج من المؤمنين المتجردين لله في كل ما أمر به، وفي كل ما نهى عنه، وتاريخ المسلمين على ذلك من الشاهدين.

كما نستهدف في هذا الفصل أن نقرر حقيقة لا يختلف عليها العقلاء فضلا عن العلماء وهي: أن الدين أي دين إذا فقد المؤمنون التجرد له فرغوه من محتواه، ولم تستطع قيمه ومبادئه وأخلاقه أن تجد مجالا لها في حياة الناس، بل لم تستطع أن ترفع عن الناس ظلما ولا أن تقر فيهم عدلا، أي الدين بغير متجردين له يصاب بالشلل والعجز عن إصلاح حياة الناس.

- ودين الإسلام العظيم بوصفه خاتم الأديان التي جاءت من عند الله تعالى وأكملها وأتمها وأرضاها لله تعالى، لابد له من مؤمنين به متجردين له ولمنهجه ونظامه، وهم في تجردهم هذا لابد أن يتخلصوا من كل دين ومنهج يُدَّعَى أنه مماثل لدين الإسلام أو مغنٍ عن شيء منه، فالله تعالى جعله الدين القيم الذي يهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

- وليس من المبالغة في شيء أن نقول: إن العصور التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية على مدى عدد غير قليل من القرون وعَمَّتْ البلاد والعباد، وحققت للناس حياة إنسانية كأكرم ما تكون حياة الإنسان الذي كرمه خالقه سبحانه وتعالى، ما حققت حضارة الإسلام هذا الازدهار إلا بأن كان المؤمنون بها والعاملون في بنائها من المتجردين لله في أعمالهم مخلصين لله في التزامهم بمنهج الإسلام وأحكامه وآدابه.

ما يجادل في هذه الحقيقة من يعرف كيف يقرأ تاريخ المسلمين إلا أن يكون من الحاقدين على الإسلام والمسلمين.

- وليس من التواضع أو لوم الذات أن نعترف بأن العصور التي انهزم فيها المسلمون أمام

أعدائهم، وضعفوا واستسلموا لعوامل التراجع الحضارى[1]، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، هذه العصور الانهزامية كان من أكبر أسباب الهزيمة فيها غيبة المؤمنين المتجردين عن ساحة العمل والجهاد وبناء الحضارة.

● فالتجرد لله تعالى إخلاص له فى كل قول أو صمت وفى كل عمل أو ترك، ابتغاء مرضاته.

● والتجرد لدين الحق التزام به بمنهجه ونظامه وأحكامه وتأكيد لقدرته على تهيئة الحياة الإنسانية الكريمة للناس كافة.

● والتجرد للدعوة إلى الله إصرار على المضى فى أعمالها حتى تصل إلى كل من يجب أن تصل إليه، ليكون الناس بهذه الدعوة على بيّنة من الحق ومن الباطل ليحيا من حيَّى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

● والتجرد للحركة بهذا الدين فى الناس والآفاق يعنى الإقبال على العمل من أجل الإسلام فى كل مناشطه الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية والجهادية، حتى يكون الدين كله لله، مع طرح كل الأسباب التى تعوق العامل من أجل الإسلام عن المضى فى عمله أيا كانت هذه الأسباب حتى يمضى موكب الحركة فى طريقه يجمع الناس جميعا على الحق والخير والهدى دون تمييز بين جنس وجنس ولون وآخر، ودون تمييز بين دين ودين، لأن الإسلام دين البشرية كلها.

● والتجرد للتمكين لدين الله فى الأرض يعنى مزيدا من فقه الدعوة وفقه الحركة وفقه المنهج وفقه الأسباب المؤدية إلى التمكين، إن التجرد لتمكين دين الله فى عباد الله يعنى الجهاد فى سبيل الله والتضحية بالمال والوقت والجهد والنفس لكى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ولن يكون ذلك مُمكنا إلا إذا أخذ المسلمون بكل الأسباب العلمية والعملية والفنية التى تؤدى إلى تمكين دين الله فى الأرض مع وجوب التوكل على الله فى كل هذه الأعمال والإيمان الراسخ بأن النصر من عند الله مسبب الأسباب.

وهذا باب فى فقه العمل من أجل الإسلام واسع مترامى الأنحاء، يحتاج إلى مزيد من التأمل والتدبر والتشاور والتعاون على البر والتقوى، إنه على وجه اليقين هو: فقه الدين وفقه الدنيا معا، وحسن الجمع بينهما والتنسيق بين متطلباتهما وما يتاح ذلك إلا للقلة من أهل

---

(١) لمعرفة مزيد من أسباب التراجع الحضارى للمسلمين اليوم – انظر للمؤلف التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى اليوم وطرق التغلب عليه – نشر دار الوفاء بمصر ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م.

الإيمان والعلم والإخلاص واليقين، ثم ينشرونه بين المسلمين، لأن المشكلة المعاصرة اليوم أن الفقهاء فى الدين يتجاهلون الفقه بالدنيا، والفقهاء بأمور الدنيا يجهلون الفقه بالدين!!!

وفى هذه الصفحات نستعرض نماذج من التجرد فى تاريخ المسلمين، لتكون معالم يهتدى بها فى طريق الحق والخير الهدى.

ولابد لنا من أن نبدأ بالمعصوم محمد ﷺ، ففيه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ثم بصحابته رضوان الله عليهم فقد كانوا نماذج فى التجرد لله ولدينه ودعوته.

ثم بالتابعين فأهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون، ثم بكل مصلح مجدد ممن هيأ الله لهم على رأس كل مائة سنة أن يجددوا أمر هذا الدين، مستمرين فى هذا الاستعراض حتى يوم الناس هذا بعون من الله وتوفيق.

سائلين الله تبارك وتعالى أن يستيقظ المسلمون مما هم فيه من فرقة وشتات وضعف وضياع، فيفيقوا على معنى التجرد لله ولدينه ودعوته ومنهجه ونظامه ليمكنوا لدين الله فى عباد الله، والله ولى ذلك والقادر عليه.

أولاً: التجرد عند رسول الله ﷺ

إنه قدوة المؤمنين المتجردين لدين الله وللدعوة إليه، فقد اصطفاه الله تعالى وادبه فأحسن تأديبه وجعله على خلق عظيم ليكون القُدوَة الحسنة في كل فضيلة جاء بها الإسلام، وليكون المثل الأعلى في كل ما دعا إليه من حق وخير وعدل وإحسان.

لذلك كان لابد من البدء به ﷺ.

- حياته ﷺ كلها تجرد للدعوة إلى الله تعالى، ولو شئنا أن نؤيد ذلك بالأدلة والشواهد لأعجزتنا من كثرتها إذ كان كل يوم من أيام حياته - منذ أن نباه الله تعالى فأوحى إليه - دليلا على تجرده لله وللدين والدعوة!!!

ولكننا نكتفي هنا ببعض هذه الأدلة والشواهد - محيلين القارىء على سيرة الرسول ﷺ كلها في سلمه وحربه، في إقامته وسفره، في دعوته العرب والعجم والناس كافة إلى عبادة الله رب العالمين.

- ومن تلك الشواهد والأدلة عشرة مواقف فقط من مئات بل ألوف من مواقف التجرد في حياته ﷺ، وتلك هي:

١ - روى البيهقي بسنده أن أبا طالب عم النبي ﷺ قال له: يا ابن أخي: إن قومك قد جاءوني وقالوا: كذا وكذا - وفي رواية الطبراني في الأوسط والبخاري في تاريخه - وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديهم تسمعهم ما يؤذيهم، فإن رأيت أن تكف عنهم - فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك. فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه فيه، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن القيام معه، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم لو وُضعتْ الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه».

وفي رواية الطبراني أنه ﷺ قال لعمه: «والله ما أنا باقدر ان ادع ما بُعثتُ به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة نار».

فهل هناك تجرد للدين أقوى وآكد من هذا التجرد؟

٢ – وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن المسوّر رضى الله عنه – مرفوعا – فى قصة منع المشركين لرسول الله ﷺ وصحابته من العمرة فى يوم الحديبية – أن رسول الله ﷺ قال: «ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، فماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن الله أظهرنى عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن يقبلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة»[1].

٣ – وأخرج الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والحاكم فى المستدرك عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال: قَدِمَ رسول الله ﷺ من غزاة له فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين – وكان يعجبه إذا قدم من سفر أن يدخل المسجد فيصلى فيه ركعتين يثنى بفاطمة ثم أزواجه رضى الله عنهن – فقدم من سفره مرة فأتى فاطمة فبدأ بها قبل بيوت أزواجه فاستقبلته على باب البيت فاطمة فجعلت تقبل وجهه – وفى لفظ فاه وعينيه – وتبكى، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما يبكيك؟» قالت: أراك يا رسول الله قد شحب لونك واخلولقت ثيابك، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا فاطمة لاتبكى، فإن الله بعث أباك بأمر لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر ولا شعر إلا أدخله الله به عزا أو ذُلا، حتى يبلغ حيث يبلغ الليل».

٤ – وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسنده عن المسَوّر بن مخرمة رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «إن الله بعثنى رحمة للناس كافة فأدُّوا عنى – رحمكم الله – ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام، فإنه دعاهم إلى مثل ما أدعوكم إليه، فأما من بعد مكانه فكرهه، فشكا عيسى ابن مريم ذلك إلى الله عز وجل، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بكلام القوم الذين وُجِّه إليهم، فقال لهم عيسى – عليه السلام – هذا أمر قد عزم الله لكم عليه فافعلوا».

فقال أصحاب رسول الله ﷺ: «نحن يا رسول الله نؤدى إليك فابعثنا حيث شِئْتَ».

– فبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى.

– وبعث سُلَيْط بن عمر رضى الله عنه إلى هوذة بن على صاحب اليمامة.

– وبعث العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه إلى المنذر بن ساوى صاحب هَجَر.

---

(١) تعبير: حتى تنفرد هذه السالفة معناه: أنه سيستمر فى جهادهم حتى الموت.

- وبعث عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى جيفر وعبَّاد ابنى الجلندَى ملكى عُمان.

- وبعث دحية الكلبى رضى الله عنه إلى قيصر.

- وبعث شجاع بن وهب الأسدى رضى الله عنه إلى المنذر بن الحارث بن أبى شمر الغسانى.

- وبعث عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه إلى النجاشى. فرجعوا جميعا قبل وفاة رسول الله ﷺ غير العلاء بن الحضرمى؛ فإن رسول الله ﷺ توفى وهو بالبحرين.

وزاد أصحاب السِّيَر:

- وبعث المهاجر بن أبى أمية إلى الحارث بن عبد كُلال.

- وبعث جرير بن عبد الله رضى الله عنهما إلى ذى الكلاع.

- وبعث السائب بن خلاد رضى الله عنه إلى مسليمة.

- وبعث حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه إلى المقوقس.

* وروى مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كتب قبل موته إلى: كسرى، وقيصر، وإلى النجاشى[1] وإلى كل جبار عنيد يدعوهم إلى الله عز وجل.

٥ - وروى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أوذيتُ فى الله وما يؤذى أحد، وأُخفت فى الله وما يخاف أحد، ولقد أتَتْ علىّ ثلاثون من يوم وليلة وما لى ولبلال - رضى الله عنه - ما يأكله ذو كبد إلا ما يوارى إبط بلال».

٦ - وروى الطبرانى بسنده فى الأوسط عن الحارث بن الحارث رضى الله عنه قال: قلت لأبى ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابىء لهم، قال: فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله عز وجل والإيمان، وهم يردون عليه ويؤذونه حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه، أقبلت امرأة قد بدا نحرها، تحمل قدحًا ومنديلا فتناوله منها، فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال: يا بُنيّة: خمّرى عليك نحرك ولا تخافى على أبيك» قلنا: من هذه؟ قالوا: هذه زينب بنته - رضى الله عنها -.

٧ - وروى ابن أبى شيبة عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: ما رأيت قريشا أرادوا قتل

---

(١) ليس هو النجاشى الذى هاجر المسلمون فى عهده إلى الحبشة مرتين فذلك النجاشى مات فى حياة رسول الله ﷺ وصلى عليه صلاة الغائب، وإنما هو نجاشى آخر - والنجاشى لقب لكل من يملك الحبشة.

النبى ﷺ إلا يوما، ائتمروا به وهم جلوس فى ظل الكعبة ورسول الله ﷺ يصلى عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبى معيط فجعل رداءه فى عنقه ثم جذبه حتى وجب[1] لركبتيه ساقطا، وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه يشتد حتى أخذ بضبعى رسول الله ﷺ من ورائه ويقول: ﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ** ﴾ [غافر: ٢٨]، ثم انصرفوا فقام رسول الله ﷺ، فلما قضى صلاته مَرَّ بهم وهم جلوس فى ظل الكعبة، فقال: يا معشر قريش: والذى نفس محمد بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح » وأشار بيده إلى حلقه، فقال له أبو جهل: ما كنت جهولاً، فقال له رسول الله ﷺ: « أنت منهم ».

٨ - وروى البخارى بسنده عن عروة أن عائشة رضى الله عنها حدثته أنها قالت للنبى ﷺ: « هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد؟ قال: « لقد لقيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليه، وقد بعث الله إليك ملك الجبال فسلّم علىّ ثم قال: يا محمد، فقال ذلك، فما شئت؟ إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين[2]. قال النبى ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئًا » وأخرجه مسلم والنسائى.

٩ - وروى البيهقى بسنده - فى دلائل النبوة - عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهرى[3] قال: كان رسول الله ﷺ فى تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم، ويكلم كل شريف قوم لا يسالهم مع ذلك إلا أن يردوه ويمنعوه ويقول: « لا أُكره أحدا منكم على شىء، من رضى منكم بالذى أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزونى عما يراد بى من القتل حتى أُبلغ رسالات ربى، وحتى يقضى الله عز وجل لى ولمن صحبنى بما شاء الله ».

فلم يقبله أحد منهم، ولم يأت أحد من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به،

---

(١) أى سقط.

(٢) هما جبلان مطبقان بمكة وهما جبل أبى قبيس، والجبل الأحمر.

(٣) موسى بن عقبة وابن شهاب من التابعين، وابن شهاب أول من جمع الحديث النبوى الشريف.

أترون أن رجلا يصلحنا، وقد أفسد قومه ولفظوه؟ فكان ذلك مما ذَخَرَ الله للأنصار وأكرمهم به.

فلما توفى أبو طالب ارتد البلاء على رسول الله ﷺ أشدَّ ما كان، فعمد لثقيف بالطائف رجاء أن يؤووه فوجد ثلاثة منهم - هم سادة ثقيف يومئذ وهم إخوة:

عبد يا ليل بن عمرو، وحبيب بن عمرو، ومسعود بن عمرو، فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم البلاء وما انتهك منه قومه.

فقال أحدهم: أنا أمْرق - أمزِّق - أستار الكعبة إن كان الله قد أرسلك بشيء.

وقال الآخر: أعَجَزَ الله أن يرسل غيرك.

وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا أبدا، والله لئن كنت رسول الله لأنت أعظم شرفا وحقا من أن أكلمك، ولئن كنت تكذب على الله لأنت أشر من أن أكلمك.

وهزءوا به، وأفشوه في قومهم الذى راجعوه به، وقعدوا له صفَّيْن على طريقه، فلما مرَّ رسول الله ﷺ بيْن صفَّيْهم جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدّوا، حتى أدموا رجليه.

فخلص منهم وهما يسيلان الدماء، فعمد إلى حائط - بستان - من حوائطهم واستظل فى ظل حبلة[1] منه وهو مكروب مُوجَع تسيل رجلاه دما، فإذا فى الحائط عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما الله ورسوله، فلما رأياه أرسلا إليه غلاما لهما يدعى عداسا - وهو نصرانى من أهل نينوى - معه عنب، فلما جاءه عداس قال له رسول الله ﷺ: من أى أرض أنت يا عداس؟ قال عداس: أنا من أهل نينوى، فقال له النبى ﷺ: من مدينة الرجل الصالح يونس بن مَتَّى؟ فقال له عداس: وما يدريك من يونس بن متَّى؟ قال له رسول الله ﷺ:

- وكان لا يحقر أحدا أن يبلغه رسالة ربه - أنا رسول الله، والله تعالى أخبرنى خبر يونس بن متىً.

فلما أخبره بما أوحى الله عز وجل من شأن يونس بن متى خرَّ عداس ساجدا لرسول الله

(١) كرمة وهى شجرة العنب.

ﷺ وجعل يقبل قدميه وهما يسيلان الدماء.

فلما أبصر عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا، فلما أتاهما قالا: ما شأنك؟ سجدت لمحمد وقبَّلت قدميه ولم نرك فعلته بأحد منا؟ قال: هذا رجل صالح أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متَّى، فضحكا به، وقالا: لا يفتننك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع، فرجع رسول الله ﷺ إلى مكة».

١٠ - وروى البخارى ومسلم والترمذى بأسانيدهم عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ كُسرت رباعيته[1] يوم أحد، وشُج فى رأسه فجعل يسلت الدم عن وجهه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله؟ فنزل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وبعـــد:

فهذه مواقف للنبى ﷺ توضح تجرده للدين والدعوة، متحملا فى سبيل ذلك كل هذا العناد، والتعنت والإيذاء بل التعذيب الذى ذكرنا طرفا منه فى هذه المواقف، وكان باستطاعته - إن لم يكن متجردا لدينه ودعوته - أن يهادنهم أو يصانعهم تأمينا لحياته وحياة من معه من المؤمنين.

ولكنه لم يفعل، وحاشا له أن يفعل وهو المثل الأعلى فى الصبر والتحمل لدين الله ودعوته حتى يظهر الله دينه أو يهلك الرسول ﷺ دون ذلك، كما جاء ذلك على لسانه ﷺ.

وقد ورث الصحابة رضوان الله عليهم صفات رسول الله ﷺ فى التجرد والصبر والتحمل، على قدر ما استطاعوا، ثم توارث هذه الصفات صالحو المؤمنين فى الأزمان المتعاقبة حتى يوم الناس هذا الذى نعيشه بل إلى يوم الدين.

وذلك هو ما نذكر نماذج له فى الصفحات التالية، والله الموفق

---

(١) الرباعية هى: السن بين الثنية والناب وهى أربع: رباعيتان فى الفك الأعلى ورباعيتان فى الفك الأسفل.

ثانياً : التجرد عند بعض الصحابة

رضى الله عنهم

أصحاب الرسول ﷺ كانوا نجوما فى ظلام الليل يهتدى بها الحائر، وقمما يشار إليها فى مجال العلم والفهم عن رسول الله ﷺ، فهم قد عايشوه وتعاملوا معه وشاركوه حمل أعباء الدعوة إلى الله، وصبروا معه على المشاق وتحملوا معه متاعب هجرة الوطن والأهل والأموال، وحملوا من بعده أعباء نشر الدعوة إلى الله فى العالمين، وأعباء جهاد المرتدين عن الإسلام، والشاغبين على الدولة الإسلامية الناشئة من شرقيها حيث الفرس ومن شماليها حيث الروم. وهم الذين تجردوا لهذه الدعوة حتى أحرزوا النصر على أكبر قوتين فى العالم آنذاك - فارس والروم -.

- وحياتهم رضوان الله عليهم مليئة بالمواقف النبيلة التى تجلى فيها التجرد والإخلاص وابتغاء وجه الله فى كل عمل يقومون به، حتى يصل بهم الأمر إلى أن يبايعوا رسول الله ﷺ على الموت، فهل بعد هذا تجرد للدين وللحق الذى يؤمنون به؟

فقد روى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى بأسانيدهم عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : بايعت النبى ﷺ، ثم عدلتُ إلى ظل الشجرة، فلما خفَّ الناس قال - أى رسول الله ﷺ : « يا ابن الأكوع ألا تبايع »؟ قلتُ : قد بايعت يا رسول الله، قال : أيضًا - أى مرة أخرى - فبايعته الثانية.

قلت - والقائل هو يزيد بن أبى عبيد مولى أبى سلمة بن الأكوع وهو تابعى من أهل المدينة - يا أبا مسلم : على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال : على الموت.

فهل يقتضى التجرد أكثر من الموت فى سبيل الله؟ لقد بايعوا عليه الرسول ﷺ بل تزاحموا وتكاثروا على هذه البيعة، ودليل تزاحمهم وكثرتهم قول أبى سلمة : فلما خفَّ الناس.

وسوف أبدأ بالعشرة المبشرين بالجنة لما ميزهم به إيمانهم وإخلاصهم وتجردهم لله حتى بشرهم الرسول ﷺ بالجنة.

وما من أحد من هؤلاء العشرة رضى الله عنهم إلا تجرد لله من وطنه وماله وما يحب وهاجر

بدينه إلى الحبشة مرة أو مرتين أو هاجر إلى المدينة المنورة.

وقد كانت الهجرة فرضا على المؤمنين الأولين حتى فتح الله عليهم مكة، فحل محلها الجهاد في سبيل الله تعالى. أي كان التجرد من الوطن والأهل والعشيرة والمال والجاه والأصدقاء أصلا لا يتم الإيمان إلا به(١).

وهؤلاء العشرة هم:

١ - أبو بكر الصديق رضى الله عنه:

والتجرد لله وللدين عنده يرتبط بالتضحية والفداء.

- فقد أخرج الحافظ أبو الحسن الطربلسى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألَحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور فقال: «يا أبا بكر إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يُلحُّ حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد، كل رجل فى عشيرته، وقام أبو بكرفى الناس خطيبا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ.

وثار المشركون على أبى بكر رضى الله عنه وعلى المسلمين فضُربوا فى نواحى المسجد ضربا شديدا، ووطئ أبو بكر وضرب ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه، ونزوا على بطن أبى بكر، حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر - رضى الله عنه -، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته.

ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعلوا إلى أبى بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسُّوا منه بالسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألَحَّتْ عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لى علم بصاحبك، فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد

(١) لمعرفة حكم الهجرة ومعناها: انظر لنا: التربية الإسلامية فى سورة النساء: الآية ذات الرقم: ١٠٠ ونشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

ابن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دَنِفًا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال أبو بكر رضى الله عنه: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت: فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، قال: فإن لله عليّ أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا، أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة فقال أبو بكر: بأبى وأمي يا رسول الله ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى، وهذه أمي بَرَّةٌ بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت، وأقاموا مع رسول الله ﷺ فى الدار شهرا، وهم تسعة وثلاثون رجلا.

فهل هناك تجرد يعنى التضحية بالنفس وفداء الحق والدعوة والرسول ﷺ أكبر من هذا الموقف من الصديق رضى الله عنه.

والتجرد لله دائما مرتبط بالشجاعة:

- أخرج البزار فى مسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه خطبهم فقال: يأيها الناس: من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إنى ما بارزنى أحد إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر - رضى الله عنه -: إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشا، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوى إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر رضى الله عنه شاهرا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوى إليه أحد إلاَّ أهوى إليه، فهذا أشجع الناس.

- وأخرج البزار بسنده عن عليّ رضى الله عنه أنه قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا يُحادُّه وهذا يتلتله، ويقولون: أجعلت الآلهة إلها واحدا، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا ويجاهد هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله؟.

ثم رفع عليّ رضى الله عنه بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم هو؟ فسكت القوم فقال عليّ رضى الله عنه، فوالله لساعة من أبى بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه.

● والتجرد مرتبط بالإخلاص لله والاعتماد عليه وحده.

- أخرج البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشية، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة. حتى إذا بلغ برك الغِماد لقيه ابن الدُّغُنَّة وهو سيد القارة - قبيلة من بنى الهون - فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يُخْرَج ولا يَخْرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك فرجع.

وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر مثله لا يُخْرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم، ويحمل الكَلّ ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق.

فلم تكذّب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه فى داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره.

ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن.

وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يردّ إليك ذمتك

فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مُقرِّين أبا بكر الاستعلان.

قالت عائشة رضى الله عنها: فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال: قد علمت الذى عاقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلىّ ذمتى، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أُخفرت فى رجل عقدت له.

فقال أبو بكر رضى الله عنه: فإنى أردّ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل.

فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إنّ ابن أبى قحافة قد ردّ علىّ جوارى فشأنكم بصاحبكم.

وحين خرج أبو بكر من جوار ابن الدغنة لقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأسه ترابا، فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، فقال له أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ قال: أنتَ فعلتَ هذا بنفسك، وأبو بكر يقول: أى رب ما أحلمك، أى رب ما أحلمك، أى رب ما أحلمك».

هذا طرف مما تحمله أبو بكر الصديق فى سبيل الله ومن أجل تجرده لدينه، وقد كانت العافية من كل ذلك فى متناول يده، لو أنه لم يكن مخلصا لله تعالى كل هذا الإخلاص ومبتغيا بما ناله من أذى وجه الله.

٢ - الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

وقد ارتبط التجرد عنده رضى الله بالشجاعة وبالتضحية والفداء وبالصبر والتحمل، والتواضع والرحمة، وفى ذلك نسوق هذه النماذج لتجرده رضى الله عنه:

- روى ابن الجوزى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سألت عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لم سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدرى للإسلام فقلت: لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى، فما من نسمة فى الأرض أحب إلىّ من نسمة رسول الله ﷺ، فقلت: أين رسول الله؟ فقالت أختى: هو فى دار الأرقم بن أبى الأرقم عند الصفا، فأتيت الدار وحمزة فى أصحابه جلوس فى الدار ورسول الله ﷺ فى البيت، فضربت الباب فاستجمع القوم فقال لهم حمزة: مالكم؟ قالوا: عمر بن الخطاب، قال: فخرج

رسول الله ﷺ فأخذ بمجامع ثيابه ثم هزّه هزةً فما تمالك أن وقع على ركبته فقال: ما أنت بمنته يا عمر؟ قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال: فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد، قال: فقلت: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى والذى نفسى بيده، إنكم على الحق إن مِتم أو حييتم، فقلت: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه فى صفين:

حمزة فى أحدهما، وأنا فى الآخر، له كديد[1] ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إلىّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمانى رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق.

– وأخرج ابن إسحق عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما أسلم عمر رضى الله عنه قال: أى قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحى، فغدا عليه، قال عبد الله بن عمر: وغدوت معه أتبع أثره وأنظر ما يفعل – وأنا غلام أعقل كل ما رأيت – حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنى أسلمتُ ودخلتُ فى دين محمد ﷺ؟

قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعته أنا حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش – وهم فى أنديتهم حول الكعبة – ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، وعمر يقول من خلفه: كذب ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال: وطلح – أى أعيا – فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

قال: فبينما هم على ذلك إذا أقبل شيخ من قريش عليه حُلَّة حبرة وقميص مَوَشًّى، حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: صبأ عمر، قال: فمه؟ رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون؟ أتريدون بنى عدى يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل، قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه.

---

(١) الكديد: تراب ناعم فى الأرض إذا وطىء ثار غباره، ويقصد أنه كان لمشيهم فى الصفين أثر واضح من غبار مثار.

قال: فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك - أى بنىّ - العاص بن وائل السهمى».

- وروى ابن الأثير[1] بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: قال لى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: ما علمتُ أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهما واختصر عنزته - وهى مثل نصف الرمح - ومضى قِبَل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعا متمكنا، ثم أتى المقام فصلى متمكنا، ثم وقف على الحِلَق واحدة واحدة، وقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه ويوتم ولده ويرمل زوجته فليتبعنى وراء هذا الوادى.

قال علىّ: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه.

- وروى ابن الأثير بسنده عن ابن مليكة رضى الله عنه قال: بينما عمر رضى الله عنه قد وضع بين يديه طعام إذ جاء الغلام فقال: هذا عتبة بن فرقد - وهو والى البصرة من قِبَل عمر - قال: وما أقدم عتبة؟ ائذن له، فلما دخل رأى بين يدى عمر طعامه، خبز وزيت، قال عمر: اقترب يا عتبة فاصب من هذا، قال: فذهب يأكل فإذا هو طعام جشب (أى غليظ) لا يستطيع أن يسيغه، قال: يا أمير المؤمنين، هل لك فى طعام يقال له الحوّارى؟ قال: ويلك، ويسع ذلك المسلمين كلهم؟ قال: لا والله، قال: ويلك يا عتبة، أفاردت أن آكل طيبا فى حياتى الدنيا واستمتع؟.

فالتجرد هنا يحمل معنى مشاركة المسلمين فى مستوى الحياة التى يعيشون، دون تميز عليهم.

- وروى ابن الأثير بسنده عن زيد بن أسلم[2] مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أن عمر بن الخطاب طاف ليلة فإذا هو بامرأة فى جوف دار لها وحولها صبيان يبكون، وإذا قدر على النار قد ملأتها ماء، فدنا عمر بن الخطاب من الباب، فقال: يا أمة الله، أيْش

(١) ابن الأثير الجزرى: أسد الغابة فى معرفة الصحابة رضى الله عنهم.

(٢) هو زيد بن أسلم كان أبوه مولى لعمر بن الخطاب، وزيد فقيه مفسر من أهل المدينة تابعى جليل توفى ١٣٦هـ.

بكاء هؤلاء الصبيان؟ فقالت: بكاؤهم من الجوع، قال: فما هذه القدر التى على النار؟.

فقالت: قد جعلت فيها ماء أعللهم بها حتى يناموا أوهمهم أن فيها شيئًا من دقيق وسمن.

فجلس عمر فبكى، ثم جاء إلى دار الصدقة فأخذ غرارة وجعل فيها شيئًا من دقيق وسمن وشحم وثياب ودراهم، حتى ملأ الغرارة، ثم قال: يا أسلم احمل على، فقلت: يا أمير المؤمنين أنا أحمله عنك. فقال لى: لا أم لك يا أسلم، أنا أحمله لأنى أنا المسئول عنهم فى الآخرة.

قال: فحمله على عنقه حتى أتى به منزل المرأة. قال: وأخذ القدر فجعل فيها شيئًا من دقيق وشيئًا من شحم وتمر، وجعل يحركه بيده، وينفخ تحت القدر.

قال أسلم: وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته، حتى طبخ لهم، ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى شبعوا، ثم خرج وربض بحذائهم كأنه سبع، وخفت منه أن أكلمه، فلم يزل كذلك حتى لعبوا وضحكوا، ثم قال: يا أسلم، أتدرى لم ربضت بحذائهم؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأودعهم حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسى».

ذلك تجرد لله فى تحمل مسئولية من استرعاه الله من الناس.

٣ - ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه:

- أخرج ابن سعد[(١)] بسنده عن محمد بن إبراهيم التيمى[(٢)] قال: لما أسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية، فأوثقه رباطا، وقال له: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فقال عثمان رضى الله عنه: والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه».

وما صبر عثمان رضى الله عنه على تعذيب عمه إياه إلا لون فريد بل نادر من التجرد لهذا الدين، مع أنه كان حديث عهد بالدخول فيه آنذاك!!!

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى.

(٢) هو تابعى من أهل المدينة.

● وتجرد عثمان من ماله وهو كثير ومن عشيرته وهى قوة فى مكة، وهاجر إلى الحبشة مع زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان يعلم أن هجرته تعرض أمواله للضياع، ولكنه آثر الفرار بدينه، والعجيب أن هذا التجرد والإخلاص والتضحية حدثت من عثمان رضى الله عنه ولما يمض على دخوله فى الإسلام إلا زمن يسير.

وليس أدل على التجرد لله وللدين من هجرة الوطن والمال والعشيرة.

● ومن تجرده رضى الله عنه من أجل دينه وتضحيته بماله ما عرف من سيرته من أنه ابتاع أرضا ملاصقة لمسجد الرسول ﷺ توسع بها المسجد، وذلك عندما ندب الرسول ﷺ لذلك المسلمين فكان عثمان رضى الله عنه من أول من استجابوا لذلك.

● وتجرده من كثير من ماله فى إعداد جيش العسرة سيظل مضرب الأمثال، وكان جيش العسرة ثلاثين ألف مقاتل فجهز وحده ثلث هذا الجيش.

● وذكر أبو عمر يوسف بن عبد البر (٣٦٨ - ٤٦٣هـ) فى كتابه: «الدرر فى اختصار المغازى والسير»(١) أن عثمان رضى الله عنه عمل على تسعمائة بعير ومائة فرس بجهازها.

إن عثمان فيض كرم فى سبيل الله، فقد روى عبد الله بن الإمام أحمد بسنده عن عبد الرحمن بن خباب رضى الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان رضى الله عنه: علىّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل رسول الله ﷺ مرقاة أخرى من المنبر، فحثّ فقال عثمان رضى الله عنه: علىّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل مرقاة أخرى فحثّ. فقال عثمان رضى الله عنه: علىّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها كالمتعجب قائلاً: ما على عثمان ما عمل بعد هذا اليوم» أو قال: «بعدها».

● وأنه رضى الله عنه اشترى بئر «رومة» من ماله الخاص، ثم جعلها لمن يشرب من الناس، وكانت من قبل لا يشرب منها ابن السبيل.

● وقال ابن عباس رضى الله عنهما: «قحط الناس فى زمن أبى بكر رضى الله عنه، فقال أبو

---

(١) كتاب لا يزال مخطوطا.

بكر لا تمسون حتى يفرّج الله عنكم، فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال: لقد قدمتْ لعثمان ألف راحلة بُرًا، وطعاما، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه، فقال لهم: ما تريدون؟

قالوا: بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة بُرًا وطعاما، بِعْنا حتى نوسع على فقراء المدينة.

فقال لهم عثمان رضى الله عنه: ادخلوا فدخلوا، فإذا ألف وِقْر[1] قد صب فى الدار، فقال لهم: كم تربحونى على شرائى من الشام؟

قالوا: العشرة اثنا عشر.

قال: زادونى.

قالوا: العشرة أربعة عشر.

قال: زادونى.

قالوا: العشرة خمسة عشر.

قال: زادونى.

قالوا: مَنْ زادك ونحن تجار المدينة؟

قال: زادونى بكل درهم عشرة، هل عندكم زيادة؟

قالوا: لا.

قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة.

وهو رضى الله عنه يقصد - كما لا يخفى - أن الذى زاده هو الله تعالى إذ جعل الحسنة بعشرة أمثالها.

أفبعد هذا التجرد تجرد أو كرم أو تضحية؟

٤ - على بن أبى طالب رضى الله عنه:

التجرد لله تعالى ولدينه ولنبيه ﷺ كان خلقا عند علىّ رضى الله عنه منذ زمن باكر فى حياته، ولا عجب فى ذلك فقد تربَّى على فى بيت النبوة، وكان أكثر الناس تأثرا برسول الله ﷺ.

---

(١) الوِقْر: الحمل الثقيل.

● إن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه كان فى قمة التجرد لله عندما نام فى فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة وهو يعلم أن قريشا تنوى قتل الرسول الله ﷺ فى بيته ويحاصر عدد من شبانها منزله ينتظرون خروجه ليقتلوه أو يسجنوه أو يخرجوه من بلده مطرودا، نام عليّ فى فراش رسول الله ﷺ يوارى عنه العيون، وبات المشركون من قريش يختلفون فيما بينهم أيجثمون على من فى الفراش فنوثقه، أم نفعل كذا أم نفعل كذا، حتى أصبحوا فإذا عليّ رضى الله عنه يقوم من الفراش، فسألوه عن النبى ﷺ فأخبرهم أنه لا علم له به.

– وفى رواية لابن إسحق: «حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت بالنبى ﷺ وأرادوا برسول الله ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام، وأمره أن لا يبيت فى مكانه الذى يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه...».

● ومن تجرد عليّ رضى الله عنه لربه ولدينه أن كان دائمًا مضحيًا بنفسه فى كل معركة خاضها من أجل هذا الدين مقاتلا قتال من يقبل على الشهادة فى سبيل الله وينتظرها فى كل معركة خاضها مع رسول الله ﷺ.

– ففى غزوة بدر الكبرى يقول سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: لقد رأيت عليًا يخطر بالسيف هام المشركين.

– وفى غزوة أحد قال سعيد بن المسيَّب رضى الله عنه: لقد أصابت عليًا يوم أحد ست عشرة ضربة، كل ضربة تلزمه الأرض، فما كان يرفعه إلا جبريل عليه السلام.

– وقال ثعلبة بن أبى مالك رضى الله عنه: كان سعد بن عبادة رضى الله عنه صاحب راية رسول الله ﷺ فى المواطن كلها، فإذا كان وقت القتال أخذها عليّ بن أبى طالب.

– وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال: لما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء، فلما كان من الغد أخذ عمر، وقيل محمد بن مسلمة، فقال رسول الله ﷺ:

لأدفعن لوائى إلى رجل لم يرجع حتى يفتح الله عليه، فصلى رسول الله ﷺ الغداة، ثم دعا باللواء فدعا عليًا وهو يشتكى عينيه فمسحهما، ثم دفع إليه اللواء، ففتح.

قال عبد الله بن بريدة: حدثنى أبى أنه – أى عليّ – كان صاحب «مرحب» وهو مقاتل يهودى معروف – أى قاتله.

● هذه نماذج قليلة من تجرد عليّ رضى الله عنه لربه ودينه والحق الذى يؤمن به، وكانت نفسه أول ما يحب أن يضحى بها فى هذا السبيل، رضى الله عنه وأرضاه.

- وحياة على رضى الله عنه سلسلة من التجرد فى حربه وسلمه وتعامله مع أعدائه، منذ طفولته وإلى أن أصبح أميرا للمؤمنين بعد عثمان رضى الله عنه.

٥ - الزبير بن العوام رضى الله عنه:

ذكر ابن الجوزى عن أبى الأسود قال: أسلم الزبير وهو ابن ثمانى سنين، وهاجر وهو ابن ثمانى عشرة سنة.

- ومن تجرده لدينه وإصراره على المضى فيه على الرغم مما يتعرض له من إهانة وتعذيب، ما روى من أن عم الزبير كان يعلقه فى حصير ويدخن عليه بالنار، وهو يقول له: ارجع عن دينك، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً.

- وذكر ابن الجوزى بسنده عن سعيد بن المسيب قال: أول من سَلَّ سيفا فى سبيل الله الزبير ابن العوام رضى الله عنه، بينا هو بمكة إذ سمع نغمة - يعنى صوتا - أن النبى ﷺ قد قتل، فخرج عريانا ما عليه شيء، فى يده السيف صلتًا، فتلقاه النبى ﷺ كَفَّةً بكَفَّة - أى مواجهة - فقال له: مالك يا زبير؟ قال: سمعت أنك قد قُتلتَ، قال: فما كنت صانعا؟ قال: أردتُ والله أن أستعرض أهل مكة - أى أعترضهم وأقتلهم - ولا أُبالى من قتلتُ، فدعا له النبى ﷺ.

- وروى الإمام مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال النبى ﷺ: «لكل نبى حوارىّ، وحواريّى الزبير».

فهذا تجرد لله ولرسوله ﷺ وتعرض للموت أكثر من مرة.

- وروى مسلم بسنده عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال: كنتُ أنا وعمر بن أبى سلمة يوم الخندق مع النسوة فى أُطم حسان رضى الله عنه، فكان يطأطئ لى مرة فأنظر، وأطأطئ له مرة فينظر، فكنت أعرف إذا مرّ على فرسه فى السلاح إلى بنى قريظة فيقاتلهم، فقلت له: يا أبت إن كنت لأعرفك حين تمرّ ذاهبا إلى بنى قريظة، فقال: ورأيتنى يا بنى؟ قلت: نعم، قال: أما والله لقد جمع لى رسول الله يومئذ أبويه فقال: فداك أبى وأمى.

- وأكثر ما يكون التجرد لله تعالى وضوحا عندما يتجرد الإنسان من ماله لوجه الله تعالى - والمال من أحب وأغلى ما يملكه الإنسان - وللزبير رضى الله عنه فى ذلك أروع الأمثلة:

- روى ابن الجوزى بسنده عن الأوزاعى عن نهيك بن الصريم قال: كان للزبير رضى الله عنه ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منهم درهم، يتصدق بها، وفى رواية: فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله ليس معه شىء منه.

- وروى ابن الجوزى بسنده عن جويرية قالت: باع الزبير دارا له بستمائة ألف، فقيل له: يا أبا عبد الله غُبِنْتَ، قال: كلا والله لتعلمن أنى لم أُغْبَن هى فى سبيل الله تعالى».

- وروى أبو نعيم بسنده عن حفص بن خالد قال: حدثنى شيخ قدم علينا من الموصل قال: صحبت الزبير بن العوام رضى الله عنه في بعض أسفاره فأصابته جنابة بأرض قفر، فقال: استرنى، فحانت منى إليه التفاتة فرأيته مُجَدَّعا بالسيوف، قلت: والله لقد رأيت بك آثارا ما رأيتها بأحد قط، قال: وقد رأيت ذلك؟ قلت: نعم، قال: أما والله ما منها جراحة إلا مع رسول الله ﷺ وفى سبيل الله.

- وروى أبو نعيم - فى الحلية - بسنده عن علىّ بن زيد، قال: أخبرنى من رأى الزبير رضى الله عنه، وإن في صدره لأمثال العيون من الطعن والرمى.

٦ - سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

ذكر ابن حجر فى كتابه «أسد الغابة» قال: قال أبو عثمان النهدى أن سعد بن أبى وقاص قال: نزلت هذه الآية فىّ: ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا...** ﴾ [لقمان: ١٥]، وقال: كنت رجلا برًا بأمى، فلما أَسْلمتُ قالتْ: يا سعد، ما هذا الدين الذى أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموتَ فتُعَيَّر بى.

فقال لها: لا تفعلى يا أمّه، فإنى لا أدع دينى، قال: فمكثت يوما وليلة لا تأكل، فاصبحت وقد جهدتْ، فقلتُ: والله لو كان لك ألف نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت دينى هذا بشىء، فلما رأت ذلك أكلت وشربت، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

- وروى ابن إسحق فى كتابه: «المغازى» قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يستخفون بصلاتهم، فبينا سعد فى شِعْب من شعاب مكة فى نفر من الصحابة، إذ ظهر عليهم المشركون، فنافروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فَشجه، فكان أول دم اريق فى الإسلام».

- وأخرج أبو نعيم فى: «الحلية» بسنده عن سعد رضى الله عنه قال: كنا قوما يصيبنا ظلف

العيش بمكة [1] مع رسول الله ﷺ، وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومَرَنَّا عليه، وصبرنا له، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة، خرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع بقعقعة شيء تحت بولي، فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها، فوضعتها بين حجرين، ثم أستفها، وشربت عليها من الماء فقويت عليها ثلاثا».

– وروى ابن الجوزي بسنده عن قيس قال: سمعتُ سعد بن مالك بن أبي وقّاص يقول: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله عز وجل، ولقد رأيتنا نغزوا مع رسول الله ﷺ، وما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة [2] وهذا السمر، حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ماله خلط...».

● وهذه القصص تدل على تجرد الزبير رضي الله عنه من أعراض الدنيا وزينتها، واختياره هذه الحياة دون حياة السعة والرفاهية وكانت في استطاعته إذ كان كثير المال.

– وروى مسلم بسنده عن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه أن النبي ﷺ جمع له أبويه يوم أحد [3]، قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين [4] فقال له – أي لسعد –: ارم فداك أبي وأمي، قال: فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته فضحك رسول الله ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه».

– قال ابن حجر في كتابه «الإصابة...» قال الزهري [5]: «رمى سعد يوم أحد ألف سهم».

٧ – طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:

– أخرج البخاري في تاريخه بسنده عن مسعود بن خراش رضي الله عنه قال: بينا نحن نطوف بين الصفا والمروة إذا أناس كثير يتبعون فتى شاباً موثقا بيديه في عنقه، قلت: ما شأنه؟ قالوا: هذا طلحة بن عبيد الله صبأ، وامرأة وراءه تدمدم وتسُبّه، قلت: من هذه؟ قالوا: الصعبة بنت الحضرمي أُمّه».

---

(١) الظَّلَف: ضيق المعيشة وشدتها.

(٢) الحَبْلة: الكرم والحُبْلة: ثمر فصيلة القطانيات كالفول والعدس إلخ.....

(٣) وقد جمعهما رسول الله ﷺ للزبير كما قدمنا.

(٤) أحرق المسلمين أو أوجعهم بضرباته أو أكثر القتل فيهم.

(٥) الزهري: هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري (٥٨ – ١٢٤ هـ) من بني زهرة بن كلاب من قريش، أول من دون الحديث وأحد كبار حفاظه، وكان من الفقهاء، وهو تابعي من أهل المدينة، كان يحفظ ٢٢٠٠ حديث نبوي نصفها مسند، نزل الشام واستقر بها، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه.

● ومن تجرده لله وتحمله فى سبيله، أنه لما أسلم بعد أن دخل به أبو بكر على رسول الله ﷺ، جاء نوفل بن خويلد بن العدوية فأخذ أبا بكر وطلحة فشدهما فى حبل واحد - ولم يمنعهما بنو تيم - وكان نوفل بن خويلد يُدْعى أسد قريش لشدته وبطشه، ولذلك سمى أبو بكر وطلحة القرينين.

● وأوضح ما يميز تجرد طلحة تجرده من ماله فى سبيل الله وقد كان موسرا بل واسع اليسار.

- فقد أخرج الطبرانى فى الأوسط بسنده - ورجاله ثقات - عن سُعْدى بنت عوف زوجة طلحة رضى الله عنهما، قالت: دخل علىّ طلحة ورأيته مغموما، فقلت: ما شأنك؟ فقال: المال الذى عندى قد كثر وقد كربنى، فقلت: وما عليك قسّمه، فقسمه حتى ما بقى منه درهم. قال حفيده طلحة بن يحيى: فسألت خازن طلحة؛ كم كان المال؟ فقال: أربعمائة ألف.

- وأخرج أبو نعيم فى «الحلية» بسنده عن طلحة بن يحيى بن طلحة عن جدته سعدى بنت عوف زوجة طلحة قالت: كانت غلة طلحة كل يوم ألفا وافيا، وكان يسمى طلحة الفياض.

- وعن الحسن أن طلحة بن عبيد الله باع أرضا من عثمان رضى الله عنه بسبعمائة ألف فحملها إليه، فلما جاء بها قال: إن رجلا تبيت هذه عنده فى بيته لا يدرى ما يطرقه من أمر الله لغرير، فبات ورسله تختلف بها فى سكك المدينة، حتى أسحر وما عنده منها درهم».

وعن سُعدى زوجته قالت: لقد تصدق طلحة يوما بمائة ألف درهم، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفى ثوبه.

● ولم يتجرد طلحة من ماله فى سبيل الله إلا لفرط تجرد قلبه وعقله من غير الله تعالى ودين الحق الذى آمن به.

● وكان من تجرده تضحيته بنفسه، فقد كان شجاعا مقداما فدائيًا مضحيا على الدوام.

وما فعله يوم أحد فى فداء رسول الله ﷺ والذود عنه يعد مضرب المثل فى الشجاعة.

- فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ - أى يوم أحد - أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع...».

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك كله يوم طلحة.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: كنت أول من جاء يوم أحد، فقال لى رسول الله ﷺ ولأبى عبيدة بن الجراح: «عليكما» يريد طلحة وقد نزف، فأصلحنا من شأن النبى ﷺ، ثم أتينا طلحة فى بعض تلك الحفار فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر بين طعنة وضربة ورمية، وإذا قد قطعت أصبعه فأصلحنا شأنه.

- وذكر ابن الأثير فى كتابه: أسْد الغابة بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشى على رجليه فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

- وروى الترمذى بسنده عن موسى بن طلحة عن أبيه رضى الله عنه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من أحد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ هذه الآية: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٢٣] فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله من هؤلاء؟ فأقبلتُ وعلىَّ ثوبان أخضران فقال: «أيها السائل هذا منهم».

- ومن تكريم رسول الله ﷺ لطلحة أن سماه يوم أحد: طلحة الخير، ويوم العسرة: طلحة الفياض، ويوم حنين طلحة الجود.

تلك نماذج قليلة من تجرد طلحة لله ولدين الحق وتضحيته فى سبيل ذلك بماله ونفسه، وإن تاريخه لحافل بمثل هذه المواقف.

٨ - عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه:

وكان رضى الله عنه من أوسع الصحابة ثراء، من تجارته، وكان جزيل العطاء، سريع التجرد من ماله لله ولدينه، وللمؤمنين، ولكل ما هو إنفاق فى سبيل الله تعالى.

- وكان كغيره ممن دخلوا فى الإسلام فى زمن باكر، فهاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم، مضحين بأوطانهم وأموالهم وعشائرهم.

● وقد جُرح عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يوم أحد إحدى وعشرين جراحة، وجرح فى رجله فكان يعرج منها، كما سقطت ثنيتاه فى هذه المعركة.

● وفى تجرده من المال نماذج كثيرة نذكر قليلا منها فيما يلى:

– روى ابن الأثير بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قدمت لعبد الرحمن سبعمائة راحلة تحمل البُرَّ وتحمل الدقيق والطعام، فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة، فقالت عائشة – رضى الله عنها –: ما هذه الرجة؟ فقيل لها: عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف، سبعمائة بعير تحمل البُرَّ والدقيق والطعام، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبوا» فلما علم ذلك عبد الرحمن قال: يا أمه إنى أشهدك أنها بأحمالها وأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله عز وجل».

– وروى معمر عن الزهرى قال: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفا، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة.

– وقال الزهرى: أوصى عبد الرحمن لمن بقى ممن شهد بدرا لكل رجل أربعمائة دينار، وكانوا مائة رجل فأخذوها، وأخذها عثمان بن عفان، وأوصى عبد الرحمن بألف فرس فى سبيل الله».

– وروى أبو نعيم فى «الحلية» بسنده عن المسوَّر بن مخرمة رضى الله عنه قال: باع عبد الرحمن بن عوف أرضا له من عثمان بن عفان بأربعين ألف دينار، فقسم ذلك المال فى بنى زهرة وفقراء المسلمين وأمهات المؤمنين.

قال ابن مخرمة: وبعث إلى عائشة معى بمال من ذلك المال فقالت عائشة: أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يحنو عليكم بعدى إلا الصالحون».

– وروى أنو نعيم فى: «الحلية» بسنده عن جعفر بن بُرقان[١] الجزرى قال: بلغنى أن عبدالرحمن بن عوف أعتق ثلاثين ألف بنت» وفى رواية: بيت.

---

(١) هو جعفر بن برقان الجزرى من أتباع التابعين بالشام (١١٠ – ١٥٤هـ) من فقهاء الجزيرة وقرائهم – على الرغم من أنه كان أميًا.

٩ – أبو عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه:

هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة متجردا من الوطن والمال والعشرة مؤثرا ما عند الله، وقيل هاجر الهجرتين إلى الحبشة وشهد بدرا وما بعدها.

● وقد بلغ بعض الصحابة من التجرد لله حداً جعلهم يقتلون ذويهم الذين كانوا على الكفر، حتى إنهم قد نزل فيهم فى هذه المواقف قرآن كريم، ومنهم أبو عبيدة بن الجراح.

– فقد روى ابن الأثير فى كتابه: «أسد الغابة» قال: ولما كان أبو عبيدة ببدر يوم الوقعة، جعل أبوه يتصدى له، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر أبوه قَصْدَه، قتله أبو عبيدة، فأنزل الله تعالى: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وذكر الواحدى فى كتاب «أسباب النزول» أن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال: نزلت هذه الآية فى أبى عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، وفى أبى بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، فقال: يا رسول الله: دعنى أكن فى الرعلة الأولى[١]، فقال له رسول الله ﷺ: متعنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنك عندى بمنزلة سمعى وبصرى؟ وفى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد، وفى عمر بن الخطاب قتل خاله العاص ابن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفى علىّ وحمزة قتلا عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ﴾

● ومن تجرده لله تعالى ولدينه ونبيه أنه ثبت مع الرسول ﷺ يوم أحد، ونزع يومئذ بقية الحلقتين اللتين دخلتا وجنة رسول الله ﷺ من حلق المغفر[٢] فوقعت ثنيتا أبى عبيدة فكان من أحسن الناس هتما.

● ومن تجرده من نعم الدنيا إيثارا لما عند الله فى الآخرة ما رواه أحمد بسنده عن هشام بن

---

(١) الرُّعْلة: الجماعة القليلة التى تتقدم غيرها وتسبقها.
(٢) المِغْفر: زَرَدٌ ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

عروة بن الزبير بن العوام قال: لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: الآن يأتيك، فلما أتاه نزل فاعتنقه، ثم دخل عليه بيته، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر: ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين: هذا يبلغني المقيل.

● وحسب أبي عبيدة فخرا ومنزلة عند الله تعالى في تجرده لربه ودينه ونبيه، حسبه أن رسول الله ﷺ أطلق عليه لقب أمين الأمة.

– فقد روى البخاري بسنده عن أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

١٠ – سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل رضي الله عنه:

يقول عنه أبو نعيم في «الحلية»:

كان للحق قوّالا، ولماله بذّالا، ولهواه قامعا قتّالا، ولم يكن يخاف في الله لومة لائم.

وهو زوج أخت عمر بن الخطاب ومن أبناء عمومته، وسبق عمر بن الخطاب إلى الإسلام، وشهد بدرا بسهمه وأجره[1] لكنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعد رسول الله ﷺ شهد اليرموك وحصار دمشق وفتحها.

● ومن تجرده لله ولدينه ولرسوله ﷺ أنه كان يقوم بالمهمات الصعبة، فقد كان أحد رجلين – الآخر هو طلحة بن عبيد الله – اختارهما الرسول ﷺ قبيل غزوة بدر ليتجسسا له الأخبار في طريق الشام، فقاما بعملهما خير قيام، ثم عادا إلى المدينة، فقدماها يوم وقعة بدر، فضرب لهما رسول الله ﷺ بسهمهما وأجرهما.

● ومن تجرده وإخلاصه لربه ودينه ونبيه ﷺ أنه كان دائمًا أمام رسول الله ﷺ في القتال وراءه في الصلاة – أي في الصف الأول –.

قال سعيد بن جبير: «كان مقام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، كانوا أمامه في القتال ووراءه في الصلاة – أي في الصف الأول–.

---

(١) لم يشهد بدرا لأن رسول الله بعثه في مهمة يعرف له خبر أعدائه فلم يعد من مهمته إلا بعد خرج المسلمون إلى بدر، فكان له سهم من حضر وأجره.

● ومن تجرد سعيد بن زيد رضى الله عنه أن تحمل العناء والوثاق من ابن عمه وصهره عمر بن الخطاب قبل أن يسلم عمر، تحمل ذلك فى سبيل الله.

– فقد أخرج البخارى بسنده عن قيس قال: سمعنا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه فى مسجد الكوفة يقول: والله لقد رأيتنى وإن عمر لموثقى على الإسلام، وفى رواية أخرى للبخارى: «لقد رأيتنى موثقى عمر على الإسلام أنا وأخته، وما أسلم».

● ومن تجرده لله ولدينه أنه لم يبال أن يتعرض لأذى عمر بن الخطاب – وكان عمر لا يزال على الكفر – يوم علم عمر أن أخته وزوجها سعيد ابن عمه قد دخلا فى الإسلام، إذ قال لهما عمر بن الخطاب يومئذ: لعلكما قد صبوتما، فقال له سعيد: أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك، فوثب عمر على ختنه سعيد فوطأه وطئا شديدا، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها بيده نفحة فدمَّى وجهها، فقالت – وهى غضبى –: يا عمر إن كان الحق فى غير دينك... إلى آخر الحوار الذى دار بينهما والذى كان من نتيجته أن دخل عمر بن الخطاب فى الإسلام.

١١ – مصعب بن عمير رضى الله عنه:

● دخل مصعب على رسول الله ﷺ دار الأرقم وكتم إسلامه، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرًا، فلما علم به قومه حبسوه، فلم يزل محبوسا حتى خرج مهاجرا إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى، ثم عاد من الحبشة إلى مكة.

ثم أمره رسول الله ﷺ أن يذهب إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى يعلم المسلمين هناك القرآن والإسلام.

● وكان مصعب قبل إسلامه بين أبوين يغذوانه أطيب الطعام ويكسوانه أحسن الثياب، فآثر الإسلام على هذه الحياة المرفهة، وقبل العيش الخشن والحبس والهجرة والاغتراب، فكان بذلك من خيار المتجردين لله.

– ذكر ابن الجوزى فى كتابه: «صفة الصفوة» عن ابن شهاب قال: لما بايع أهل العقبة رسول الله ﷺ، ورجعوا إلى قومهم فدعوهم إلى الإسلام سرًا وتلوا عليهم القرآن، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك: أن ابعث إلينا رجلا مِنْ قِبَلك، فليدع الناس بكتاب الله فإنه قَمِنٌ أن يُتبع، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، فلم يزل يدعو آمنا ويهدى الله تعالى على يديه حتى قلَّ دار من دور الأنصار إلا وقد أسلم

أشرافهم؛ فأسلم عمرو بن الجموح، وكسرتْ أصنامهم.

وكان المسلمون أعز أهل المدينة.

فرجع مصعب إلى رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وافوه فى العقبة الثانية، فأقام مصعب بمكة قليلا، ثم قدم المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها.

● ومن تجرد مصعب لله ولدعوته أنه لم يبال بتهديد أسيد بن حضير وسعد بن معاذ - قبل أن يسلما وتوعدهما مصعبا إن لم يكف عن دعوته، لم يبال بذلك وإنما قال لكل واحد منهما: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال له كل منهما: أنصفت وجلس - وكان قد ذهب كل منهما إلى مصعب على حدة يهدد ويتوعد - فلما عرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن: ﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ١ - ٥]. فآمن كل منهما بالله، وشجع سعد بن معاذ قومه بنى عبد الأشهل على الدخول فى الإسلام - وكانت مكانته فيهم معروفة - فقال لهم: كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة(١).

● لقد بلغ مصعب فى التجرد لله ولرسوله ولدينه حداً جعل الرسول ﷺ يثنى عليه.

- روى الحاكم فى مستدركه بسنده عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ وآله جالساً بقباء، ومعه نفر، فقام مصعب بن عمير - رضى الله عنه - عليه بردة ما تكاد تواريه، ونكّسَ القوم، فجاء فسَلَّم فردُّوا عليه فقال فيه النبى ﷺ خيرا وأثنى عليه ثم قال: «لقد رأيت هذا عند أبويه بمكة يكرمانه وينعمانه، وما فتىً من فتيان قريش مثله، ثم خرج من ذلك ابتغاء مرضاة الله ونصرة رسوله - أما إنه لا يأتى عليكم إلا كذا وكذا حتى يفتح الله عليكم فارس والروم فيغدو أحدكم فى حُلة ويروح فى حلة، ويغدى عليكم بقصعة ويراح عليكم بقصعة» قالوا: يا رسول الله، نحن اليوم خير أو ذلك اليوم؟ قال: «بل أنتم اليوم خير منكم ذلك اليوم، أما لو تعلمون من الدنيا ما أعلم لاستراحت أنفسكم منها».

● ومن تجرد مصعب لله ولدينه أنه آثر أن ينفع المسلمين بمال أمه تفتدى به أخاه أبا عزيز

---

(١) انظر هذه القصة كاملة فى: البداية والنهاية لابن كثير القرشى: ٣/ ١٥٢ ط الحلبى دون تاريخ.

الذى أسر في بدر وكان مشركا، فقد قال مصعب لآسر أخيه: شُدَّ يديك عليه – أو به – فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك.

فقال له أخوه أبو عزيز بن عمير: هذه وصاتك بى؟ فقال له مصعب: إنه أخى دونك – يقصد المسلم الذى أسر أبا عزيز – فسألت أمه عن أغلى ما فدى به قرشى فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها.

١٢ – عبد الله بن مسعود رضى الله عنه:

ويقال له: ابن أم عبد، وكان ابن مسعود ملازما لرسول الله ﷺ، يمشى أمامه ويوقظه إذا نام، ويستره إذا اغتسل، ويمشى معه فى الأرض وَحْشًا – أى ليس معه غيره.

قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه عن ابن مسعود رضى الله عنه: إنه كان أقرب الناس برسول الله هديًا وسمتًا ودلاً ولقد علم أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله زلفى».

● وأوضح ما كان التجرد لله وللدين عند ابن مسعود رضى الله عنه فى العلم، فقد قال عنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما أقبل عبد الله على مجلس: «كنيف ملئ علما».

وقال عنه على بن أبى طالب رضى الله عنه: «عُلِّم القرآن وعلم السنة، ثم انتهى وكفى به علما».

وقال عنه أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: لا تسألونى عن شيء ما دام هذا الحبر فيكم.

وقال ابن مسعود رضى الله عنه عن نفسه: والذى لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، وفيما نزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى، تناله المطىّ لأتيته».

وقال مسروق[1] رحمه الله: شاممتُ أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة نفر منهم:

عمر، وعلى، وعبد الله، وأبى بن كعب، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم شاممت هؤلاء

---

(١) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمدانى توفى عام ٦٣ هـ. تابعى ثقة من أهل اليمن، قدم المدينة فى عهد أبى بكر الصديق وسكن الكوفة وشهد حروب على، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه بالقضاء.

الستة فوجدت علمهم انتهى إلى رجلين منهم: على، وعبد الله (بن مسعود).

● وذكر ابن الجوزى فى كتابه: «صفة الصفوة» عن الشعبى[1] قال: ذكروا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقى ركبًا فى سفر له فيهم عبد الله بن مسعود، فأمر عمر رجلا يناديهم: من أين القوم؟ فأجابه عبد الله: أقبلنا من الفج العميق.

فقال عمر: أين تريدون؟.

فقال عبد الله: البيت العتيق.

فقال عمر: إن فيهم عالما، وأمر رجلا فناداهم: أى القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال عمر رضى الله عنه: نادهم، أى القرآن أحكم؟ فقال ابن مسعود: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال عمر: نادهم، أى القرآن أجمع؟ فقال ابن مسعود: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فقال عمر: نادهم، أى القرآن أخوف؟ فقال ابن مسعود: ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١٢٣].

فقال عمر: نادهم، أى القرآن أرجى؟ فقال ابن مسعود: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر: ٥٣].

فقال عمر: نادهم، أفيكم ابن مسعود؟ قالوا: اللهم نعم.

١٣ - المقداد بن عمرو رضى الله عنه:

ويقال له: المقداد بن الأسود، هاجر إلى الحبشة، وكان أحد سبعة هم أول من أظهروا

---

(١) هو عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى (١٩ - ١٠٣ هـ) تابعى من الرواة يضرب المثل بحفظه ولد ونشأ ومات فجاة بالكوفة وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبد العزيز وكان فقيها شاعرا.

الإسلام بمكة.

شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو أول من عدا به فرسه في سبيل الله.

قال عنه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ما كان فينا فارس يوم بدر إلا المقداد.

● ومن تجرده لله رضي الله عنه ما رواه الإمام أحمد بسنده عن طارق بن شهاب رضي الله عنه قال: قال عبد الله: لقد شهدتُ من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون أنا صاحبه أحبّ إليّ مما عدل به؛ أتى النبي ﷺ، وهو يدعو على المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك وبين يديك ومن خلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرَّه ذلك».

● ومن تجرده لله تعالى عزوفه عن الإمارة والولاية خشية أن يظلم أو يحابى أو يعرض نفسه للمساءلة أمام الله تعالى.

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ المقداد على سرية، فلما قدم قال له: أبا معبد كيف وجدت الإمارة؟ قال: كنتُ أُحمل وأوضع حتى رأيت أن لي على القوم فضلا، قال: هو ذاك، فخُذْ أو دع، قال: والذي بعثك بالحق لا أتأمَّرَنّ على اثنين أبدا».

١٤ - صهيب بن سنان رضي الله عنه:

كان من المستضعفين المعذبين في الله تعالى، وكان من السابقين الأولين في الدخول في الإسلام وفي الصبر على المعاناة من أجل إسلامه.

وهو سابق الروم إلى الإسلام(١) هاجر إلى المدينة وشهد بدرا والمشاهد كلها.

قال هو عن نفسه: لم يشهد رسول الله ﷺ مشهدا قط إلا كنتُ حاضره، ولم يبايع بيعة إلا كنتُ حاضرها، ولم يُسَيِّر سرية قط إلا كنت حاضرها، لا غزا غزاة قط أول الزمان وآخره إلا كنتُ فيها عن يمينه أو عن شماله، وما خافوا قط إلا كنت أمامهم، ولا ما وراءهم إلا كنتُ وراءهم، وما جعلتُ رسول الله ﷺ بيني وبينه العدو قط حتى توفي رسول الله ﷺ.

● وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: السُّبَّاق أربعة:

---

(١) صهيب بن سنان عربي الأصل من قاسط، ولكنه سبي صغيرا فبيع لبعض الروم، فانتقل معهم وعاش بينهم وتكلم بلسانهم فلذلك قيل له: صهيب الرومي.

«أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش».

● وعن مجاهد بن جبر - تابعى من أهل مكة - قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: النبى ﷺ، وأبو بكر، وبلال، وصهيب، وخباب، وعمار بن ياسر، وسُمَيَّة أم عمار رضى الله عنهم أجمعين.

فأما النبى ﷺ فمنعه الله، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأما الآخرون فأُخذوا وألبسوا أدراع الحديد، ثم أُصهروا فى الشمس.

● ومن تجرد صهيب رضى الله عنه لله وللحق مواجهته المشركين أعداء الله، وحده غير هيَّاب، ولا حريص على الحياة.

- قال سعيد بن المسيَّب[١]: لما أقبل صهيب مهاجرا نحو النبى ﷺ، تبعه نفر من قريش، نزل عن راحلته وانتثل[٢] ما فى كنانته ثم قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أنى من أرماكم رجلا، وايم الله لا تصلون إلىّ حتى أرمى بكل سهم معى فى كنانتى، ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى منه شىء، فافعلوا ما شئتم.

وإن كنتم تريدون مالى دللتكم عليه، قالوا: فدلنا على مالك ونخلى عنك فتعاهدوا على ذلك فدلهم عليه، ولحق برسول الله ﷺ، فلما قدم عليه المدينة قال له: «ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى، ونزل قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

١٥ - بلال بن رباح رضى الله عنه:

ممن أسلموا قديما، فعذبه قومه من أجل إسلامه فصبر على العذاب أعجب الصبر وأحمده.

وكان أبو جهل يبطحه على وجهه فى الشمس ويضع الرَّحا عليه حتى تصهره الشمس ويقول له: اكفر برب محمد، فيقول: أَحَدٌ أَحَد، فاجتاز به ورقة بن نوفل وهو يعذب ويقول: أَحَد أَحَد، فقال: يا بلال أحد أحد، لئن مت على هذا لأتخذن قبرك حنانا[٣].

---

(١) هو سعيد بن المسيَّب بن حزن المخزومى القرشى (١٣ - ٩٤ هـ) سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر رضى الله عنه، توفى بالمدينة.

(٢) انتثل ما فى كنانته: أى أخرج سهامه من الكنانة وهى وعاء من جلد - غالبًا - توضع فيه السهام.

(٣) أى موضع حنان ومظنة لرحمة الله تعالى.

وهذا نمط من التجرد لله تعالى قلما تساويه منزلة.

- وفي رواية أن قومه جعلوا يقولون له: ربك اللأت والعُزّى، وهو يقول: أحد أحد، فاتى عليه أبو بكر رضى الله عنه فاشتراه بسبع أواقٍ، فأعتقه، فشهد بدرا وأُحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

● وهو أول من أذَّن لرسول الله ﷺ، وكان يؤذن له حضرا وسفرا، وكان خازنه على بيت المال.

- روى الإمام أحمد بسنده عن زر بن حُبَيِّش عن عبد الله رضى الله عنه قال: كان أول من أظهر إسلامه رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد.

فأما رسول الله فمنعه الله بعمه أبى طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فاخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم فى الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا، فإنه هانت عليه نفسه فى الله عز وجل، وهان على قومه، فأعطوه الولدان فأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحَد أحَد».

١٦ - عثمان بن مظعون رضى الله عنه:

أسلم قبل وصول الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين، وكان قد هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة ومعه ابنه السائب مع جماعة من المسلمين، فبلغهم - وهم فى الحبشة - أن قريشا قد أسلمت فعادوا... فلما دنوا من مكة بلغهم الأمر على حقيقته فثقل عليهم أن يرجعوا، وتخوفوا أن يدخلوا مكة بغير جوار فمكثوا حتى دخل كل رجل منهم بجوار بعض أهل مكة، وقدم عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة.

● وأقبل عثمان بن مظعون على الله وعلى دينه مخلصا لله فى كل عمله مؤثرا الحق على الباطل مهما تكن التضحيات.

● ومن تجرده لله وتضحيته العظيمة:

- ما رواه أبو نعيم فى «الحلية» بسنده عن عثمان - رضى الله عنه - قال: لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح فى أمان الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من الأذى والبلاء ما لا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس؛ وَفَتْ ذمتُك، قد رددتُ إليك جوارك. قال: لِمَ يا ابن أخى؟

لعله آذاك أحد من قومى!!! قال: لا ولكنى أرضى بجوار الله عز وجل ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية.

فانطلقنا ثم خرجنا حتى أتينا المسجد فقال لهم الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد على جوارى. قال عثمان: صدق، وقد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكنى أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره.

ثم انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة فى مجلس من مجالس قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت، فقال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

فقال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تجدن فى نفسك من قوله.

فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ، فقال: أما والله يا ابن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت فى ذمة منيعة، فقال عثمان: بلى والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله، وإنى فى جوار من هو أعز منك وأقدر».

هذه صور من تجرد عثمان بن مظعون –رضى الله عنه–، ضحى فيها بماله ونفسه فى سبيل الله الذى تجرد له ولدينه.

١٧- أبو طلحة بن الأسود رضى الله عنه:

هو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام أنصارى خزرجى، شهد بيعة العقبة وكان نقيباً، وشهد بدراً.

وزوجته: أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك، تزوجها على أكرم مهر، حيث طلبت أن يكون مهرها إسلامه فأسلم.

شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان من الرماة المذكورين.

● وهو مثل يحتذى في التجرد من المال لوجه الله تعالى:

– روى ابن الجوزي في كتابه: «صفة الصفوة» بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه: «بيرحاء» وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب.

قال أنس: فلما نزلت: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٢] قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ «اللهم إن أحب أموالي إلى «بيرحاء» وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: بخ بخ، وذاك مال رابح، ذاك مال رابح وقد سمعت. وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه».

وأخرجه البخاري ومسلم في كتاب الزكاة.

● ومن تجرده لله ولرسوله تضحيته بنفسه من أجل دينه ونبيه ﷺ، أنه كان يرمي بين يدي الرسول ﷺ يوم أحد، ورسول الله خلفه، فكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه لينظر أين يقع سهمه؟

فكان أبو طلحة يرفع صدره ويقول: هكذا يا رسول الله، لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك.

– وفي أبي طلحة قال الرسول ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن أنس رضي الله عنه:

«صوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة» وفي رواية أخرى: «لصوت أبي طلحة أشد على المشركين من فئة».

● ومن تجرده لله وفي سبيله فقد كان يخوض المعارك بشجاعة تجعله لا يبالي العواقب، ولا يخاف الموت في سبيل الله.

– فقد كانت له أفاعيل في غزوة أحد تدل على شجاعة عظيمة وإقبال على الشهادة في سبيل الله.

– وكانت له في «حنين» مواقف مشهودة، فقد أحرز أسلاب عشرين قتيلا من المشركين

قتلهم بيده وكانت له على قتلهم بينة، مصداقًا لما رواه البخارى بسنده فى غزوة حنين فى قصة أبى قتادة، روى أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه».

فكان لأبى طلحة رضى الله عنه أسلاب عشرين قتيلا من المشركين!!!

١٨- عبد الله بن رواحة رضى الله عنه:

كان أحد النقباء فى بيعة العقبة - وكانوا اثنى عشر نقيبا - وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ولم يشهد فتح مكة فإنه كان قد استشهد وهو قائد معركة مؤتة.

وهو أنصارى خزرجى شاعر مجيد.

● ومن تجرده لله ورسوله إسراعه فى الطاعة والالتزام.

- روى ابن الأثير فى كتابه: «أسد الغابة» بسنده عن عبد الرحمن بن أبى ليلى[١] أن عبد الله بن رواحة أتى النبى ﷺ وهو يخطب فسمعه يقول: اجلسوا، فجلس مكانه خارجًا من المسجد، حتى فرغ النبى ﷺ من خطبته، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال له: «زادك الله حرصًا على طواعية الله وطواعية رسوله».

● ومن تجرده لله تعالى ولدينه أنه كان دائمًا أول من يخرج إلى الغزو، وآخر من يقفل منه.

● ومن تجرده لله ولرسوله ولدينه ولإيمانه أنه كان دائم الذكر لله تعالى.

- فقد روى ابن الأثير بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: أعوذ بالله أن يأتى علىَّ يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة، كان إذا لقينى مقبلاً ضرب بين ثديىّ، وإذا لقينى مدبرا ضرب بين كتفىّ، ثم يقول: يا عويمر اجلس فلنؤمن ساعة، فنجلس فنذكر الله ما شاء، ثم يقول: يا عويمر هذه مجالس الإيمان.

● ومن تجرده لله وللحق الذى آمن به أنه كان يحرص على الشهادة فى سبيل الله، لما يعلمه من منزلة الشهيد عند الله.

- ذكر أصحاب السير عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما قال: لما تجهز الناس وتهيئوا للخروج إلى مؤتة قال المسلمون لهم: صحبكم الله ورفع عنكم[٢]، فقال عبد الله بن رواحة - وهذا من شعره:

---

(١) عبد الرحمن بن أبى ليلى من مشاهير التابعين بالكوفة، وكان أحد الفقهاء المعروفين.

(٢) وكان المسلمون فى مؤتة يواجهون الروم، وكان للروم جيش كثيف، لا يقاربه جيش المسلمين فى العَدَد ولا فى العُدَد.

لكننى أسأل الرحمن مغفرة　　وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدى حران مجهزة　　بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثى　　أرشدك ربك من غاز وقد رشدا

قال عروة: ثم مضوا حتى نزلوا أرض الشام، فبلغهم أن هرقل قد نزل أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضمت إليه المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلىّ فى مائة ألف فأقاموا ليلتين ينظرون فى أمرهم – أى المسلمون – وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، قال عروة: فشجع عبد الله بن رواحة الناس على مواجهة الروم قائلا لهم: يا قوم إن الذى تكرهون للذى خرجتم له تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدة ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا لهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة.

فقال الناس: صدق والله ابن رواحة فمضى الناس.

● ومن تجرده لله ولرسوله ولدين الحق الذى يؤمن به تجرده من كل ما يربطه بمتع الحياة الدنيا.

– فقد رُوى عن ابن أخته النعمان بن بشير الأنصارى –رضى الله عنه–: أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه حين قتل دعا الناسُ –أى قائلين– يا عبد الله بن رواحة، يا عبد الله بن رواحة، وهو فى جانب العسكر ومعه ضلع جمل ينهسه ولم يكن ذاق طعامًا قبل ذلك بثلاث، فرمى الضلع ثم قال: وأنت من الدنيا، ثم تقدم فقاتل فأصيبت أصبعه فارتجز – من شعره – فجعل يقول:

هل أنت إلا إصبع دَميت　　وفى سبيل الله ما لقيتِ

يا نفس إلا تقتلى تموتى　　هذى حياض الموت قد صليتِ

وما تمنيت فقد لقيت　　إن تفعلى فعلهما[1] هديتِ

وإن تأخرتِ فقد شقيت

ثم قال: يا نفس، إلى أى شىء تتوقين؟ إلى فلانة؟ – يقصد زوجته – هى طالق ثلاثا،

(١) أى فعل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وقد استشهدا فى المعركة، وكانت قيادة الجيش لزيد فإن قتل فلجعفر فإن قتل فلعبد الله بن رواحة رضى الله عنهم أجمعين.

وإلى فلان وإلى فلان غلمان له- وإلى « معجف » بستان له، فهو لله سبحانه ثم أنشد من شعره:

يا نفس مالك تكرهين الجنه	أقسم بالله لتنزلنه
طائعة أولا لتكرهنه	فطالما قد كنت مطمئنه
هل أنت إلا نطفة فى شَنَّه	قد أجلب الناس وشدوا الرنَّه

١٩- عمير بن الحمام الأنصارى رضى الله عنه:

شهد بدراً واستشهد بها، وكان أول شهيد من الأنصار فى الإسلام فى حرب.

وكان رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين عبيدة بن الحارث المطلبى، فاستشهدا فى بدر جميعًا.

● وفى تجرده لله تعالى وللحق الذى آمن به ودافع عنه حتى نال الشهادة فى سبيل الله:

- قال ابن اسحاق: قال رسول الله ﷺ: « لا يقاتل أحد فى هذا اليوم فيقتل صابراً محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا دخل الجنة ».

وكان عمير بن الحمام واقفًا فى الصف بيده تمرات يأكلهن، فسمع ذلك - أى قول الرسول ﷺ -فقال: بخ بخ، ما بينى وبين أن أدخل ألا أن يقتلنى هؤلاء، وألقى التمرات، وأخذ السيف فقاتل القوم وهو يقول:

ثم حمل - أى على الاعداء - فلم يزل يقاتل حتى قتل.

ركضا إلى الله بغير زاد	إلا التقى وعمل المعاد
والصبر من الله على الجهاد	إن التُّقى من أعظم السَّداد
وخير ما قاد إلى الرشاد	وكل حىّ فإلى نفاد

- وفى رواية لأنس بن مالك رضى الله عنه قال انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين فى بدر، فدنا المشركون، فقال النبى ﷺ -لأصحابه-: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة - وفى يده تمرات يأكلهن -

يا رسول الله، عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ، قال رسول الله ﷺ: ما حملك على قولك: بخ بخ، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، قال: فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل رضي الله عنه.

٢٠- أبو ذر الغفاري رضي الله عنه:

أسلم قديمًا، فقد قالوا: إنه أسلم بعد أربعة وكان خامسا.

وقد جاء إلى مكة ليلقى رسول الله ﷺ - بعد أن كان أرسل أخاه ليعلم له نبأ رسول الله ﷺ، فلم يشفه أخوه، فجاء بنفسه وأتى المسجد ولم يكن يعرف الرسول ﷺ، فلما ذهب إليه وسمع من كلامه أسلم مكانه - أي لم يتردد ولم يترك المجلس إلا وقد أسلم رضي الله عنه.

- ومن تجرده لله تعالى ولدينه؛ أنه لما أسلم على يد النبي ﷺ، قال له: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري، قال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم.

فرجع حتى أتى المسجد - بمكة - فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس بن عبد المطلب فأكب عليه، وقال - لقومه من كفار قريش-: ويلكم، ألستم تعلمون أنه من غفار، وأنه طريق تجارتكم إلى الشام؟ فأنقذه منهم.

ثم عاد أبو ذر من الغد لمثلها فضربوه، وثاروا عليه، فأكب عليه العباس مرة ثانية.

- ويقول أبو ذر رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال له بعد ما أسلم: إني وجهت إلى أرض ذات نخل فلا أحسبها إلا يثرب، فهل أنت مبلغ عني قومك لعل الله عز وجل ينفعهم بك ويأجرك فيهم؟ قال: فانطلقت حتى أتيت أخي أنيسا، فقال لي: ما صنعت؟ قلت: صنعت أني قد أسلمت وصدقت، قال: فما بي رغبة عن دينك، فإني أسلمت وصدقت، ثم أتينا أمنا فقالت: ما بي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمت وصدقت، فتحملنا حتى أتينا قومنا غفاراً فأسلم بعضهم قبل أن يقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يؤمهم - أي في الصلاة - خفاف بن رخصة الغفاري وكان سيدهم يومئذ.

وقال بقيتهم إذا قدم رسول الله ﷺ أسلمنا، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم بقيتهم، فقال رسول الله ﷺ : « غفار غفر الله لها، وأسلم(1) سالمها الله ».

وبعد :

فهذه الجولة التى تجولنا من خلالها فى تاريخ بعض الصحابة رضوان الله عليهم -العشرة المبشرين بالجنة، وعشرة أخرى اخترنا أن نعطفهم على المبشرين بالجنة، هذه الجولة التى أنعشت منا القلوب وأمتعت العقول، من شأنها أن تطمئن المسلمين اليوم - وهم يلاقون من عنت الصهيونية وغطرسة النظام العالمى الجديد، وحقد الصليبيين الجدد ما لاقاه أسلافنا من اليهود والمشركين، تطمئنهم على أن العاقبة للمتقين والنصر عدة من الله تعالى للمؤمنين، ولن يخلف الله وعده، فلينصرن الله دينه ولو كره الصهيونيون والصليبيون والنظام العالمى الجديد بقيادة الولايات المتحدة الامريكية أخبث دول الأرض اليوم وأشدها حقداً على الإسلام والمسلمين. ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

---

(١) هى قبيلة أخرى غير غفار، تجاورها فى المكان .

ثالثاً : التجرد عند المسلمين المصلحين المجددين

● إن التجرد لله تعالى ولدينه الخاتم ولدعوته العالمية للناس كافة، وللجهاد في سبيله لكي تصل دعوة الله إلى عباد الله، إن التجرد لهذا، هو الذي كفل للإسلام أن ينتشر بين الناس، وأن يبلغ في انتشاره ومعرفة الناس به ما يقرب من نصف الأرض المعمورة آنئذ في أقل من نصف قرن من الزمان.

– وفي البداية حمل العرب عبء هذا الانتشار وتحركوا به في الدنيا التي استطاعوا أن يصلوا إليها، واعتبروا ذلك – وهو كذلك بالفعل – واجبا لا يتركه إلا المقصرون ولا يهمل في أدائه إلا الآثمون، فأخذوا على عاتقهم نقل الناس من الكفر إلى الإيمان ومن الضلالة إلى الهدى بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فإذا قامت عقبات تحول بين الناس وبين معرفة دين الحق لجأوا إلى الجهاد في سبيل الله يزيلون به هذه العقبات من منطلق أصول الدين وقواعده الثابتة مثل: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» وتبليغ دين الله لعباد الله واجب ولا يتم ذلك الواجب إلا بإزالة العقبات من طريقه، فإزالة العقبات بالجهاد في سبيل الله واجب.

– وما هو إلا زمن يسير أخذ المسلمون فيه أنفسهم بأداء هذه الواجبات، حتى استطاعوا:

● نصب أعلام الإسلام على نهر «الكنج» شرقا.

● وعلى شواطئ المحيط الأطلسي غرباً.

● وضفاف نهر «لوار» شمالا.

● وأوسط إفريقيا جنوبا.

بالإضافة إلى نشره في مملكتي: «فارس والروم».

● ولم يكن هذا الانتشار السريع لكثرة عدد المسلمين، إذ تؤكد الدراسات العلمية عندنا وعند الأعداء أن جنود المسلمين لم يزيدوا في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه على مائتي ألف جندي.

● كما لم يكن انتشار الإسلام بسبب قوة المسلمين وتسلحهم، فقد كانت معظم الدول

التى نشروا فيها الإسلام أقوى منهم وأكثر تسلحا، وحسبك بما كانت عليه فارس والروم من امتلاكهم لأقوى آلة عسكرية آنذاك.

- وبكل تأكيد لم يكن انتشار الإسلام فى الناس بسبب إكراه الناس على الدخول فيه - لأن تلك فرية لجأ إليها الأعداء الذين عجزوا عن معرفة سر انتشار الإسلام، أو لجأ إليها بعض الحاقدين على الإسلام، وذلك أن الإسلام حرم إكراه الناس على الدخول فى الدين فى قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- لم تكن هذه الأسباب مجتمعة أو متفرقة هى سبب انتشار الإسلام، وإنما كان تجرد المسلمين لله ولدينه ودعوته هو السبب الذى تضافرت معه أسباب أخرى أقل أهمية منه.

- إن هذا التجرد للدين هو الذى جعل للمسلمين فقها جديداً فى الدنيا، فقهها يقوم على قاعدة أن العمل الإنسانى كله يجب أن يكون لله ومن أجل الآخرة ثم يأتى بعده العمل للدنيا، فى حين كانت البشرية - ولا زالت - تعمل للدنيا دون الآخرة أو للدنيا ثم الآخرة.

- ويوضح هذا الفقه الجديد ويرسم أبعاده ومعالمه ذلك الحوار الذى دار بين «رستم» قائد الفرس فى معركة القادسية، والمغيرة بن شعبة رضى الله عنه قائد المسلمين في هذه المعركة.

قال رستم للمغيرة رضى الله عنه: «إنكم تموتون فيما تطلبون». فقال المغيرة: يدخل من قتل منا الجنة، ومن قتل منكم النار ويظهر من بقى منا على من بقى منكم».

وهذا الفقه هو التجرد في أجلى صوره، إذ العبرة بالآخرة لا بالدنيا وحدها، والثقة في نصر الله تعالى والدعاء المأثور عن المسلمين المخلصين هو: اللهم ارزقنا الشهادة في سبيلك.

وهذا التجرد هو الذى يجعل الثقة في أن النَّصر من الله لا من العدد والعدة وحدهما.

- وذلك الحوار الذى دار بين عبادة بن الصامت رضى الله عنه وبين المقوقس صاحب مصر من قبل الروم.

- قال المقوقس لعبادة رضى الله عنه: إن للروم سطوة وجموعا - يخوفه ويهدده.

- فقال له عبادة رضى الله عنه:

يا هذا لا تغرنك نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه وإن كان ما قلتم حقا فهذا والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد، لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند الله إذا قدمنا عليه أن قتلنا عن آخرنا، كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته وما شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك، وأننا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة بالاستشهاد فى المعركة - بعد الاجتهاد منا، وأن الله تعالى قال لنا فى كتابه: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وما منا رجل إلا ويدعو ربه صباحًا ومساء أن يرزقه الشهادة وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا.

وأما قولك إننا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن فى أوسع السعة، ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه».

فأى تجرد لله ولدينه ودعوته أعمق من هذا؟

وأى ثقة فى أن النصر من عند الله أكبر من هذه الثقة؟

وأى تَخَلٍّ عن شواغل الدنيا أكبر من هذا التخلى؟

وأى إخلاص لله وللدين وللدعوة أعظم من هذا الإخلاص؟

وسوف نناقش فى هذه النقطة الثالثة من هذا الفصل الأول من الكتاب موضوعين:

الأول: التجرد وأثره فى نشر الإسلام.

والآخر: التجرد وأثره فى إقبال الناس على الإسلام.

الموضوع الأول: التجرد وأثره فى نشر الإسلام:

انتشر الإسلام فى الناس والآفاق بأوسع بل بأسرع مما انتشر أى دين آخر -كما أشرنا إلى ذلك آنفا-.

- وإذا كانت الأديان التى تحمل رسالة إلى الناس وتوجههم إلى الدخول فيه ثلاثة أديان - كما أكد ذلك الباحثون فى الأديان - وهى:

- البوذية.

- والمسيحية.

- والإسلام[1].

---

(١) انظر لنا فى ذلك كتاب: عالمية الدعوة الإسلامية - نشر دارس عكاظ بالسعودية والوفاء بمصر.

فإن الإسلام كان أوسعها انتشاراً، وإن دعاته كانوا أكثر تجردا من سائر الدعاة.

- وإذا كان معنى الرسالة فى هذه الأديان هو التوجه بالدين إلى الناس ودعوتهم إليه ليلتزموا منهجه ويكونوا من أتباعه - على اعتبار أن نقل الناس من الكفر إلى الإيمان واجب أوجبه الدين على دعاته، وهو واجب يحتاج إلى تضحية بالوقت والجهد والمال والنفس، فإن الإسلام كان أوفر حظا فى هذا المجال من كل دين، وكان دعاته أكثر تجرداً من كل دعاة إلى دين، بذلك شهد غير المسلمين قبل المسلمين وبذلك قامت الأدلة والشواهد فى تاريخ نشر الدعوة الإسلامية بين الناس.

- إذا كانت تلك أديان الدعوة وكان الإسلام بينها على هذا النحو الذى أوضحنا، فإن الأديان الأخرى التى لا تحمل رسالة دعوة للناس ليدخلوا فيها - أى أنها ديانات مغلقة على أهلها متوارثة فيما بينهم - هذه الأديان المغلقة ثلاثة أيضاً وهى:

- اليهودية.

- والبرهمية.

- والزارادشتية.

- فالإسلام -كما بينا- دين رسالة ودعوة دين مفتوح على كل البشر، ودعوته يجب أن تصل إلى الناس كل الناس على كافة أبعاد المكان والزمان، إذ هو دين عالمى ودعوته دعوة عالمية، ودعاته عالميون كذلك، تجردوا لدعوتهم تجردا غير مسبوق ولا ملحوق وخصوصاً إذا وضع الباحث فى اعتباره أن هؤلاء الدعاة من المسلمين لم تكن تشرف عليهم هيئة ولا مؤسسة ولا كنيسة ولا دولة!!!

- وبمقارنة الإسلام بغيره من أديان الدعوة - البوذية والمسيحية - نجد للإسلام تميزاً عليهما فى أمور قررها الباحثون فى المقارنة بين الأديان مسلمين وغير مسلمين ومن أهم هذه الميزات ما يلى:

- أنه الدين الخاتم التام الكامل الذى قال الله تعالى عنه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً...**﴾ [المائدة: ٣].

- وأنه الدين الناسخ لما سبقه من الأديان، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ..**﴾ [المائدة: ٤٨].

- وأنه الدين الذى يجب أن يتبعه أهل كل دين سابق عليه فى الزمان لأن رسوله أرسل للناس جميعًا، وأن الناس جميعًا مطالبون بالدخول فى الإسلام وترك ما كانوا عليه من دين، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]

- وأهم ما يميز هذه الدعوة والرسالة فى الإسلام أنها واجب كل من دخل الإسلام ما دام على بصيرة به أو بشىء مما فيه، فإنه حينئذ يجب أن يحمله إلى غيره من الناس ويدعوهم إليه، على سبيل الوجوب لا الندب، كما يفهم ذلك من قوله تعالى على لسان محمد خاتم رسله عليه الصلاة والسلام: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي.. ﴾ [يوسف: ١٠٨] فواجب كل مسلم علم عن الإسلام قليلاً أو كثيراً أن يبلغ به الناس وأن يدعوهم إلى التمسك بقيمه وأحكامه وآدابه، بشرط واحد هو أن يكون على بصيرة بما يدعو الناس إليه.

● أما سائر الأديان فتقتصر الدعوة فيها على من يسمونهم رجال الدين الذين ربوا فى الكنيسة، ويعملون فى ظلها وبمالها وبخططها ونظامها، ومن وراء الكنيسة دولة أو دول تدعم هذا العمل.

● وهذا الاتساع فى مفهوم الداعى إلى الإسلام فى مقابل تضييق هذا المفهوم وحصره فى القساوسة ورجال الدين هو الذى جعل الإسلام ينتشر بهذه السرعة وهذا الاتساع، إذ كل المسلمين دعاة، وليس علماء الدين منهم وحدهم.

● ونحن لا ننكر الجهود التى قام بها بعض القساوسة الحركيين[١] فى آسيا وفى إفريقية بل فى أوربا نفسها، لكن أين عدد هؤلاء القساوسة من عدد المسلمين جميعًا؟ وكم قدر ما

---

(١) من هؤلاء:
القديس: ليورجر والقديس: ويلهاد، وكانت جهودهما بين السكسونيين الوثنيين.
والقديس: انشجار وخلفاؤه من بعده، وكانت جهودهم فى بلاد الدنمرك.
والقسيس: جو تفرد، والأسقف كريستان فى بروسيا ورهبان ما ينهارد ويتودريك والقديس فرانسيس كسافير. على أن ذلك لم يمنع سوى هؤلاء من القساوسة والحكام من العمل على إجبار الناس على الدخول فى النصرانية ترغيبا وترهيبا كما هو مشاهد حتى اليوم.

تملكه الكنيسة من مال إذا قورن بما يملكه المسلمون جميعًا؟ وأين ذلك كله من التجرد النابع من قلوب دعاة الإسلام الذين لا يأخذون على ذلك أجرًا من هيئة أو دولة وإنما يقومون بذلك احتسابًا عند الله؟.

● وكأنما ضاق القس صمويل زويمر الذى انتخب رئيسًا للمؤتمر التبشيرى الذى عقد فى القاهرة فى بيت أحمد عرابى – تأمل هذا الاختيار وما يرمز إليه إذ كان الإنجليز يسيطرون على مصر آنذاك –١٩٠٦م – كأنه ضاق بما يطلبه المبشرون من الكنيسة عندما قال فى هذا المؤتمر: «التبشير متوقف على وجود زمرة من المبشرين المتطوعين الذين يقفون حياتهم على ذلك».

● ويعترف زويمر بفشل المبشرين بالنصرانية فى اجتذاب المسلمين وتنصيرهم بسبب اعتزاز المسلمين بدينهم واستغنائهم عما فى أوروبا والغرب من المغريات المادية، ويرى الحل هو فى اقتراب المسلمين من مادية الغرب وصحفه ووسائل اللهو فيه.

يقول زويمر – وكان يمارس تنصير المسلمين فى البحرين – فى رسالة بعثها إلى ميسيوشاتليه[1] قال فيها: «ولا شك أن إرساليات التبشير من: بروتستانية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشر اللغات الإنجليزية والفرنسية والهولندية والألمانية يتحكك الإسلام بصحف أوربا، وتتمهد السبل لتقدم إسلامى مادى، وتقضى إرساليات التبشير لبانتها[2] من هدم الفكرة الدينية الإسلامية، التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها»[3].

● إن الدعاة إلى الله –وهم جميع المسلمين– ما نشروا الإسلام فى ربوع العالم إلا بتجردهم لهذا الدين وتلك الدعوة، إذ آثروا الدعوة على كثير من الأعمال، وآثروا ألا يستكثروا من أعراض الدنيا التى تشغل القلب والعقل، وتقعد عن ابتغاء وجه الله تعالى.

يكفى أن يصل أحد المسلمين إلى مكان مًّا تاجرًا أو عاملاً أو طالب علم، ليمارس الدعوة إلى الله ويبلغ دينه للناس لا ينتظر مكافأة من أحد ولا دعما ولا تسهيلات من دولة!!! إنه

---

(١) هو: ا.ل شاتليه مؤلف كتاب: الغارة على العالم الإسلامى ترجمة: محب الخطيب ومساعد اليافى. وطبع فى جدة: ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

(٢) اللبانة: ما يطلبه المرء من رغبة وشهوة.

(٣) انظر كتاب: الغارة على العالم الإسلامى.. مرجع سابق.

ينتظر أجر الله ومثوبته أن استجاب لأمره فدعا إلى الله على بصيرة.

● وهناك عوامل ساعدت الدعاة المسلمين على التجرد وجعلتهم لا يفارقونه، وهذه العوامل ثلاثة هم أهمها فى تصورى – وهى:

– اتخاذهم الرسول ﷺ قدوة.

– ومطالبتهم بالصبر والتحمل فى سبيل الدعوة.

– وعرضهم للدين على الناس دون إكراه أو قسر.

وهذه العوامل رسمت لهم أبعاد التجرد لله ولدعوته، وعلمتهم أخلاق التجرد وآدابه، وأوجبت عليهم احترام الناس وتقدير عقولهم وأفهامهم، فأوجبت عليهم الصبر عليهم وتحمل ما يأتونه من سفاهات وحماقات.

– أما اتخاذهم الرسول ﷺ قدوة:

● فإن الله تعالى أوجب على المسلمين أن يتخذوا من رسول الله ﷺ قدوة، وذلك يفهم من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

واتخاذ الرسول ﷺ قدوة يعلم التجرد الحق فى رجل الدعوة، فقد كان ﷺ مثلاً كاملاً فى هذا التجرد لله ولدعوته.

● والرسول ﷺ علم المسلمين كيف يتجردون لله ولدينه ودعوته بسيرته وأخلاقه، وبدعوتهم إلى أن يكونوا مثله فى الدعوة إلى الله، كما تدل على ذلك الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

– وأما مطالبة الدعاة بالصبر والتحمل:

● فإن الرسول ﷺ كان مثلاً فى الصبر على المدعوين، وفى تحمل أذاهم، وقد أيدت آيات القرآن الكريم ذلك فى أكثر من آية كريمة:

● قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

● وقال جل شانه: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ [الشورى: ٤٨].

● وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

– وأما عرضهم الدين على الناس دون إكراه:

● فإن الله تعالى حرم الإكراه فى الدين فى قوله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ... ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

● وقوله جل شانه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤]

● وقوله عز وجل: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ... ﴾ [التوبة: ٦].

ويقول المفسرون: إن سورة التوبة هى آخر سورة نزلت من القرآن الكريم، ومع ذلك فمنهج الدعوة إلى الله لم يتغير عما كان عليه فى البواكير الأولى فى مكة المكرمة، وإنما كان الاستمرار فى عرض الدين على الناس بأيسر طريق وأبعد أسلوب عن العنف والإكراه.

وليس أبلغ فى ذلك المنهج من ان يجار المشرك إن استجار حتى يسمع كلام الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم على المسلمين ان يبلغوا هذا المستجير مأمنه أى المكان الذى يكون فيه آمنًا على كل شيء له عقيدته وفكره وبدنه وماله وأهله وكل ما يملك.

وبعد:

فبهذه الدعوة إلى الله وبهذا التجرد لله ولدعوته وبهذا الإخلاص فى القيام بواجبات الدعوة انتشر الإسلام فى الشام وفلسطين والعراق وبلاد فارس ومصر وشمالى إفريقية والأندلس ثم آسيا الوسطى وإفريقية، ثم أوروبا – على عهد الخلافة العثمانية – ثم فى الهند والصين والملايو.

وأعود فأؤكد ان هذا الانتشار السريع فى كل تلك الرقعة الواسعة ما كان يحركه ويعمق حركته شيء كالتجرد لله وللدعوة والإخلاص فى الاداء.

الموضوع الثاني: التجرد وأثره في إقبال الناس على الإسلام:

لا شك أن تجرد الدعاة إلى الله لدين الإسلام يحركهم وازع ذاتي نابع من قلوبهم وإيمانهم، وليس بضغط هيئة أو دولة أو مؤسسة ترغب وترهب.

ولا شك في أن المدعوين إلى هذا الدين قد شعروا بهذا التجرد بل لفت نظرهم، ودعا كثيراً ممن عرض عليهم الإسلام إلى قبوله، بل إلى الإسراع في قبوله.

- وربما ساعد الناس على قبول الإسلام والإسراع في الانضمام إليه سماحة مبادئ الإسلام وسماحة أخلاقه في التعامل، بل سماحة الدعاة إليه وصبرهم وتحملهم.
- ونستطيع أن نستشهد على ذلك بأقوال غير المسلمين ممن راقبوا وتابعوا وكانوا صادقين مع أنفسهم – على الرغم من حقدهم على الإسلام، ومن هؤلاء:

– الأمير الإيطالي: «كايتاني» الذي يرى أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور بالاستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت المسيحي.

أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة ذاتها، فلما أهلّت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب.

لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب».

إنه يعلل لإقبال المسيحيين على الإسلام، وإن امتلأت كلمته بالأغاليط والمغالطات!!!

– ومنهم: «تايلو» الذي قال في تعليل انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه.

«إنه من اليسير أن ندرك لم انتشرت تلك الديانة المهذبة بهذه السرعة في إفريقيا وآسيا، كان أئمة «اللاهوت» في إفريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية

عويصة، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح العزوبية فى السماء، وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة، فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، وكانت القذارة صفة لطهارة الرهبنة.

وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم.

فأزال الإسلام بعون من الله هذه المجموعة من الفساد والخرافات، لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى.

ولقد بين الإسلام أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأوامره، والإيمان به وتفويض الأمر إليه، وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويومًا للحساب، وأعد للأشرار عقابًا أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والحج، وفعل الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والرجل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة، وسفسطة المتنازعين فى الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء والإنسانية رخاء ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية».

هذه شهادة من غير المسلمين تعلل لماذا أقبل الناس بل المسيحيون على الإسلام، وفى تحليل هاتين الشهادتين نجد أن صفة الإخلاص والتجرد فى الدعاة المضافة إلى تجرد الإسلام نفسه عن الترهات والأباطيل هى الذى جعلت الناس يقبلون على الإسلام هذا الإقبال.

وفيما يلى من هذه الصفحات نورد نماذج للدعاة المتجردين فى دعوتهم عن الهوى المخلصين لله فى كل ما قالوا وما عملوا، ذلك بعد ما قدمنا من نماذج من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم.

أ- نماذج من المصلحين المجددين:

١- عمر بن عبد العزيز - خامس الخلفاء الراشدين- (٦١-١٠١ هـ) رحمه الله.

إنه رجل دولة صالح مصلح لم يظفر الحكم الأموى بمثله بإجماع كل من عرف سيرته.

وهو فى الوقت نفسه رجل دعوة متجرد لله تعالى فى خدمة الدعوة والدولة.

ونركز هنا على أنه رجل دعوة، لأن ذلك أدخل فى موضوع كتابنا هو «التجرد» إذ قد تجرد عمر بن عبد العزيز لهذه الدعوة من كل الأغراض حتى تلك الأغراض التى تخدم الدولة وتمدها بأموال الجزية مثلاً – والجزية تجمع من الذميين الذين يعيشون فى كنف الدولة – فقد سجلت لنا كتب التاريخ أن بعض عماله شكوا إليه من قلة موارد الدولة فى مجال الجزية بسبب أن أهل الذمة يقبلون على الإسلام فتسقط عنهم الجزية فيخسر بيت المال أموالاً كثيرة!!!

فرد عليهم عمر بن عبد العزيز – وهو يزيل أسباب شكواهم – رداً يؤكد أنه رجل دعوة، بل ذو قدم راسخة فى فقه الدعوة إلى الله وفى فقه الإسلام كله، وقد جاء ذلك الرد فى كتاب «الخراج» لأبى يوسف صاحب أبى حنيفة رحمهما الله قائلاً: «إن الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً» وبهذه الكلمة الوجيزة رسم عمر بن عبد العزيز بعداً من أبعاد سياسة دولته، ووضع قاعدة من صميم قواعد الإسلام فى موضع التنفيذ وهى: «عندما تتعارض مصلحة مالية مع مصلحة شرعية يؤخذ بما يحقق المصلحة الشرعية».

- وقد تجلى ترجيح المصلحة الشرعية على المصلحة المالية فى كتابه إلى عامله على اليمن عروة بن محمد قائلاً له:

«أما بعد، فقد كتبت إلىَّ تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة مضروبة من الخراج ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال إن أخصبوا أو أجدبوا، وحيوا أو ماتوا فسبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين!!!

إذا أتاك كتابى هذا، فدع ما تنكر من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغًا بى وبك ما بلغ، وإن أحاط بمهج أنفسنا، وإن لم ترفع إلى من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[1]، فقد علم الله أنى بها مسرور إذا كانت موافقة للحق، والسلام».

- ومن أعماله الإدارية التى تدخل فى أعمال الدعوة، وقد أسهمت كثيراً فى حب غير المسلمين للإسلام وإقبالهم عليه، كما أدت إلى تعلق المسلمين بالإسلام دينا ومنهجًا يرفع عنهم أقل أنواع الظلم فضلاً عن غيرها من الظلم، ومن أعماله تلك ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

– أنه رفع «المكس» وهو من موارد الدولة، وقال: أما المكس فإنه البخس الذى نهى الله عنه فقال: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥]. غير أنهم كنوه باسم آخر،

(١) الكتم: نبات تستعمل حباته فى الصباغة إذ هى ذات لون قاتم.

- وأنه حط العشور والضرائب التى فرضتها الحكومة،

- وأنه منع ضرائب الطرق البرية والبحرية التى كان يدفعها التجار، قائلاً: إن البر والبحر لله جميعًا سخرها لعباده يبتغون فيها من فضله، فكيف نحول بين عباد الله وبين معايشهم؟.

- وأنه حرم على عماله ورجال الحكومة أن يشتغلوا بالتجارة.

- وحرم ما كان يفعله كبار رجال الدولة من استيلائهم على بعض الأرضين، وجعلها حمىً لهم قائلاً: إن الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء،

- ومنع قبول عماله للهدايا واعتبرها من الرشاوى،

- وشجع الناس على قول الحق والإشارة به على الخليفة فى كل ما فيه مصلحة للمسلمين أو رد مظلمة عنهم، بل رصد لذلك مكافآت وجوائز.

● ومن صميم عمله فى الدعوة أنه كتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة، ووعدهم بأن يملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا وسموا بأسماء المسلمين.

وليس فى حياة عمر بن عبد العزيز بعد أن تولى الخلافة إلا الإخلاص لله والتجرد لدينه ودعوته مهما كانت التضحيات.

٢- الحسن بن يسار البصرى (٥١-١٤٠ هـ) - رحمه الله -..

كان رحمه الله واسع العلم غزير المادة فيه، قال عنه ثابت بن قرة[١]: «.. يجمع فى مجلسه ضروبًا من الناس، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقف عنه التأويل، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يحكى له الفتيا، وهذا يتعلم منه الحكم والقضاء، وهذا يسمع الوعظ، وهو فى جميع ذلك كالبحر اللجاج تدفقًا..».

---

(١) هو ثابت بن قرة بن زهرون الحرانى (٢٢١-٢٨٨ هـ) ولد ونشأ فى حران - بين دجلة والفرات: حدث خلاف بينه وبين أهل مذهب الصابئة فحرموا عليه دخول الهيكل، فخرج من حران قاصداً بغداد واتصل بالخليفة العباسى المعتضد فكانت له عنده منزلة رفيعة. طبيب مهندس حاسب فيلسوف له أكثر من ١٥٠ مؤلفا أغلبها فى الطب والهندسة والفلك والموسيقى وكتابه: الذخيرة فى علم الطب مطبوع وأغلب كتبه لا يزال مخطوطًا.

وقال عنه الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه: «إحياء علوم الدين» ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم، اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك.

وكان الحسن رحمه الله داعية إلى الله عزيز الطراز له مواعظ قوية بليغة سهلة يحث فيها على الإيمان والعمل الصالح ويحذر من الغرور وطول الأمل.

وقال الحسن يصف الدعاة الأولين من الصحابة رضوان الله عليهم: «إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدقوا بها وأفضى يقينها إلى قلوبهم، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم كنت والله إذا رأيتهم رأيت قومًا كأنهم راى العين، والله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل لكنهم جاءهم أمر من الله فصدقوا به..».

- وكان رحمه الله مضرب المثل فى الشجاعة والصدع بكلمة الحق أمام الخلفاء والكبراء وتلك صفة أساسية فى الداعية إلى الله المتجرد لدينه ولدعوة هذا الدين، لا يهاب أحدًا ولا يخشى إلا الله.

- قال الحسن البصرى لابن هبيرة والى العراق: «يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد، ولا تخف يزيد فى الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، وأوشك الله أن يبعث إليك ملكًا فيزيلك من سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك».

- والحسن رحمه الله لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يلقيها، بل كان - إلى جانب ذلك - يعنى بتربية من يتصل به أو يجالسه، فكان جامعًا بين الدعوة والإرشاد، وبين التربية العملية والتزكية الخلقية والروحية.

فاهتدى به خلائق لا يحصيهم إلا الله، ذاقوا على يديه حلاوة الإيمان، وتحلوا بأخلاق الإسلام.

٣- المأمون الخليفة العباسى (١٧٠-٢١٨ هـ) رحمه الله.

على الرغم من كل ما قيل عن المأمون بن هارون الرشيد فى فتنة القول بخلق القرآن الكريم، وتعذيبه للإمام أحمد بن حنبل، فإن ذلك لا يمنع أن يكون له إلى جانب ذلك فضائل عديدة فى نشر الإسلام والدعوة إليه.

- فقد ذكرت كتب التاريخ أن الخليفة المأمون كان شديد التحمس فيما قام به من جهود فى نشر الإسلام.

- فأرسل إلى غير المسلمين يدعوهم إلى الإسلام، حتى من كان منهم يقيم بعيداً فى أقصى البلاد التى يحكمها، كبلاد ما وراء النهر وفرغانة وغيرهما، أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام، دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالجيوش والمقاتلين، ولم يلجأ إلى عرض الدعوة إلى الإسلام على أحد بالقوة التى كان يملك من أسبابها الشىء الكثير.

ولم يثبت فى تاريخه أنه حاول أن يفرض الدعوة إلى الإسلام على أحد ممن يعيشون فى البلاد وهم على غير الإسلام ولا على أحد يعيش فى أطراف البلاد أو على حدودها، بل إنه كان يستعين بغير المسلمين فى بعض الأعمال.

- وله موقف مع « يزدانبخت » زعيم فرقة المانوية حين قدم بغداد وعقد مناظرة مع علماء الكلام والتوحيد من المسلمين، موقف يسجل له بكل فخر وتقدير لحرية رأى الطرف الآخر. وذلك أن زعيم المانوية لما ناظر علماء المسلمين فأفحموه، تدخل المأمون - وكان يحضر هذه المناظرة - محاولاً إقناعه باعتناق الإسلام، ولكن « يزدانبخت » رفض ذلك قائلاً: « نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم، فلم يبد الخليفة شيئًا من الاستياء لفشل محاولته فى دعوته إلى اعتناق الإسلام، بل وكّل به من يحفظه ويحميه خوفًا عليه من غضب العامة، بعد ما أفحم ورفض دعوة المأمون فى اعتناق الإسلام.

٤- الهاشمى ابن عم الخليفة المأمون (١٧٥- ٢٢٠ هـ) رحمه الله.

وكان داعية إلى الله عظيم الحرص على دعوة غير المسلمين إلى اعتناق الإسلام.

وله رسالة أعتبرها درة فى تاريخ الدعوة والدعاة، لذلك أوردتها كاملة على الرغم من طولها، لينظر فيها الدعاة إلى الله ويتدبروا ما جاء فيها من الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد كتبها الهاشمى إلى الكندى - وهو مسيحى كان المأمون يستعين به فى بعض أعماله.. يدعوه إلى الدخول فى الإسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فقد افتتحت كتابى إليك بالسلام عليك والرحمة تشبها بسيدى وسيد الأنبياء محمد رسول الله ﷺ، فإن ثقاتنا ذوى العدالة عندنا، الصادقين الناطقين بالحق، الناقلين إلينا أخبار نبينا عليه السلام، قد رووا لنا عنه أن هذه كانت عادته، وأنه كان ﷺ إذا افتتح كلامه مع الناس يبادئهم بالسلام والرحمة فى مخاطبته

إياهم، ولا يفرق بين الذمى منهم والأمى، ولا بين المؤمن والمشرك، وكان يقول إنى بعثت بحسن الخلق إلى الناس كافة، ولم أبعث بالغلظة والفظاظة، ويستشهد الله على ذلك، إذ يقول: «بالمؤمنين رءوف رحيم»[1]. وكذلك رأيت من حضرته من أئمتنا الخلفاء المهتدين الراشدين رضى الله عنهم أجمعين، أنهم كانوا لفضل أدبهم، وشرف حسبهم، ونبل همتهم وكرم أخلاقهم، يتبعون أثر نبيهم ﷺ، ولا يفرقون فى ذلك ولا يفضلون فيه أحداً، فسلكت ذلك المنهج، واحتذيت تلك السبيل، وأخذت ذلك الأدب المحمود، فابتدأتك فى كتابى هذا بالسلام والرحمة، لئلا ينكر علىّ منكر يقع إليه كتابى هذا.

«والذى حملنى إليك وحثنى على ذلك؛ إذ كان سيدى ونبيى محمد ﷺ يقول محبة القريب ديانة وإيمان. على أنى كتبت طاعة لرسول الله ﷺ، ولما أوجبه لك عندنا حق خدمتك لنا، ونصحك إيانا، وما أنت عليه من محبتنا، وتظهره من مودتنا، والميل إلينا، وما أرى أيضًا من إكرام سيدى وابن عمى أمير المؤمنين – أيده الله – لك، وتقريبه إياك، وثقته بك، وحسن قوله فيك. فرأيت أن أرضى لك ما قد رضيته لنفسى وأهلى وولدى مخلصًا لك النصيحة ومبذلها[2]، كاشفًا عما نحن عليه من ديانتنا هذه التى ارتضاها الله لنا ولجميع خلقه، ووعدنا عليها حسن الثواب فى المعاد، والأمن من العقاب فى المآب..

فرغبت لك فيما رغبت فيه لنفسى، وشفقت عليك لما ظهر لى من كثرة أدبك وبارع علمك وحسن تهذبك وجميل مذهبك وشرف حسبك وتقدمك على الكثير من أهل ملتك، أن تكون مقيمًا على ما أنت عليه من ديانتك هذه، فقلت: أكشف له عما مَنَّ الله به علينا، وأعرفك ما نحن عليه بالين القول وأحسنه متبعًا فى ذلك ما أذن الله به، إذ يأمرنى ويقول جل ثناؤه: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فلست أجادلك إلا بالجميل من الكلام، والحسن من القول، واللين من اللفظ، لعلك تنتهى وترجع إلى الحق، وترغب فيما أتلوه عليك من كلام الله جل جلاله، الذى أنزله على خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم، نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. ولم أيأس من ذلك، بل رجوته لك من الله الذى يهدى من يشاء، وسألته أن يجعلنى سببا فى ذلك، ووجدت الله تبارك وتعالى يقول فى محكم كتابه: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾ [آل عمران: ١٩] ويقول الله أيضًا مؤكداً لقوله الأول: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران ٨٥]، ثم أكد ذلك تبارك وتعالى أمرًا قاطعًا إذ يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**

(١) تمام الآية: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم».

(٢) كذا فى الأصل؛ ولعله محرف عن (باذلها).

حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

«وأنت الرجل (عافاك الله من جهل الكفر، وفتح قلبك لنور الإيمان) - تعلم أنى رجل أتت علىَّ سنون كثيرة، وقد تبحرت فى عامة الأديان، وامتحنتها وقرأت كثيراً من كتب أهلها، وخاصة كتبكم معشر النصارى» (وهنا يعدد الأسفار الهامة من العهدين القديم والجديد (التوراة)، وكيف درس الفرق المسيحية المختلفة) «ولقيت جماعة من الرهبان المعروفين بشدة الزهد وكثرة العلم، ودخلت عماراً[1] وديارا وبيعًا كثيرة، وحضرت صلواتهم.. ورأيت ذلك الاجتهاد العجيب، و الركوع والسجود بإلصاق الخدود بالأرض، وضرب الجبهة، والتكيف إلى انقضاء صلواتهم خاصة فى ليالى الآحاد وليالى الجمع وليالى الأعياد. التى يسهرون فيها منتصبى الأرجل بالتسبيح والتقديس والتهليل الليل كله، ويصلون ذلك بالقيام نهارهم أجمع، ويكثرون فى صلواتهم ذكر الأب والابن والروح القدس، وأيام الاعتكاف التى يسمونها أيام البواعيث، وقيامهم فيها حفاة على المسوح والرماد، باكين بكاء كثيراً متواتراً بانهمال دموع من الأعين والجفون، منتحبين بشهيق عجيب. ورأيت عملهم القربان، كيف يحفظونه بالنظافة فى خبزهم إياه، ودعائهم عند عمله الدعاء الطويل، مع التضرع الشديد عند إصعاده على المذبح فى البيت المعروف ببيت المقدس، مع تلك الكؤوس المملوءة خمراً. ورأيت أيضًا ما يتدبر به الرهبان فى قلاليهم أيام صياماتهم الستة، أعنى الأربعة الكبار والاثنين الصغيرين وغير ذلك.. فهذا كله كنت له حاضراً، ولأهله مشاهداً، وبه عارفًا عالمًا. ورأيت أيضًا مطارنة وأساقفة مذكورين بحسن المعرفة وكثرة العلم، مشهورين بشدة الإغراق فى الديانة النصرانية، مظهرين غاية الزهد فى الدنيا، فناظرتهم مناظرة نصفة، طالبا للحق، مسقطا بينى وبينهم اللجاج والمراء والمكابرة بالسلطة، والصلف والبذخ بالحسب. وأوسعتهم أمنا أن يقوموا بحجتهم، ويتكلموا بجميع ما يريدونه، غير مؤاخذ لهم بذلك، ولا متعنّت عليهم فى شىء، كمناظرة الرعاع والجهال والسقاط والعوام والسفهاء من أهل ديانتنا، الذين لا أصل لهم ينتهون إليه، ولا عقل فيهم يعولون عليه، ولا دين ولا أخلاق تحجبهم عن سوء الأدب؛ وإنما كلامهم العنت والمكابرة والمغالبة بسلطان الدولة، بغير علم ولا حجة. وكانوا إذا أنا ناظرتهم وسألتهم مسألة بحث عن عقولهم واعتقادهم وتخرجهم، يصدقوننى عن أمرهم ولا يكذبون فى شىء مما كنت أسائلهم عنه وأجادلهم فيه، وكنت قد عرفت من بواطنهم مثل الذى قد عرفته من ظاهرهم، فكتبت إليك (أصلحك الله!) بهذا الشرح، وعدوت ما عدوته بعد الاستقصاء والبحث

(١) هو جمع عمر؛ بضم العين؛ بمعنى البيعة والكنيسة. ولم نجده فى اللسان، ولا التاج جمعًا.

الشديد والامتحان له على طول الأيام، لئلا يظن بى أنى غبى بالأمور، وليعلم من وقع إليه كتابى هذا أنى عارف بجميع أحوال النصارى حق المعرفة.

« فأنا الآن (متع الله بك!) أدعوك بهذه المعرفة كلها منى بدينك الذى أنت عليه وبطول المحبة إلى هذا الدين الذى ارتضاه الله لى وارتضيته لنفسى، ضامنًا لك به الجنة ضمانًا صحيحًا، والأمن من النار، وهو أن تعبد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يتخذ له صاحبة ولا ولدًا ولم يكن له كفوًا أحد.. وهى الصفة التى وصف نفسه جل وعز بها، إذ كان ليس أحد من خلقه أعلم به من نفسه. فدعوته إلى عبادة الإله الواحد الذى هذه صفته، ولم أزد فى كتابى هذا على ما وصف به نفسه (جل اسمه وتعالى ذكره، علوا كبيرًا عما يشركون!) فهذه ملة أبيك إبراهيم صلوات الله عليه، فإنه كان حنيفًا مسلمًا.

ثم أدعوك « حفظك الله » إلى الشهادة والإقرار بنبوة سيدى وسيد ولد آدم، وصفى رب العالمين وخاتم الأنبياء محمد.. الذى أرسله الله بشيرًا ونذيرًا إلى الناس كافة ﴿ **بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة : ٣٣]. فدعا الناس أجمعين، أهل الشرق والغرب، وأهل البر والبحر، والجبل والسهل، بالرحمة والرأفة وطيب القول وحسن الخلق واللين. فاستجاب هذا الخلق كلهم إلى دعوته بالشهادة له أنه رسول الله رب العالمين إلى من يريد انتصاحًا، وأقر الأنام كلهم طائعين مذعنين لما عرفوا من الحق والصدق من قوله وصحة أمره، وما جاء به من البرهان الصريح والدليل الواضح، وهو هذا الكتاب المنزل عليه من عند الله، والذى لا يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتى بمثله، وكفى به دليلاً على دعوته، وأنه دعا إلى عبادة إله واحد فرد صمد، فدخلوا فى دينه وصاروا تحت يده غير مكرهين ولا مجبرين، بل خاضعين معترفين مستنيرين بنور هدايته متطاولين باسمه على غيرهم ممن جحد نبوته وأنكر رسالته ورد أمره مقاومًا ومتعاليًا، فمكن الله لهم فى البلاد وأذل لهم رقاب الأمم من العباد، إلا من قال بقولهم وتدين بدينهم؛ وشهد على شهادتهم، فحقن بذلك دمه وماله، وحرمته أن يؤدى الجزية عن يد وهو صاغر. (وهنا يعدد تعاليم الإسلام المختلفة، كالصلوات الخمس وصوم رمضان والجهاد، ويشرح عقيدة بعث الموتى، ويوم الدين، ويصف مناعم الفردوس وأهوال الجحيم). « فأما نحن فقد ذكرناك، فإن أنت آمنت وقبلت ما يتلى عليك من كتاب الله المنزل انتفعت بما ذكرناك، وكتبنا به إليك، وإن أبيت إلا المقام على كفرك وضلالك وعنادك للحق، كنا نحن قد أجرنا، إذ عملنا بما أمرنا به

وكان الحق هو المنتصف منك إن شاء الله. (وهنا يعدد فروض الدين المختلفة ومزايا المسلم ويختم ذلك بقوله): «فقد تلوت عليك من قول الله تبارك وتعالى، وهو قول الحق، لا خلف لوعده، ولا تكذيب لقوله فيما سلف من كتابى هذا، ما فى أقله كفاية. فدع ما أنت عليه من الكفر والضلال والشقاوة والبلاء، وقولك بذلك التخليط الذى تعرفه ولا تنكره وهو قولكم بالأب والابن والروح القدس وعبادة الصليب التى تضر ولا تنفع، فإنى أربأ بك عنه وأجل فيه علمك وشرف حسبك عن خساسته، فإنى وجدت الله تبارك وتعالى يقول ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال جل ذكره ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٥].

فدع ما أنت فيه من تلك الضلالة، وتلك الحمية الشديدة الطويلة المتعبة، وجهد ذلك الصوم الآزم الصعب والشقاء الدائم، والبلاء الطويل الذى أنت منغمس فيه، الذى لا ينفع ولا يجدى عليك إلا إتعابك بدنك وتعذيبك نفسك، وأقبل داخلاً فى هذا الدين القيم، السهل المنهج، الصحيح الاعتقاد، الحسن الشرائع، الواسع السبيل، ارتضاه الله لأوليائه من عباده، ودعا جميع خلقه إليه من بين الأديان كلها، تفضلاً منه عليهم به، وإحساناً إليهم بهدايته إياهم، ليتم بذلك نعماءه عندهم.

«فقد نصحت لك يا هذا وأديت إليك حق المودة وخالص المحبة، إذ أحببت أن أخالطك بنفسى، وأن أكون أنا وأنت على رأى واحد وديانة واحدة. فإنى سمعت ربى يقول فى محكم كتابه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة: ٦-٨]، وقال الله فى محكم كتابه فى موضع آخر ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم**

مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. واشفقت عليك (أبقاك الله!) أن تكون من أهل النار، الذين هم شر البرية، ورجوت أن تكون بتوفيق الله إياك من المؤمنين، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، هم خير البرية، ورجوت أن تكون من هذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس، فإن أبيت إلا إلظاظا ولجاجا وجهلا وتماديا فى كفرك وطغيانك الذى أنت فيه، ورددت علينا قولنا، ولم تقبل ما بذلناه لك من نصيحتنا، حيث لم نرد منك على ذلك جزاء ولا شكراً، فاكتب بما عندك من أمر دينك، الذى صح فى يدك منه، وما قامت به الحجة عندك، مطمئناً، غير مقصر فى حجتك ولا مكاتم لما أنت معتقده، ولا فرق ولا وجل، فليس عندى إلا الاستماع للحجة منك، والصبر والإقرار بما يلزمنى منه طائعاً غير منكر، ولا جاحد ولا هائب، حتى نقيس ما تأتينا به وتتلوه علينا، وتجمعه إلى ما فى أيدينا، ثم نخبرك بعد ذلك. على أن تشرح لنا علته، وتدع الاعتلال علينا بقولك إن الفزع حجبك وقطعك عن بلوغ الحجة، واحتجت أن تقبض لسانك، ولا تبسطه لنا ببيان الحجة، فقد أطلقناك وحجتك، لئلا تنسبنا إلى الكبرياء، وتدعى علينا الجور والحيف، فإن ذلك غير شبيه بنا.

فاحتجَّ عافاك الله بما شئت، وتكلم بما أحببت، وانبسط فى كل ما تظن أنه يؤديك إلى وثيق حجتك، فإنك فى أوسع الأمان، ولنا عليك أصلحك الله، إذ أطلقناك هذا الإطلاق، وبسطنا لسانك هذا البسط، أن تجعل بيننا وبينك حكماً عادلاً لا يجور، ولا يحيف فى حكمه وقضائه، ولا يميل إلى غير الحق إذا ما تجنب دولة الهواء[1]، وهو العقل الذى يأخذ به الله عز وجل ويعطى، فإننا قد أنصفناك فى القول وأوسعناك فى الأمان، ونحن راضون بما حكم به العقل لنا وعلينا إذ كان ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وما دعوناك إلا طوعاً وترغيباً فيما عندنا وعرفناك شناعة ما أنت عليه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

٥- الفضيل بن عياض رحمه الله (١٠٥ - ١٨٧ هـ)

هو من أكابر العلماء ومن جلة العباد الصالحين، وهو تميمى يربوعى ولكنه ولد فى سمرقند ونشأ بابيورد، ودخل الكوفة وهو كبير.

كان شيخ الحرم المكى زماناً غير قصير، وهو محدث ثقة، أخذ عنه العلم والحديث خلق كثير منهم الإمام الشافعى رحمه الله.

---

(١) كذا فى الأصل - والصواب الهوى.

● وكان رحمه الله مثلاً فى التجرد لله، لا يخاف فى الحق لومة لائم، ولا يهاب سلطانًا ولا خليفة ولا أحداً من الناس، وكانت الدعوة إلى الله هى كل همه.

وسوف اكتفى بكلمته لهارون الرشيد رحمه الله، ففيها أقوى الأدلة على التجرد والإخلاص لله.

– قالوا: استصحب هارون الرشيد الفضيل فاستنصحه، فقال له الفضيل: «إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة، دعا إليه: سالم بن عبد الله(١) ومحمد بن كعب القرظى(٢) ورجاء بن حيوة(٣) فقال لهم: إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علىَّ، فعدَّ الخلافة بلاءً، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

– فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم الدنيا، وليكن إفطارك من الموت.

– وقال له محمد بن كعب القرظى: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنَّن على ولدك.

– وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله عز وجل فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت، وإنى أقول لك: إنى أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام.

● وقال الفضيل لهارون: فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟

---

(١) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أحد فقهاء المدينة السبعة، من سادات التابعين، ومن العلماء الثقات، دخل على سليمان بن عبد الملك فما زال سليمان يرحب به ويرفعه حتى أقعده على سريره توفى ١٠٦ هـ.

(٢) هو محمد بن كعب بن سليم القرظى أبو حمزة من مشاهير التابعين فى المدينة كان عالمًا ثقة وثقه أكابر علماء الرجال كابن حبان فى كتابه: الثقات والعجلى فى كتابيه: معرفة الثقات وتاريخ الثقات، وكان عالمًا بالقرآن الكريم ومن العباد الصالحين توفى ١١٨ هـ.

(٣) هو رجاء بن حيوة بن جرول الكندى شيخ أهل الشام فى عصره، من الوعاظ الفصحاء ومن العلماء الأجلاء، كان ملازمًا لعمر بن عبد العزيز فى عهدى إمارته وخلافته، وهو الذى أشار على سليمان باستخلاف عمر فاستخلفه توفى ١٠٨ هـ.

فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشى عليه، فقلت له[١]: ارفق بأمير المؤمنين.

فقال الفضيل للفضل بن الربيع: يا ابن أم الربيع: تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا!!!

ثم أفاق هارون فقال للفضيل: زدنى رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر: يا أخى أذكرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد، وإياك أن تنصرف به من عند الله فيكون آخر العهد انقطاع الرجاء، قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له: ما أقدمك؟ قال: خَلَعْتَ قلبى بكتابك، لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل.

فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال للفضيل: زدنى رحمك الله، فقال الفضيل يا أمير المؤمنين: إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله.. أمِّرنى على إمارة، فقال له النبى ﷺ: إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل.

فبكى هارون بكاء شديداً»[٢]

هذا هو الفضيل بن عياض يكشف عن تجرده لله وإخلاصه له هذا الحوار مع هارون الرشيد رحمهما الله تعالى.

٦- الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى (١٦٤-٢٤١ هـ)

أحد الأئمة الأربعة وصاحب المذهب الحنبلى نسبة إليه، وقد عاصر فتنة الخليفة المأمون بقوله بخلق القرآن ومحاجته العلماء ليقولوا بقوله وإنزاله العقاب بمن رفض أن يقول: إن القرآن الكريم مخلوق.

وقد مات المأمون قبل أن يناظر أحمد بن حنبل، ولما تولى المعتصم سار على نهج المأمون، فعذب الإمام وسجنه ثمانية وعشرين شهراً ليقول بخلق القرآن فأبى، ثم أطلق سراحه سنة ٢٢٠ هـ.

ولما تولى الواثق بعد المعتصم لم يتعرض لابن حنبل بأذى.

وعندما تولى المتوكل بعد الواثق أكرم الإمام وقدمه.

والإمام أحمد من كبار الدعاة إلى الله، الذين تجردوا لله ولدينه وشريعته ومنهاجه، ومن

(١) القائل هو الفضل بن الربيع الذى صحب هارون إلى الفضيل بن عياض، والمقول له هو: الفضيل بن عياض.

(٢) ابن الجوزى: صفة الصفوة: ٣/٣٧-٣٩ باختصار.

لذين احتملوا من أجل تجردهم هذا أهوال السجن والتعذيب، فقد ثبت على ما كان يعتقد أنه الحق، فكان رأيه فى قضية خلق القرآن؛ أن القرآن كلام الله تعالى، لا يوصف بانه مخلوق أو غير مخلوق وإثارة هذه المسألة بدعة، لم يقل بها النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم.

وقد كان رأى أحمد هو رأى علماء الحديث فكلهم أنكر هذا التعبير، وقالوا: لا نتابع من يقول بذلك، ولا نتابعهم فى الجدال والخصومة ونقف عند قولنا: «القرآن كلام الله».

على أن القول بأن القرآن مخلوق هو من نتاج علماء الكلام والمعتزلة منهم على وجه الخصوص فهم يقولون إن الله تعالى وحده هو القديم وما عداه حادث مخلوق، وفرضوا ذلك على الدولة إذ كانوا أهل نفوذ وسطوة فى خلافة المأمون، حتى جعلوا المأمون يطلق مناديًا ينادى بأن من قال بأن القرآن غير مخلوق فلا حظ له من الدين ولا نصيب له من الإيمان واليقين.

● وامتحن أحمد فى هذه الفتنة بالتعذيب والسجن ولكنه خرج منها مرفوع الهامة موفور الكرامة(١).

● وعندما تنتهى قصة الإمام أحمد مع هذه الفتنة تحدث أثرين جليلين فى تاريخ الفكر الإسلامى.

أحدهما: الثبات على العقيدة الحق مهما عانى من ثبت عليها، فقد أصبح موقف أحمد وتحمله مثار إعجاب المسلمين، وتشجيعًا لهم على الثبات على الحق.

والآخر: خمول حركة المعتزلة وفكر الاعتزال كله، حتى لم يبق منها إلى اليوم غير ما يذكر عنهم فى كتب الملل والنحل من مقولات تخصهم(٢) نوجزها فى النقاط التالية:

● أن أفعال الخير من الله وأفعال الشر من الناس،

● وأن القرآن مخلوق محدث ليس بقديم،

● وأن الله تعالى غير مرئى يوم القيامة،

● وأن المؤمن إذا ارتكب ذنبًا كشرب الخمر ونحوه يكون غير مؤمن ولا كافر اى فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر.

---

(١) تحدث عن هذه المحنة بالتفصيل الحافظ الذهبى فى كتابه: تاريخ الإسلام وهو يترجم للإمام أحمد.

(٢) تلتمس هذه الآراء مفصلة فى كتب علم الكلام القديمة كالملل والنحل للشهرستانى والحديثة ككتاب ضحى الإسلام لاحمد أمين.

● وأن إعجاز القرآن ليس فى ذاته وإنما لأن الله صرف العرب عن معارضته، ولو لم يصرفهم لأتوا بما يعارضه،

● وأن من دخل النار لم يخرج منها.

وقد أمر المتوكل الناس بعدم القول بآرائهم فخمل مذهبهم وذهب فى الذاهبين.

وقد قال الذهبى فى الإمام أحمد: «إن الله أعز هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة»(١).

وقال أحمد أمين: ولم يسترد المعتزلة سلطتهم يومًا بعد المحنة.(٢)

وبعد: فلولا تجرد الإمام أحمد لله وللحق ما كان منه هذا الموقف الذى نصر الله به الحق على يديه، ولما كانت كلماته أمضى من سيوف من عذبوه وأقوى من سلطتهم.

● وكان لتجرد أحمد وتحمله من أجل دينه ودعوته أثر كبير فى إقبال الناس على الإسلام الذى صاغ هذه النماذج النادرة فى التمسك بالحق والتضحية فى سبيله.

وبعد: فقد قدمنا نماذج ستة فحسب وكان فى الإمكان الحديث عن لعشرات منهم -لتقديم الشاهد والمثال على أن علماء المسلمين ومصلحيهم المتجردين لدين الله ودعوته، هم الذين عملوا بهذا التجرد على أن ينتشر الإسلام بين الناس وأن يدخله الناس أفواجًا فإذا أضفنا إلى ذلك حديثنا عن الصحابة رضوان الله عليهم فى التجرد لله تعالى ولدينه ودعوته علمنا كيف كان تجرد هؤلاء وأولئك ومن كان على مثالهم من مئات المصلحين والمجددين سببًا فى نشر الإسلام فى مختلف أقطار الأرض.

ويبقى أن نقدم نماذج من إقبال الناس على الدخول فى الإسلام متأثرين بهذا التجرد وغيره من الصفات الإسلامية الفاضلة لننهى الحديث فى الباب الأول من هذا الكتاب، والله ولى التوفيق.

ب- نماذج من إقبال غير المسلمين على الإسلام

● لا شك أن إقبال غير المسلمين على اعتناق الإسلام له أسباب عديدة لابد أن يكون من أبرزها صفات فى الإسلام نفسه من حيث هو دين أتمه الله تعالى وأكمله ورضيه للبشرية كلها دينا، ومن حيث ما تشتمل عليه مبادئه من قيم إنسانية رفيعة، ومن حيث ما يقرره من احترام الإنسان وتقديره وتكريمه وتحديد ما له من حقوق وما عليه من واجبات..

---

(١) الحافظ الذهبى: تاريخ الإسلام: ١/١٢١.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام: ٣/٢٠١.

● ولابد أن تكون صفات الرسول ﷺ الذى جعله الله تعالى على خلق عظيم، وسيرته المليئة بالمواقف الإنسانية النبيلة فى حربه وسلمه، وسائر أخلاقه العظيمة، وما نادى به من أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وإيثاره العلم والتعليم على ما سواهما لأنه بعث معلمًا، لابد أن تكون تلك الصفات - وهو أوسع من أن نحصيها هنا - هى أحد الأسباب فى إقبال الناس على الدخول فى دين الله أفواجا.

● ولا شك أن الانتصارات التى حققها الرسول ﷺ وصحابته رضى الله عنهم وتابعوهم من المصلحين المخلصين المتجردين لله ولدينه ولدعوته، أغرت الناس بالإقبال على اعتناق هذا الدين الذى يسيطر على أخلاقه العدل والإحسان، وتنتفى عنه كل الفواحش والمنكرات.

● والذى نحب أن نؤكده هنا أن صفة التجرد لله ولدينه ولدعوته، والتضحية فى سبيل ذلك بكل مرتخص وغال، والثبات على تلك المبادئ السامية، صفة التجرد هذه لابد أن تكون أحد الأسباب التى جعلت الناس يقبلون على الدخول فى الإسلام، وهذا ما نحاول أن نثبته فى هذه الصفحات.

● هذه النماذج التى قدمناها وما تمتعت به من صفات فاضلة - كان من بينها التجرد - هى التى جعلت أهل الكتاب من يهود ونصارى يقبلون على الإسلام متأثرين بكل تلك العوامل والأسباب.

● ولو ذهبنا نحصى من دخلوا الإسلام من أهل الكتاب يهودًا ونصارى ما وسعنا العد والإحصاء، وربما اتهمنا بالمبالغة فيما نقول، لذلك قد كفانا تهمة المبالغة كاتب إنجليزى غير مسلم بل لم يسلم حتى مات هو: «توماس أرنولد» (١٨٦٤-١٩٣٠م) المستشرق الإنجليزى الذى عمل مدرسًا فى الكلية الانجليزية الإسلامية فى غليكرة بالهند، وأستاذاً فى لاهور، ورئيسًا للكلية الشرقية فى جامعة البنجاب، فمديراً لمعهد الدراسات الشرقية فى جامعة لندن ١٩٠٤م.

ذلك الرجل ألف كتابًا أراه جليل القدر بعنوان: الدعوة إلى الإسلام - بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية(١).

وأنا هنا أنقل من هذا الكتاب صفحات أؤكد بها إقبال الناس على الدخول فى الإسلام من أهل الكتاب يهود ونصارى، ومن غير أهل الكتاب.

---

(١) ترجمه إلى العربية وعلق عليه: الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى ونشر بالعربية سنة ١٩٤٧ ثم سنة ١٩٥٧م وسنة ١٩٧١م.

وأنقل عنه موضوعات ثلاثة:

الأول: تحول بعض رؤساء الدين المسيحى إلى الإسلام.

والثانى: تحول بعض الصليبيين إلى الإسلام.

والثالث: تحول كثير من الناس من غير أهل الكتاب إلى الإسلام.

الموضوع الأول: تحول بعض رؤساء الدين المسيحى إلى الإسلام:

يقول: توماس أرنولد تحت عنوان:

تفصيلات التحول إلى الإسلام

«وقد أشار بعض المؤرخين المسيحيين إشارات قليلة إلى حالات رؤساء الدين المسيحى الذين اعتنقوا الإسلام، وقد ذكر منهم:

١- جرجيس George أسقف البحرين الذى أسلم فى منتصف القرن التاسع الميلادى..

٢- أخ شقيق لمطران فارس جبريل وذلك فى منتصف القرن العاشر الميلادى، مما أدى إلى انتخاب جبريل شقيقه بطريقا على الكنيسة النسطورية.

٣- تيودور Theodore أسقف بيت جرماى النسطورى، ولم يذكر المؤرخ الكنسى الذى سجل هذه الواقعة شيئًا من استخدام أية قوة أو إرغام فى إسلام الأسقف، ولو أن شيئًا من ذلك حدث لسجله من غير شك. وكان ذلك حوالى سنة ٩٥٥م ميلادية تقريبًا.

٤- وفيلوكزينوس Philsxenos أسقف أذربيجان اليعقوبى وذلك ما بين سنتى ٩٦٢، ٩٧٩م.

٥- واغناطيوس Ignatius مطران تكريت اليعقوبى إذ ذهب إلى بغداد ودخل فى دين الإسلام وذلك فى سنة ١٠١٦ م فى حضرة الخليفة القادر.

مع أن أغناطيوس كان قد شغل منصب مطران الكنيسة خمسة وعشرين عامًا.

أما غير هؤلاء ممن لم يكونوا رؤساء دينيين فإن تحولهم إلى الإسلام ليس محل اهتمام لكثرتهم.

يقول توماس أرنولد: «وإن ما وصلنا من تحول هؤلاء البارزين من رجال الدين إلى الإسلام - وكانوا طائفتين متخاصمتين من الطوائف المسيحية، إنما كان راجعًا من غير شك إلى مكانتهم السامية فى الكنيسة، على حين لم يسجل المؤرخون تحول هؤلاء إلى الإسلام

من الأفراد الذين لم يكن لهم شأن يذكر»(١).

ثم يواصل «توماس أرنولد» قائلاً: على أنه وإن كان التحول إلى الإسلام ليس مجرد أمثلة فردية، فإن لدينا شاهدا فيما أورده جاك دى فترى Jacques Vitry أسقف عكا (١٢١٦-١٢٢٥ م) الذى تحدث عن الكنيسة الشرقية بما له من خبرة عن شئونها فى الأراضى المقدسة فقال: «حين عملت تلك المغريات التى جاء بها النبى ﷺ على استضعاف هذه الكنيسة لإيقاعها فى الشرك على صورة تبعث على الألم المرير، انغمرت الكنيسة واعتنقت.. وكانت من قبل تتقلب فى أعطاف النعيم».

يقصد اعتنقت الإسلام وقد وصفه كما وصف النبى ﷺ أوصافًا غير لائقة ذكرها توماس أرنولد وعف عن ذكرها المترجمون فوضعوا مكانها نقطًا.. غير أن الاستشهاد بما قاله أسقف عكا يظل دليلا قاطعًا - وإن غاظه - على دخول أعداد كبيرة من رجال الكنيسة الشرقية فى الإسلام.

والموضوع الثانى: تحول بعض الصليبيين إلى الإسلام:

يقول «توماس أرنولد»: «وإلى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التى وصفت بأنها قد دخلت فى نطاق تأثير الحكم الإسلامى عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والطوائف الخارجة عن الدين التى تفرعت عنها.

ولكن بانتهاء القرن الحادى عشر الميلادى انضم إلى أهالى الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية واستقروا فى مملكة بيت المقدس وسائر الولايات التى أسسها الصليبيون وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان.

وفى غضون هذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء؛

ففى الحروب الصليبية الأولى مثلا، انشق على الطائفة الرئيسية جماعة من الألمان واللومبارديين بزعامة فارس مشهور يدعى Rainaud وحاصرهم السلطان أرسلان السلجوقى

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ١٠٤-١٠٧ ط مكتبة النهضة بالقاهرة ١٩٧١م.

فى إحدى القلاع، وتظاهر هو وخاصة أتباعه بالقيام بهجوم على محاصريهم فى الخارج، فتركوا رفاقهم التاعسين وانتقلوا إلى الأتراك، حيث اعتنقوا الإسلام بينهم »[1].

ويعلل « توماس أرنولد » دخول الصليبيين فى الإسلام بما لقوه من حسن معاملة المسلمين وسوء معاملة الإغريق إخوانهم فى الدين المسيحى، فيقول عن تعامل المسلمين مع بعض جنود الصليبيين المهزومين المرضى الجائعين الذين وقعوا فى غدر الإغريق[2]:

« فواسوا المرضى وأغاثوا الفقير والجائع الذى أشرف على الهلاك وبذلوا لهم العطاء فى كرم وسخاء، بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية التى ابتزها الإغريق من الحجاج بالقوة أو بالخداع ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم.

فكان البون شاسعا بين المعاملة الرحيمة التى لقيها الحجاج من الكفار – يقصد المسلمين – وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من الإغريق الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل، حتى إن كثيراً منهم دخلوا فى دين منقذيهم بمحض إرادتهم ».

وكما يقول المؤرخ القديم: « لقد جفوا إخوانهم فى الدين الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك. آه، إنها لرحمة أقسى من الغدر! لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدموا لهم من خدمات ».

– وإن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين، وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديراً أخذ ينمو على مر الزمن – وهى ظاهرة تميز المتأخرين من مؤرخى الحروب الصليبية من السابقين منهم تمييزا واضحاً جليا.

– ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين فى الأراضى المقدسة للشرقيين فى عاداتهم وأساليب حياتهم، إن ذلك كله لم يخفق فى إيجاد تأثير متبادل فى الأفكار الدينية.

ومن أظهر ألوان هذا التأثير ذلك المسلك السمح الذى سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية وهو اتجاه فكرى كان أشد ما تشكو منه الكنيسة.

---

(١) السابق: ١٠٨.

(٢) ينقل توماس هذا الكلام عن: أودوالدويلى Odo of Deuil احد رهبان القديس دينيس Denis الذى كان يشغل وظيفة قسيس خاص للويس السابع، وصحبه فى هذه الحروب الصليبية فكتب فى وصفها نبذة. هى ما نقل منها « توماس أرنولد » فى كتابه: ١٠٩.

كان يلتقى الصليبيون بالمسلمين لقاء وديا أثناء المهادنات الكثيرة، لا سيما إذا عرفنا أن الدين نفسه هو الذى أتى بالصليبيين إلى الأراضى المقدسة وحملهم على شن هذه الحروب الدائمة، بل إن علماء اللاهوت المسيحيين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطًا شخصيًا إلى تكوين رأى أكثر إنصافًا عن ديانة المسلمين، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس وأثار ألوان الزندقة، فليس بغريب أن ينجذب كثيرون إلى حظيرة الإسلام.

وكان عدد المرتدين عن المسيحية فى القرن الثانى عشر الميلادى كثيراً كثرة نلاحظها فى سجلات الصليبيين القانونية التى يطلق عليها: «مجالس قضاء بيت المقدس».

ثم يواصل «توماس أرنولد» قائلاً: وقد لا يكون من الممتع أن نعرف من هؤلاء الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، ولكن يظهر أنهم لم يخلفوا سجلاً بأعمالهم.

– على أننا نعلم أن صلاح الدين العظيم نفسه، كان على رأسهم وهو الذى وصفه كاتب سيرته بأنه قدم محاسن الإسلام بين يدى ضيفه المسيحى وحثه على اعتناقه.

– ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيرا سحريًا خاصًا، حتى إن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين.

– وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية مثلاً: فارس إنجليزى من فرسان المعبد يدعى: روبرت أوف سانت البانس Robert of St Albans فى سنة ١١٨٥ م واعتنق الإسلام ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين.

وبعد عامين غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحى هزيمة منكرة فى واقعة حطين.

وكان جوى Guy ملك بيت المقدس بين الأسرى. وحدث فى مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه «قد حلت فيهم روح شريرة» وفروا إلى معسكر صلاح الدين، حيث أسلموا بمحض إرادتهم(١).

● ثم يقول «توماس أرنولد»: ومنذ ذلك الحين لا نعدم أخباراً عن المرتدين عن المسيحية، فيما كتبه هؤلاء الذين رحلوا إلى الأراضى المقدسة وغيرها من بلاد الشرق...

ولا شك أن هذه الأخبار المبعثرة تحمل الدليل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام الذى

(١) السابق: ١١١.

لم يصلنا عنه أى خبر كان على نطاق أوسع: فمن ذلك ما يقال من أن خمسة وعشرين ألفًا من المرتدين عن المسيحية كانوا فى مدينة القاهرة حول نهاية القرن الخامس عشر.

ولابد أن هناك كثيرين من هؤلاء المرتدين فى مدن الأراضى المقدسة بعد زوال الإمارات اللاتينية فى الشرق.

ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالى هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين.

كذلك دفع هذا الشعور نفسه، شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية فى ظل الحكم الإسلامى كثيراً من مسيحيين آسيا الصغرى فى إبان هذه الفترة ذاتها إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده، ولكن بسبب روح الاضطهاد التى ظهرت بها الكنيسة الإغريقية.(١)

هذا عن إقبال رؤساء الكنائس المسيحيين وألوف المسيحيين على الإسلام، بسبب الجهود التى بذلها المسلمون فى نشر الدعوة كما قرر ذلك المؤرخون المسيحيون، ولابد أن يكون مصاحبًا للدعاة إلى الله بهذا الدين الخاتم بين المسيحيين تجرد فى عملهم يسهم فى إعجاب المسيحيين بهم وبالتالى يسرع فى إقبالهم على اعتناق الدين الإسلامى. وهذا ما لم يسجله المؤرخون المسيحيون، ولا « توماس أرنولد » فى كتابه: الدعوة إلى الإسلام لأنه ليس فى دائرة اهتمامهم.

والموضوع الثالث: تحول كثير من الناس من غير أهل الكتاب إلى الإسلام

- إذا كانت الدعوة إلى الإسلام على أيدى الدعاة إلى الله المتجردين لله وللدين وللدعوة قد تركت هذا الأثر الضخم الذى أدى إلى تحول أصحاب الديانات الكتابية إلى الإسلام، فإن الناس الذين لم يكونوا على دين كتابى كانوا أسرع إلى الإقبال على اعتناق الدين الإسلامى، مما جعل الإسلام ينتشر فى الناس بسرعة فائقة، وتلك سنة عامة سنها الله للنجاح فى أى عمل فى الدعوة والحركة وفى غيرهما من الأعمال، وهى أنه كلما كان العمل خالصًا لله وكان العامل فيه متجرداً عما سوى الله كان النجاح حليفه.
- ولقد انتشر الإسلام بسرعة فائقة ولقى قبولاً ممتازاً فى إفريقية معظمها ابتداء من شماليها فى مصر وبلاد المغرب العربى وليبيا إلى جنوبيها فى بلاد النوبة والسودان والحبشة وإفريقيا الوسطى ونيجيريا وتشاد والنيجر وموريتانيا والسنغال وغينيا وساحل العاج وداهومى

---

(١) السابق: ١١٦.

وتوجو والكاميرون والجابون والكونغو بفرعيه بعد تغيير زائير حديثًا.

لقد استطاع الإسلام أن يصل إلى معظم بلدان إفريقية وقد أقبل الناس على الدخول فيه دون ضغط أو إكراه فلم تكن وراء الدعوة إليه حكومة ضاغطة ولا جيش قاهر ولا مؤسسة دينية أو غير دينية تقدم الخدمات – كما تفعل الكنيسة مثلاً – وإنما كان ذلك بتأثير الدعاة إلى الله المتجردين في دعوتهم ليوصلوا دين الله إلى عباد الله.

- كما انتشر الإسلام بسرعة أيضًا ولقى إقبالاً ملحوظًا فى آسيا ابتداءً، ولا عجب فى ذلك لأن منشأ الإسلام ومهبط الوحى فى مكة وإقامة الدولة فى المدينة وجهود النبى ﷺ فى الجزيرة العربية أولاً – وهى جزء من آسيا – حيث امتد الإسلام فى شمالى الجزيرة ليقبل عليه الناس فى فلسطين والشام كله – وكان الشام فى حوزة الروم – ثم يستمر حتى حدود الدولة البيزنطية، وفى شرقيها ليشمل فارس ثم وسط آسيا ثم أمعن فى شرقيها فوصل إلى المغول والتتار وعدد كبير من بلاد روسيا، ثم الهند والدكن والسند والبنغال وكشمير والتبت، بل الصين واليابان.

- ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

أ– فى آسيا:

لقد حمل إلينا تاريخ الدعوة والدعاة إلى الله أنباء دعاة إلى الله فى بلدان آسيا يعدون من مشاهير الدعاة، نشير إلى سيرهم بإيجاز فيما يلى:

– الشيخ شرف بن مالك وأخوه مالك بن دينار[1] وابن أخيه مالك بن حبيب الذين دعوا ملك مليبار فى الهند إلى الإسلام فأدخل الله الإيمان فى قلبه فاعتنق الإسلام ونشر الدعوة وبنى المساجد.

– وعمر الثانى (٧١٧–٧٢٠م) فى بلاد ما وراء النهر فقد استجاب لدعوته كثير من الناس ودخلوا فى الإسلام.

– وأبو صيدا الذى أخذ فى نشر الدعوة الإسلامية فى سمرقند فى عهد هشام الثانى (٧٢٤–٧٤٣ هـ).

– وخواجه أبو النصر السامانى وكان على جانب كبير من التقوى والتجرد لله فأراد أن ينشر الإسلام فى بلاد الكفار، فامتد الإسلام بجهوده من بلاد السامانيين إلى البلاد

---

(١) هو غير مالك بن دينار البصرى أبو يحيى من رواة الحديث ومن أهل البصرة وتوفى بها ١٣١ هـ.

المجاورة فى تركستان وفى سنة ٩٦٠ م اعتنق الإسلام مائتا ألف من الأسر التركية التى كانت تعيش فى الخيام.

– وسيد تترهرشاه (٩٦٩ – ١٠٣٩ م) فى جنوبى الهند وكانت له جهوده فى نشر دعوة الإسلام ولقى استجابة وإقبالاً.

– والشيخ يوسف شمس الدين – وهو أصلاً من تبريز فى إيران – وقد حقق نجاحًا دعويًا ملحوظًا فى جزر لكديف وملديف فى القرن الثانى عشر الميلادى.

– وبيرمها بير خادم رايت (١٣٠٤ م) وهو داعية بارز فى بلاد الدكن وقد دخل فى الإسلام على يديه عدد كبير من الهندوك.

– وسيد محمد حيسو دراز (١٢٧٠ – ١٣٢٠ م) حيث دخل على يديه عدد من هنود مقاطعة يونا فى الإسلام.

– وهاشم بيرجو جرات (القرن السادس عشر الميلادى) وقد دخل على يديه عدد كبير من هنود مقاطعة دهاروار.

– وشاه محمد صادق سرمست حسين (١٥٦٨ م) فى غربى الهند وكان من أكثر الدعاة إلى الله توفيقا فى دعوته.

– وسيد سيف الدين (فى القرن السادس عشر الميلادى) وهو من سلالة عبد القادر الجيلانى، هاجر من بغداد إلى الهند من أجل نشر دعوة الإسلام فيها، ونجح فى أن يجذب إلى الإسلام سبعمائة أسرة من عشائر لوهانة فى كتشى.

– والشيخ جلال الدين التبريزى (المتوفى سنة ١٢٤٤ م) فقد كان واسع النشاط فى الدعوة إلى الله ونشر الإسلام فى البنغال.

وعن انتشار الإسلام فى الهند عمومًا يقول: «هانتر» W.W. Hunter عن الأديان فى الهند: «... بيد أن ما أحرزه الإسلام من نجاح مستمر فى البنغال السفلى لم يكنْ راجعًا إلى القوة والعنف، فقد راق الإسلام نظر الأهالى، كما انتزع السواد الأعظم من الذين تحولوا إلى هذا الدين من طبقة الفقراء، وأدخل فى أذهانهم تصورًا أرقى لمعنى: الإله، ومثلاً أسمى للأخوة الإنسانية، وقدم للعشائر المنحطة التى غصت بها البنغال، والتى ظلت أجيالاً دنيئة وضيعة أبعد ما تكون عن حظيرة الجماعة الهندوكية، منفذًا تنفذ منه إلى نظام اجتماعى جديد».

● وليس لهؤلاء الدعاة إلى الله فى شبه القارة الهندية حصر يمكن أن يتوقف عنده الباحث، لذلك نكتفى بما قدمناه وليحاول بعض الدعاة إلى الله أن يهتموا بذلك المجال.

● وحتى لا يطول بنا المجال فى الحديث عن إقبال الناس على الإسلام من خلال الدعاة إلى الله المتجردين له سبحانه ولدعوته نذكر المسلمين بالكثرة العظيمة للمسلمين فى كشمير، والتى تستمر إلى التبت بل الصين منذ عهد دولة تانغ، ثم ازداد انتشار الإسلام فى الصين بعد أن فتحها المغول، حيث يقول ابن بطوطه المؤرخ المسلم الجوال فى أنحاء الدنيا: «إنه زار عدة مدن ساحلية فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى.. فيتحدث عن الترحيب الذى لقيه من إخوانه فى الصين ويقرر أن فى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظمون محترمون»(١).

وكذلك كان شأن المسلمين فى عهد دولة منج، حيث حصلوا على كثير من الامتيازات طوال حكم هذه الدولة (١٣٦٨- ١٦٤٤م).

وكذلك كان شأن المسلمين فى دولة منشو (١٦٤٤م - إلى أن قامت الجمهورية الجديدة فى الصين، فهم كثيرو العدد ولهم مساجد كثيرة، والذين يتولون الوظائف الكبرى فى الدولة منهم، عدد ليس بالقليل.

وكل ذلك بفضل الله ثم بمجهود الدعاة إلى الله المتجردين لدعوة الإسلام، مما جعل للمسلمين فى الصين حتى اليوم ملايين كثيرة تبلغ ثمانين مليونًا تمثل ١٠٪ من السكان حسب تعداد سنة ١٩٧٥م.

ب- فى إفريقيا.

إقبال الناس على الإسلام فى إفريقيا نستطيع أن نحدث عنه ولا حرج - فقد رزت عددًا من بلدان إفريقية لتفقد أحوال المسلمين فيها من أقصى شرقى وسطها «كينيا» إلى أقصى غربى وسطها الكاميرون، ورأيت بعينى كيف يقبل الناس على الدخول فى الإسلام لسماحته ويسر مبادئه وإنسانية أخلاقه، ولأنه دين لا يميز بين الألوان والأجناس، وليس فيه عقدة تعالى الرجل الأبيض وقهره للرجل الأسود. فى حين لا يقدم دعاة المسلمين هناك إلى المقبلين على الإسلام شيئًا يذكر إلى جانب ما تقدمه الكنائس من خدمات كثيرة.

● فمنذ دخل الإسلام مصر والشمال الإفريقى - وكذلك فى زمن باكر من تاريخ الإسلام عام ٢٠ هـ - ٦٤٠ م والإسلام ينتشر فى إفريقيا كلها، فهو دين الغالبية العظمى من السكان فى مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والصومال

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن بطوطة (٧٠٣ - ٧٧٩ هـ) رحلة ابن بطوطة: ٣/٢٧٥.

وجيبوتى، وكلها بلاد إسلامية عربية.

- وفى وسط إفريقيا بلاد إسلامية دينها الإسلام هى: النيجر وتشاد وإفريقيا الوسطى.

- وفى شرق إفريقية بلاد إسلامية هى: الحبشة وأرتريا وتنزانيا وجزر القمر، ونسبة من المسلمين فى كينيا وموزنبيق وملاجاش وموريشيوس وأوغندة وبورندى وروانـدا وزائير (الكونغو الآن) ومالاوى وزامبيا وزيمبابوى (روديسيا).

- وفى غربى افريقيا بلاد إسلامية هى: السنغال وجامبيا وغينيا وغينيا بيساو ومالى وفولتا العليا وساحل العاج وسيراليون وتوجو وداهومى ونيجيريا والكاميرون، ونسبة من المسلمين ليست بالقليلة فى ليبيريا وغانا وغينيا والجابون.

- ولقد كان هذا التواجد الإسلامى فى إفريقيا بفضل الله وبجهود دعاة مخلصين تجردوا للدعوة إلى الله من أمثال - جماعة الفلانى أو الفلانيون وشيخهم عثمان نفديو الذى حج بيت الله وتأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

- ولا يمكن أن تتجاهل جهود حركة القادرية التى تأسست فى القرن الثانى عشر الميلادى، ولا شيخها الشيخ عبد القادر الجيلانى فقد عملت على نشر الإسلام فى شمالى وغربى إفريقية.

- والحركة التيجانية التى ظهر نشاطها فى نشر دعوة الإسلام فى القرن الثامن عشر الميلادى وما قامت به من جهود.

- ومما هو جدير بأن يلحظ أن قبائل الفلانى جميعًا مسلمون متحمسون لدينهم دعاة إليه، وحيثما وجدوا توجد المساجد ويعمل الدعاة إلى الله فى هذه المساجد دون كلل.

- والسنوسية: وهى حركة إسلامية سياسية أسسها محمد بن على السنوسى الفقيه الجزائرى الذى توفى سنة ١٨٥٩ م.

وقد أسس دعوة ودولة، أما الدعوة فقد قامت على أكتاف جماعة منهم هدفهم القيام بأمر القرآن بدقة وأمانة، وامتنعوا عن الاتصال باليهود والمسيحيين، وعملوا على مقاومة النفوذ الأجنبى الأوروبى.

وقد انتشرت هذه الجماعة فى بلدان عربية وإسلامية كثيرة فى مصر وليبيا والشمالى الإفريقى كله.

بل ذهبت إلى الجنوب الأفريقى فى السودان والصومال، وانتشرت فى بعض البلاد العربية كالعراق، بل ذهبت إلى أرخبيل الملايو.

والحركة السنوسية جديرة بدراسة مستقلة موسعة، ودعاتها جديرون بأن يعرف بهم وببرنامج الحركة ووسائلها فى دعوة الناس إلى الإسلام.

– وكانت الدعوة إلى الإسلام متغلغلة فى دولة إفريقية الشرقية التى أنشأها المستعمرون الألمان.

ولم يستطع الألمان أن يقضوا على الدعوة الإسلامية فى دولة شرق إفريقية إذ كان معظم الموظفين من المسلمين، وكان جميع المعلمين مسلمين وبخاصة فى المدارس الساحلية.

وظل أمر الدعوة الإسلامية هكذا حتى دخل النفوذ الاستعمارى معظم البلدان الإفريقية فكان من أولويات عمله أن يقاوم الإسلام والدعاة إلى الله فى إفريقيا، وأن يقوم بحملات مكثفة لتنصير الأفارقة، مما أثر بكل تأكيد على امتداد الإسلام فى كثير من بلدان إفريقية.

وبعد: فهذا ما أحببت أن أوضحه عن التجرد لله ولدينه ودعوته وعن أثره فى نشر الإسلام، وأثره فى إقبال الناس على الإسلام – فى جولة تاريخية مركزة مختصرة – لأؤكد لكل العاملين فى الدعوة الإسلامية أن عنصر التجرد فى العمل من أجل هذا الدين من أهم عناصر النجاح مع الأخذ بما يتاح من الأسباب.

وبهذا أختم الحديث فى الباب الأول من هذا الكتاب، لأنتقل إلى الباب الثانى وهو لب الكتاب وجوهره وهو شرح وتحليل لكلمة الإمام البنا رحمه الله فى التجرد، سائلاً الله التوفيق فى شرح هذا الركن وتحليله، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

الباب الثاني

شرح كلمة الإمام البنا في التجرد

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : نص كلمة الإمام البنا وشرح معنى التجرد في هذه الكلمة

الفصل الثاني : خصائص الفكرة الإسلامية التي تجرد لها المسلمون

وأهم هذه الخصائص :

١- الولاء والبراء

٢- سمو المبادئ وإنسانيتها

٣- التميز والانفراد

٤- الواقعية ومواكبة المتغيرات وتشمل :

أولاً : مصادر الواقعية في الإسلام .

ثانيًا : حوافظ الواقعية الإسلامية .

ثالثًا : أنواع الواقعية .

الفصل الثالث : أقسام الناس بالنسبة للتجرد وأسلوب التعامل معهم

١- المسلم المجاهد .

٢- المسلم القاعد .

٣- المسلم الآثم .

٤- الذمي المعاهد .

٥- المحايد .

٦- المحارب .

شرح كلمة الإمام البنا رحمه الله فى التجرد

قلت فى حديثى عن هذه الأركان العشرة للبيعة: إن رسالة التعاليم التى كتبها الإمام البنا عام ١٩٤٣م أى بعد خمس عشرة سنة من نشأة الجماعة، جاءت إشارات ودلالات إلى منهج فى الإصلاح والتجديد يأخذ بيد الأمة الإسلامية ويقيمها من كبوتها، ويهيىء لها من الظروف ما يمكنها من نفض غبار التخلف والتراجع الحضارى الذي فرض عليها من أعداء أشداء ألداء، وينير لها طريق الإصلاح والتجديد.

وقلت حينذاك إن هذه الأركان العشرة التى عبر عنها الإمام البنا فى هذه الوجازة تحتاج إلى من يشرح ويحلل ويفصل من العلماء أصحاب القدم الراسخة فى العلم وفى العمل من أجل هذا الدين وتلك الدعوة التى يجب أن تبلغ للناس كافة.

وناشدت الذين عاصروا الإمام البنا وعاشوا معه فى موكب الدعوة إلى الله وعايشوا الأحداث الكبار التى مرت بها الجماعة سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا أن يسهموا فى هذه الشروح والتحليلات لأن كثيراً من كلمات الإمام البنا عن هذه الأركان قد أوجزها فيما كتب لكنه كثيراً ما فصلها وحللها وعللها فى دروسه ومحاضراته التى كان يخص بها مجموعات من إخوانه فى جلسات خاصة ولقاءات كانت تطول يومًا كاملاً أو أيامًا عدة، وليس أقدر على شرح هذه الأركان وتحليل دلالاتها من هؤلاء الدعاة الذين عاصروا الإمام، وكثير منهم بفضل الله لا يزالون أحياء يرزقون.

وسوف يظل هذا أملى ومطلبى حتى يهيئ الله من هؤلاء العلماء من يقوم بهذا العمل الجليل.

أما أولئك الأفاضل الذين حاولوا ولم يكن لهم من هذه المعاصرة للإمام نصيب، ولا لهم من معايشته حظ، فإن الله يجزيهم بما فعلوا خير الجزاء، ويكافئهم بما أسهموا به من جهد خير ما يكافئ به عباده المخلصين.

وذلك أن الشروح والتفصيلات والتساؤلات والإجابات التى كانت تدور حول هذه الأركان التى أوجزت، كانت تكشف عن أهدافها ومراميها، وترسم معالمها، وتنير الطريق أمام العاملين المبايعين على هذه الأركان العشرة المتعلقة كلها بالإسلام؛

فهما للدين، واخلاصًا لله، وعملاً بما أمر واجتنابا لما نهى، وجهادًا بكل أنواع الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا، وتضحية بالجهد والوقت والمال والنفس فى هذا الجهاد، وطاعة لله ولرسوله ولولى الأمر ولكل مسئول عن جزئية من جزئيات العمل من أجل الإسلام، وثباتًا على مبادئ الحق التى آمن بها مهما حاول الأعداء أن يزحزحوه عن هذا الطريق، وتجردًا لله ولدينه ودعوته من شأنه أن يعجل بنصر الله، وأخوة تربط بين هذه القلوب التى اجتمعت على الله والتقت على نصرة شريعته، وثقة متبادلة بين الجندى والقائد، وبين الجندى وأخيه الجندى.

إن هذه الأركان لا يضع فيها النقاط فوق الحروف إلا هؤلاء العلماء العاملون الذين عاصروا الإمام وعايشوا معه أحداث الدعوة إلى الله.

فهل تجد دعوتى هذه صدى فى قلوب هؤلاء العلماء الدعاة الذين يعرفون تمام المعرفة أهمية مشاركتهم فى هذا العمل الجليل الذى يبتغون به مرضاة الله؟

اللهم إنى أرجو ذلك صباح مساء.

الفصل الأول

نص كلمة الإمام البنا وشرح معنى التجرد فى هذه الكلمة

يقول الإمام حسن البنا فى التجرد :

« وأريد بالتجرد أن تتخلص لفكرتك مما سواها من المبادئ والأشخاص، لأنها أسمى الفكر وأجمعها وأعلاها ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤].

والناس عند الأخ الصادق ستة أصناف :

مسلم مجاهد، أو مسلم قاعد، أو مسلم آثم، أو ذمى معاهد، أو محايد، أو محارب؛ ولكل حكمه فى ميزان الإسلام.

وفى حدود هذه الأقسام توزن الأشخاص والهيئات ويكون الولاء أو العداء ».

المعنى الذى يريده الإمام البنا للتجرد معنى خاص، بل معنى اصطلاحى يعنى به التجرد لما يدور فى هذه الجماعة التى أسسها لتدعو إلى الله وتتحرك بالإسلام فى الناس والآفاق، وتربى أنفسها وغيرها تربية إسلامية نابعة من الكتاب والسنة، وتجاهد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وليسود شرع الله ومنهجه عباده أجمعين.

إن التجرد يعنى ما يدور فى فكر هذه الجماعة من معان تناسب الأهداف وتساعد على تحقيقها، وتعين على تحرير المفاهيم الصحيحة للدعوة والحركة والتربية والجهاد وتمكين شرع الله فى عباد الله.

أولاً : معنى التجرد للفكرة الإسلامية

● والمعنى الذى يريده الإمام البنا من التجرد هو :

الإخلاص للفكرة الإسلامية(١)، والتخلى عما سواها من المبادئ والأشخاص، لأن أى مبدأ مهما كان لا يسمو لأن يشاركها فى نبلها عمومًا ونبل أهدافها على وجه الخصوص، فضلاً عن أن يساويها أو يواكبها، فضلاً عن أن يكون بديلاً عنها، فضلاً عن أن يكون أحسن منها!!

وكذلك التخلى عن الأشخاص قادة وزعماء ورؤساء وملوكًا، وأمراء وأفرادًا، لأن واحداً من هؤلاء مهما أوتى من الملكات والمواهب والقدرات لا يسمو لأن يقرب من مكانة المبلغ لهذه الفكرة الإسلامية وهو الرسول الخاتم ﷺ.

● وإنما عجزت المبادئ مهما كانت ومهما تكن عن أن تشابه الفكرة الإسلامية أو تدانيها أو تكون بديلا عنها؛ لبديهية سائغة فى عقل كل عاقل وهى :

أن هذه الفكرة الإسلامية من صنع الله الذى أحسن كل شىء ومن اختياره للإنسانية كلها كى تشق بها طريقها فى الحياتين الدنيا والآخرة.

وكل مبدأ أو نظرية أو نظام آخر إنما هو من صنع الإنسان لنفسه، وشتان بين ما يصنع الله تعالى المحيط بكل شىء علمًا، وما يصنع الإنسان المفطور على العجز والقصور والجهل والغفلة.

وشتان بين ما يختاره الله للإنسان وما يختار الإنسان لنفسه أو لغيره من الناس!!

إن الكمال المطلق لله فيما يفعل وفيما يختار، وإن النقص الفطرى فى الإنسان فيما يفعل وفيما يختار..

ومن أجل هذا الفرق الحاد كان صنع الله واختياره من الثوابت فى هذا الكون، وكان صنع الإنسان واختياره من المتغيرات التى تحتاج مع مرور الزمن إلى تطوير وتغيير لكى تلائم ما يستجد على حياة الناس من تغيير.

---

(١) الفكرة الإسلامية هى المنهج الذى اختاره الله للناس المتمثل فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وفى كل ما اجتهد فيه علماء المسلمين من أعمال وآراء لا تتعارض مع الكتاب والسنة.

● وإنما عجز الأشخاص فى الماضى ويعجزون فى الحاضر والمستقبل عن أن يجتمع حولهم المؤمنون كما اجتمعوا حول الرسول ﷺ وجاهدوا معه حتى جاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، لأسباب معروفة أدخل فى البداهة نذكر منها:

– انه ﷺ معصوم من الله تعالى عن أن يتوقف عن تبليغ دين الله ومنهجه إلى عباده، ومعصوم عن الخطأ فى هذا التبليغ أو النسيان لشىء منه، أو الزيادة عليه أو النقص منه، ومعصوم عن أن يحال بينه وبين التبليغ، وكل هذه الأنواع من العصمة مقررة بآيات من القرآن الكريم:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٩٤– ٩٦] فهذا أمر بالتبليغ وحماية للمبلغ.

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

– وأنه ﷺ يبلغ عن الله سبحانه وتعالى ما أوحاه إليه وهو القرآن الكريم الكتاب الخاتم للكتب السماوية، بوصفه الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين إلى يوم القيامة، فالقرآن الكريم هو الكلمة الأخيرة من الله لخلقه لا إلحاق بها ولا تعديل ولا تغيير، لذلك كان متضمناً للمنهج الذى يهدى الناس للتى هى أقوم إذ هو الحق وهو الصراط المستقيم، وهو المصدق لما سبقه من الكتب السماوية والمهيمن عليها، كما تقرر ذلك فى آيات القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩] وقال: ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣١]. وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

– وأنه ﷺ قد اصطفاه الله تعالى من بين خلقه ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، ورباه وأدبه ليصل به إلى درجة الكمال البشرى فى أرقى مستوياتها فعصمه فى طفولته وصباه وشبابه عن أعمال الجاهلية، وأعده لتلقى وحى الله تعالى، وليس أحد من القادة أو الزعماء أو الملوك أو الرؤساء أو الأمراء يمكن أن يبلغ من الكمال الإنسانى ما بلغه

الرسول ﷺ، لذلك لم يكن لأحدهم مهما أوتى أن يجتمع الناس حوله - إلا خائفين من بطشه - كما اجتمعوا حول المعصوم ﷺ وانطلقوا معه وبعده يحملون الهداية للناس.

- فالتجرد للفكرة الإسلامية إذن واجب شرعى، إذ لا يجوز لمسلم أن يعتقد أن مبدأ أو نظرية أو نظامًا يغنى عن المنهج الذي جاءت به الفكرة الإسلامية، ولا يجوز لمسلم أن يعتقد أن قائداً أو زعيمًا أو رئيسًا أو ملكًا أو أميرًا أو فرداً كائنًا من يكون، له من الصفات والكمالات ما كان للرسول المعصوم ﷺ ولذلك كان الأخذ عنه ﷺ فى شئون الدين والدنيا هو الصواب وهو الحق وهو النجاة.

- هذه الفكرة الإسلامية التى يتحدث عنها الإمام البنا ويرى التجرد هو التخلى عما سواها من المبادئ والأشخاص هى: منهج الإسلام ونظامه فى الحياة الدنيا والآخرة أى هى: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- وإنما لم يجز لمسلم أن يعتقد هذا الاعتقاد، لأنها أسمى الفكر من حيث نبل أهدافها ومقاصدها -كما قلنا ذلك آنفًا- وكما نفصل ذلك الآن:

فهى أسمى الفكر؛ لأنها تأمر بعبادة الله وحده، والتلقى عنه وحده فى كل ما أمر به وما نهى عنه، ولأنها تشتمل على كل ما من شأنه أن ينفع الناس فى دنياهم وأخراهم، ولأنها تترفع عن السفاسف والتفاهات، وتحرم الظلم، وتوجب العدل وتدعو إلى الإحسان وتأمر بفعل الخير عمومًا، ولأنها صراط الله المستقيم الواجب الاتباع.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

فهى أعلى الفكر وأرفعها مكانة عند الله تعالى، وبالتالى عند كل مؤمن بالله.

- وإنما كانت الفكرة الإسلامية كذلك لأنها: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ومن معانى الصبغة ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

● صبغة الله: أى دين الله الذى اختاره لعباده وأكمله وأتمه ورضيه للبشرية كلها دينًا.

– قال العلماء فى تعليل هذا المعنى للصبغة: إن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم ذلك قال: الآن صار نصرانيًا، وكذلك فعل اليهود، فقال الله تعالى ما معناه: اطلبوا صبغة الله وهى الدين والإسلام لا صبغتهم.

– وقالوا: إنما سمى الدين صبغة لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة، قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦] وقال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

– وقالوا: إيمان المؤمن صبغة الله التى يميزه بها، كما يتميز دين الحق الذى اختاره الله، عن الدين الذى اختاره الكافر أو المبطل كما تتمايز الألوان.

● وصبغة الله: أى فطرته التى فطر الناس عليها، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] وبيان ذلك أن الإنسان موسوم فى تركيبه وبنيته بالعجز والفاقة والافتقار إلى الخالق، فهذه الآثار كالصبغة له والسمة اللازمة والفطرة التى لا تبديل لها هى مقتضى العقل والشرع.

● وصبغة الله: أى حجة الله ودليله وبرهانه.

● وصبغة الله: أى سنته فى الإنسان وفى الحياة.

فالتجرد للفكرة الإسلامية نابع من أنها صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة بأى معنى من معانى الصبغة التى ذكرنا، لأن التجرد لها هو عين الصواب وهو الذى يؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة.

● **ومن مقتضيات هذا التجرد:**

– الإيمان بأن دين الله ومنهجه وهو الإسلام قد ألزمنا الله تعالى التمسك به لأنه المتلائم مع فطرتنا التى فطرنا عليها.

– والبراء المطلق من كل ما يعبد من دون الله، البراء المطلق من كل كافر يعبد غير الله، حتى لو كان هذا الكافر هو الوالد أو الولد فضلاً عن الأقارب والعشيرة.

● وقد استشهد الإمام البنا على وجوب البراء مما يعبد من دون الله، وممن يعبدون غير الله بالآية الكريمة: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

– وفى الآية الكريمة أمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام فى فعله وذلك الأمر يدل على أن شرع من قبلنا من الأنبياء والرسل عليهم السلام شرع لنا إذا أخبرنا به الله وبلغنا إياه رسوله ﷺ، وذلك لأن مصدر الرسل جميعًا واحد وهو وحى الله إليهم.

– وفى الآية الكريمة دعوة إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه فى التبرؤ من الكفار الذين يعبدون غير الله مهما تكن درجة قرابتهم، أى أن التبرؤ منهم والتخلى عنهم واجب شرعى، ذلك كان شأن إبراهيم والذين آمنوا معه، ويجب أن يكون ذلك شأن كل مسلم إلى يوم الدين.

– ولقد طبق هذا التبرؤ من الكفار إبراهيم عليه السلام فى أبيه وطبقه الرسول ﷺ فى أعمامه المشركين كأبى لهب، وطبقه أبو بكر الصديق فى ولده الذى هم بقتله فى معركة بدر، وطبقه عمر فى قتل أحد أخواله وطبقه عدد من الصحابة أشرنا إليهم قبل ذلك.

– والبراء يعنى التخلى عن كل باطل وثنا كان أو مبدأ أو نظرية أو شخصا، مع الاعتقاد الجازم بأنهم ليسوا على شىء من الحق، وإظهار ذلك وإعلانه.

غير أن هذه المعاداة قد تعود موالاة إذا رجعوا عن كفرهم وآمنوا بالله وحده، لأن البراء كان من أجل الكفر، فيجب أن يكون الولاء من أجل الإيمان.

– والبراء من الكفار يعنى أنه لا يجوز لنا أن نستغفر للمشركين ولو كانوا ذوى قربى، أما ما حدث من إبراهيم عليه السلام إذ استغفر لأبيه فقد كان ذلك بسبب وعد أبيه بأن يؤمن، فلما تبين له كذبه تبرأ منه، ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

وذلك أن والد إبراهيم كان قد وعده بأن يؤمن بالله ويدع عبادة الأصنام فاستغفر إبراهيم له بناء على هذا الوعد، فلما تبين له استمراره على الكفر تبرأ منه.

– ومن تمام معنى التجرد كما توحى به الآية التى استشهد بها الإمام البنا – الأسوة بإبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه فى: تفويض الأمر كله لله تعالى وحسن التوكل عليه واليقين بأن الإنابة إليه والمصير إليه ليحاسب كلا بما عمل، أى أن التجرد مشروط فيه:

قوة الإيمان، وصفاء القلب والتوجه إلى الله بكل قول أو عمل فقد كان من قول إبراهيم عليه السلام فى هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

– ومن تمام معنى التجرد فى الآية الكريمة أن يتوجه المؤمنون بالدعاء إلى الله ألا يجعلهم فتنة للذين كفروا، ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا . . ﴾ أى لا تسلط علينا أعداءنا فيظنوا أنهم على الحق، قاله ابن عباس رضى الله عنهما، وقال: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك وما ابتلوا هذا البلاء ولا امتحنوا هذه المحن المتوالية، لأن هذه المقولة كانت وستظل مقولة الكافرين والمنافقين دائمًا، بل مقولة ضعاف النفوس والإيمان من المسلمين فى بعض الأحيان.

لذلك كان من التجرد لله التوبة إليه بهذا الدعاء: «ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا . .» بما يصيبنا فى سبيلك من محن خشية أن نكون سببا فى فتنة الكافرين، وفرار بعض المسلمين من صفوف العاملين من أجل الإسلام.

ومعنى ذلك أن يظل قلب المؤمن المتجرد لله ولدينه ودعوته معلقًا بل موقنا بعدد من الحقائق الثابتة فى تاريخ الدعوة والدعاة ومن تلك الخصائص التى تفهم من هذه الآية الكريمة:

– وجوب الأسوة الحسنة بمحمد ﷺ وبإبراهيم عليه السلام وبالمؤمنين الذين مع الأنبياء.

– ووجوب التبرؤ من كل ما عدا الله ومن كل من كفر بالله مهما تكن درجة القرابة بهم.

– ووجوب التوكل على الله فى كل شىء.

– ووجوب الإنابة إليه عند كل قول أو عمل.

– ووجوب الإيمان بأن المصير إلى الله وأنه محاسب ومُجَازٍ.

– ووجوب التوجه إلى الله بالدعاء ألا يكون المؤمنون فيما يصيبهم من محن فتنة للكافرين أو لضعاف النفوس من المسلمين . . ذلك هو التجرد الذى استشهد له الإمام البنا بهذه الآية الكريمة.

غير أن التدبر فى آيات القرآن الكريم ومعاصرة الإمام البنا عليه رحمة الله والاستماع إلى ما كان يقول، تجعلنا نتحدث فى النقطة الثانية من هذا الفصل من مفردات التجرد للفكرة الإسلامية كما وضحت لنا من خلال معاناة الدعوة إلى الله، والله تعالى هو الموفق المعين.

ثانياً: مفردات التجرد للفكرة الإسلامية

بعد أن أوضحنا معنى التجرد من خلال كلمة الإمام البنا رحمه الله كما دل على ذلك لفظها ومعناها، نحب أن نضيف هنا حديثًا عن مفردات تصورتها – من خلال معايشتى للإمام البنا رحمه الله – وأفدتها من كلمات له سُمعت ولم تُطبع، وتلك المفردات خمسة، كلها نابع من القرآن الكريم، ومن عمل الرسول ﷺ وسيرته وهديه وعمل أصحابه رضوان الله عليهم.

وهذه المفردات إجمالاً هى:

١– الاستغناء بالله عما سواه.

٢– والاستعانة به سبحانه وتعالى.

٣– والاستقامة على الحق وعلى الطريق المستقيم.

٤– التضحية فى سبيل الله بكل ما شأنه أن يضحى به.

٥– والصبر على المكاره.

وفى تفصيل هذه المفردات نقول:

١– الاستغناء بالله عما سواه.

إن هذا الاستغناء بالله عما سواه هو لب التجرد له سبحانه وتعالى، وهو علامة صدق الإيمان وقوة اليقين، وهو اعتزاز المؤمن بدينه وبربه.

وقد كان ذلك خلق الأنبياء والمرسلين، وخلق الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

كانوا جميعًا يستغنون بالله وما عنده من ثواب الدنيا والآخرة عما فى أيدى الناس من نعم غير دائمة ومن سلطان لا محالة زائل ومن أعراض للحياة الدنيا ما دامت لأحد من الناس ولا دام هولها.

وهذا الخلق يجب أن يكون خلق المتجردين لله جميعًا، استجابة لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨].

والمعنى والله أعلم:

● تذكير النبى ﷺ بأن الله تعالى أعطاه ما يستغنى به عن كل ما سواه ومن سواه سبحانه وتعالى، فقد أعطاه فى هذه الآية شيئين عظيمين نافعين كافيين هما:

ـ السبع المثانى: وهى سبع آيات من القرآن هى سورة الفاتحة التى تكرر فى كل صلاة مرات، فى الفرائض والنوافل، وفى هذه الآيات الحمد لله والثناء على الله والضراعة إليه وتمجيده سبحانه وتعالى، وطلب الهداية منه سبحانه، واستجابة الله تعالى لإجابة ما سأله عبده فى هذه الآيات.

ـ والقرآن العظيم كله: وفيه الحجة والإعجاز والهداية والرشاد إلى أقوم طريق يؤدى إلى ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

● ونهى النبى ﷺ والذين آمنوا عن أن يتطلعوا أو يرغبوا فيما أعطاه الله للكفار من متع الدنيا، وإلى ما أعطى غير المسلمين من اليهود والنصارى والمجوس من متاع الدنيا، فإن ذلك كله مستصغر بالنسبة لما أوتيته من كمال الاتصال بنا والاستعانة بقوتنا ونعمنا، ولما أعطيته من القرآن العظيم.

فلا تحزن على استمرار الكافرين فى كفرهم، وارفق بمن معك من المؤمنين قوة الحق، وأهل الله تعالى المدافعين عن دينه واستجابة لقوله تعالى: ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١]. فالمؤمنون يجب أن يستجيبوا لهذه الآية الكريمة، فينتهوا عما نهاهم الله عنه من أن يمدوا أعينهم إلى ما متع الله بها عباده فى الدنيا، على حين يدخر للنبى ﷺ وللذين آمنوا معه فى الآخرة ما هو خير وأبقى من هذا المتاع الزائل الحائل.

٢ ـ والاستعانة بالله تعالى

والاستعانة بالله هى طلب المعونة منه سبحانه وتعالى وهى مطلب قرآنى من المؤمنين جاء

فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة ١٥٣] وفى قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] وتلك مقولة المؤمنين الذين حمدوا الله وأثنوا عليه ومجدوه وعبدوه حق عبادته، واستعانوا به فى كل أمورهم مع أخذهم بما شرع لهم الأخذ به من أسباب، كان يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، ويأخذوا حذرهم ويأخذوا أسلحتهم ثم يستعينوا بالله عليهم ويطلبوا النصر منه سبحانه، وذلك أن النصر من الله وحده، فهو سبحانه الذى هزم الأحزاب وحده ونصر عبده وأعز جنده، وأيد رسوله والمؤمنين بالملائكة يقاتلون معهم، عندما أحسنوا الاستعانة بالله والتوكل عليه وأخذوا بما استطاعوا من أسباب.

– وفى الرسول ﷺ الأسوة الحسنة فقد تكالب عليه المشركون وخانه اليهود فى غزوة الأحزاب، فأخذ بالأسباب حتى حفر الخندق وشارك فيه بيده، وأعد المسلمين أحسن إعداد، ثم أخذ يدعو ويستعين بالله على أعدائه ، فقد روى مسلم بسنده عن عبد الله بن أوفى رضى الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، هازم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم».

– وكذلك فعل رسول الله ﷺ فى بدر، فقد روى مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبى الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه..»

فالاستعانة بالله خلق أصيل فى كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، هكذا كان النبى ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم والتابعون وأهل خير القرون والصالحون من المؤمنين إلى يوم الدين.

– ومع الاستعانة بالله تعالى يجب اليقين بأن أحداً من الناس كائنا من كان فرداً أو جماعة أو حكومة لا يستطيع أن يلحق بمؤمن أذى ولا ضرراً إلا فى حدود ما كتب الله على عبده هذا من ابتلاء أو محنة، فقد روى الترمذى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت

خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشي لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

٣- والاستقامة على الحق وعلى الطريق المستقيم

وتلك هي المفردة الثالثة من مفردات التجرد لله ولدينه ودعوته، وذلك أن المتجرد لله لابد أن يكون مستقيماً على الحق وعلى الطريق المستقيم، فالاستقامة خلق وسلوك عند كل من تجرد لله تعالى ولدينه ولدعوته.

- والاستقامة هي: لزوم المنهج المستقيم وهو القرآن الكريم وهو الذى يهدى للتي هي أقوم، وهو الصراط المستقيم الذى أمر الله تعالى باتباعه والاستقامة عليه، قال الله تعالى: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾** [الأنعام: ١٥٣].

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ والذين آمنوا معه بالاستقامة والاستمرار على التمسك بهذا الدين الذى أوحاه إليه، والامتثال لما أمره به، قال تعالى: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾** [هود: ١١٢، ١١٣].

- والاستقامة عمل شاق مكلف جهداً وعناءً إذ هي حرب للشيطان وما يزينه للناس من الشهوات والهوى، قال ابن عباس رضى الله عنهما: ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع الشيب إليك، فقال: «شيبتنى هود وأخواتها» ولا يقصد ما ورد فيها من قصص الأنبياء عليهم السلام وهلاك الأمم، كما قال له بعض الصحابة ذلك وهم يستفسرون، ولكن يقصد قوله تعالى - كما أوضح لهم: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾** [هود: ١١٢].

وإنما كانت الاستقامة صعبة وشاقة لما تستلزمه من وجوب اليقظة الدائمة والتحرى الدقيق للاستقامة على المنهج، وهي يقظة وتحرٍّ قد يخرجان بصاحبها إلى حد الغلو، ولذلك نبهت

الآية الكريمة إلى هذا الخطأ فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ [هود: ١١٢]. كما نبهت إلى أن الاستقامة قد يسىء إليها من يركن إلى الظالمين، منخدعاً بما يملكون من جاه وسلطان ومال ونفوذ وقدرة على القهر والقمع، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

وامتدح الله تعالى المؤمنين المستقيمين على منهجه وشريعته وأخبر أن لهم أحسن الجزاء، وأن الملائكة تتنزل عليهم مرة بعد مرة قائلين لهم: لا تخافوا من شر ينزل بكم ولا تحزنوا على خير يفوتكم، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون على ألسنة الأنبياء والمرسلين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وروى مسلم بسنده عن أبى عمرة سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحداً غيرك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» أى الزم الطاعات واجتنب المعاصى، وفى ذلك جماع الخير كله فى الدنيا والآخرة.

٤- **والتضحية فى سبيل الله** بكل ما من شأنه أن يضحى به والتضحية من مفردات التجرد لله ولدينه ودعوته، بل هى من تمام التجرد ومن شروطه، إذ لا تجرد لله ولدينه ودعوته ومنهجه إلا أن يكون مع ذلك تضحية بالوقت والجهد والمال والنفس، أو بها جميعًا.

وهذه التضحية واجب شرعى، لا يقوم الدين ولا الجهاد فى سبيل الله إلا به، وقد أوجب الله التضحية على المؤمنين فى كثير من آيات القرآن الكريم وذلك فى:

قوله تبارك وتعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

- والتضحية من أجل الدين تكون تضحية بكل غال ونفيس وبكل قرابة وعلاقة، وكيف لا تكون كذلك وهى تضحية بالنفس إن اقتضى الموقف ذلك؟ ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣]. قال ابن عباس رضى الله عنهما:

«أى يكون مشركا مثلهم، لأنه رضى بشركهم»، والرضا بالكفر كفر، كما هو مقرر عند علماء المسلمين.

وروى النسائى بسنده عن سبرة بن أبى الفاكه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة[1]، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تُسْلِم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول- وهو الحبل الذى يربط فى يد الدابة- فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد- وهو جهاد النفس والمال- فتقاتل فتنكح المرأة ويقسم المال، فعصاه فجاهد. فمن فعل ذلك كان حقا على الله أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، وإن وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة».

- فالتضحية بالنفس والمال والجهد والوقت والأهل والعشيرة والقرابة والأرحام والأرض والوطن والأصدقاء فى سبيل الله تجرد من هذه الأعراض من أجل الله تعالى ودينه ودعوته، وبغير التضحية لايكون جهاد، وبغير الجهاد لايكون عمل على أن تكون كلمة الله هى العليا، ولايكون تمكين لدين الله فى الأرض، ولا استخلاف للمؤمنين فيها ولا تبديل لخوفهم أمنا.

٥- الصبر على المكاره

خلق الصبر من أنبل أخلاق المسلم وأشرفها، وجزاء الصبر عند الله أوفى جزاء، فإنه سبحانه يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب وهو من أهم أخلاق المتجرد لله ولدينه ودعوته. قال الإمام أحمد بن حنبل: الصبر فى القرآن فى نحو تسعين موضعا، وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان لأن الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر.

ولهذا قال العلماء: إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فلا إيمان لمن لاصبر له، لما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

وروى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال:

١- أطرِقَة: جمع طريق وهو من جموع القلة.

قال رسول الله ﷺ : « . . . ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاءً خيرا وأوسع من الصبر » .

وروى مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

* ولا تجرد لله ولدينه ودعوته دون صبر، فإن من تجرد لله ناله من البلاء والمحنة فى سبيل الله ماينال المتجردين فلابد له من الصبر.

– ولقد صبر رسول الله ﷺ وصبر أصحابه فى مكة على أهوال من التضييق والتعذيب والمحاصرة والسجن حتى إن المشركين كتبوا بذلك وثيقة ظلم أودعوها جوف الكعبة.

– والصبر على هذه المكاره وأمثالها فى سبيل الله هو من أعلى درجات التجرد لله ولدعوته، والثبات على الحق حتى يأذن الله بالنصر من أعلى درجات التجرد أيضاً.

– وعندما قال المشركون عن رسول الله ﷺ قولا منكرا وباطلا فاتهموه بالسحر والجنون والتلقى عن بعض الكهان، والكذب ونحو ذلك من الزور والبهتان، أنزل الله تعالى عليه: ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا** ﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

وطالب الله تعالى رسوله ﷺ بالثبات على الحق والصبر حتى يحكم الله بينه وبين المشركين فينصر الحق ويخذل الباطل فأنزل عليه: ﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [يونس: ١٠٩] بل طالب الله المؤمنين بأن يصبروا على مفارقة الأوطان ومافيها من أهل وعشيرة ومال، ووعدهم على ذلك بالأجر العظيم، فقال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر: ١٠].

– وبين الله تعالى لرسوله وللمؤمنين أن الصبر على مكاره الدعوة ومشاقها من سنة الله تعالى فى الأنبياء والمرسلين عموما وفى أولى العزم منهم خصوصا، وطمأنهم على أن الدائرة سوف تدور على هؤلاء الفاسقين، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ**

الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

– وطلب الله تعالى من رسوله ﷺ ومن المؤمنين معه، الصبر على أذى المشركين، كما طالب الرسول ﷺ ألا يحمله أذى المشركين على أن يقلق أو يفقد الصبر ووعده بالنصر فى قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠] .

بل طالبهم بالصبر على عبادتهم، وجهاد أهوائهم التى قد تصرفهم عن الصبر فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

وروى البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

وبعـــــد :

فقد اتضح لنا من خلال ما قدمنا فى مفردات التجرد أن رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم قد تجردوا لله ولدينه ولدعوته، وأن تجردهم أخذ أنماطا عملية مثل :

استغنائهم بالله عن كل ما سواه ومن سواه،

واستعانتهم به فى كل أمورهم مع أخذهم بالأسباب،

واستقامتهم على الحق وعلى الطريق المستقيم،

وتضحيتهم فى سبيل الله بجهودهم وأوقاتهم وأموالهم وأنفسهم وعشائرهم وأوطانهم،

وصبرهم على ما نالهم من المكاره فى سبيل الله تعالى وفى سبيل دينه ودعوته .

● وذلك هو معنى التجرد الذى أراده الإمام البنا فى كلمته الوجيزة عن التجرد .

وقد ضرب هو والرعيل الأول ممن وقفوا معه فى التجرد أروع الأمثال، وقدموا التضحيات التى بلغت حد التضحية بالنفس فى سبيل الله فى معركة فلسطين عام ١٩٤٨م ضد اليهود، وضحوا فيها بأوطانهم وأهلهم وعشائرهم وأموالهم، فقد كانت حكومة الظلم

التابعة للإنجليز قد اعتقلتهم عقب عودتهم بل فى طريق عودتهم من فلسطين بعد أن دوخوا اليهود وخلصوا إحدى كتائب الجيش المصرى من حصار اليهود لتلك الكتيبة فى «الفالوجا»(١).

وضحى الذين آمنوا مع الإمام البنا بأنفسهم - بعد استشهاده - إذ ذهبوا إلى قناة السويس عام ١٩٥١م لمقاومة الاستعمار الإنجليزى وإجباره على الرحيل من أرض مصر.

(١) من المفارقات أن هذه الكتيبة المحاصرة من الجيش المصرى كان فيها جمال عبد الناصر، فخلصه الإخوان من حصاره وأسره فكان جزاؤهم ما هو معروف من تصديه للجماعة وإصدار قرار بحلها مرة أخرى واتهامهم بكل باطل من التهم!!!

الفصل الثانى :

خصائص الفكرة الإسلامية التى تجرد لها المسلمون

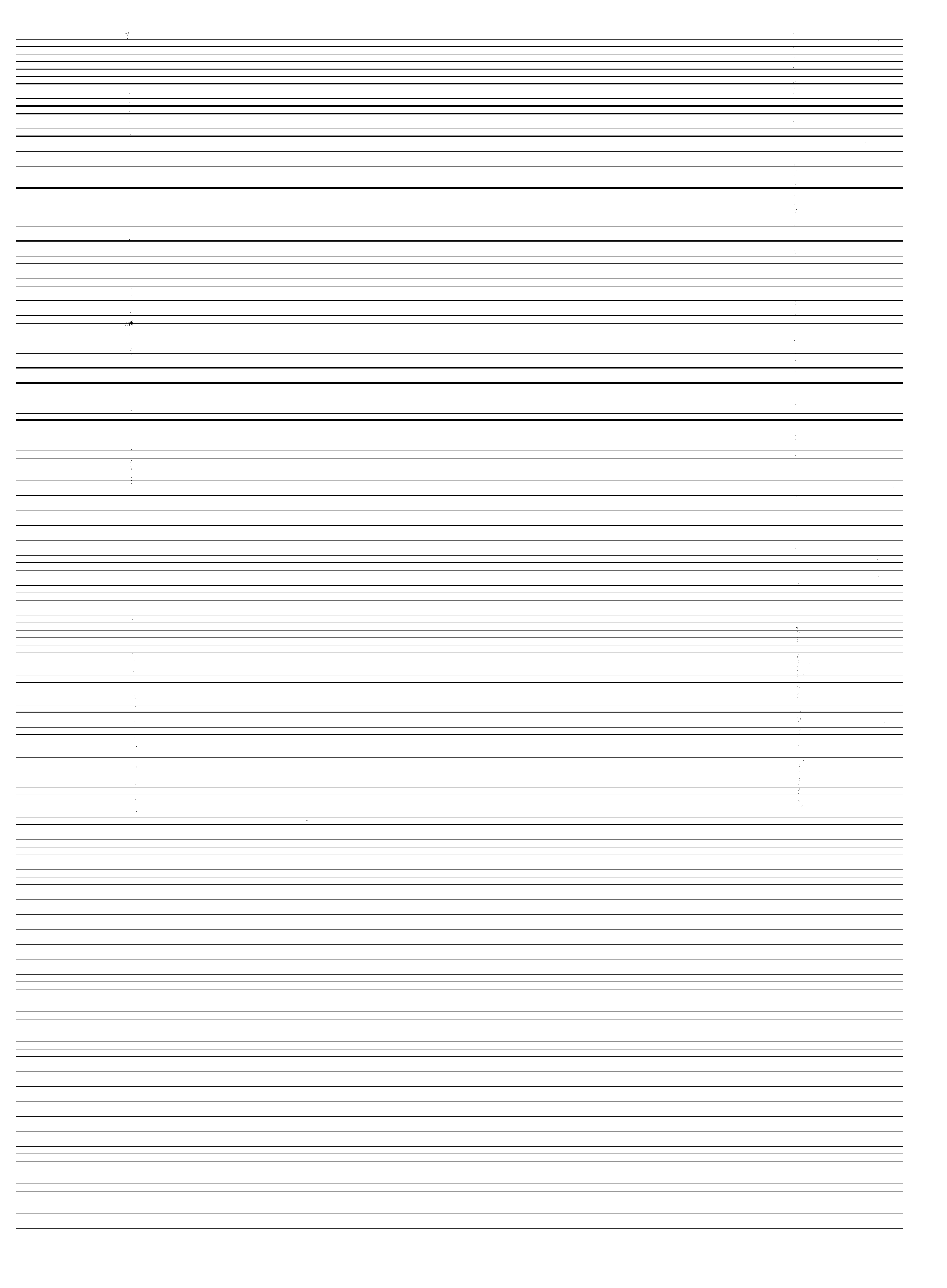
ويشمل :

أولا : الولاء والبراء .

ثانيا : السمو والرفعة .

ثالثا : التميز والإنفراد .

رابعًا : الواقعية ومواكبة المتغيرات .



خصائص الفكرة الإسلامية

الفكرة الإسلامية عند الإمام حسن البنا رحمه الله هي: الدين الإسلامي كله؛ عقيدة وعبادة، وخلقا وسلوكا، وتشريعا ونظاما ودعوة وحركة وتربية وجهاداً، وعملا متواصلا من أجل التمكين لدين الله في الأرض.

هذا المفهوم للفكرة الإسلامية تدل عليه الرسائل التي كتبها الإمام البنا في مجموعها، وتدل عليها رسالة بعينها هي رسالة التعاليم.

ورسائل الإمام التي تدل في مجموعها على كل ما للفكرة الإسلامية من خصائص ومميزات هي:

١ - رسالة: عقيدتنا.

٢ - ورسالة: دعوتنا.

٣ - ورسالة: إلى أي شيء ندعو الناس.

٤ - ورسالة: نحو النور.

٥ - ورسالة إلى الشباب.

٦ - ورسالة: مؤتمر طلاب «الإخوان المسلمون».

٧ - ورسالة: الإخوان المسلمون تحت راية القرآن.

٨ - ورسالة: المنهج الثقافي.

٩ - ورسالة: دعوتنا في طور جديد.

١٠ - ورسالة: بين الأمس واليوم.

١١ - ورسالة: المؤتمر الخامس.

١٢ - ورسالة: هل نحن قوم عمليون.

١٣ - ورسالة: المرأة المسلمة.

١٤ – ورسالة: التعاليم، وهى التى نشرحها فى سلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا.

١٥ – ورسالة: إلى مسئولى الشعب ومراكز الجهاد والمناطق.

١٦ – ورسالة: مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى.

١٧ – ورسالة: نظام الحكم.

١٨ – ورسالة: النظام الاقتصادى.

١٩ – ورسالة: الجهاد.

٢٠ – ورسالة: نظام الأسر.

٢١ – ورسالة: العقائد.

مجموع هذه الرسائل يمثل كل ما يشتمل عليه الإسلام من منهج الإصلاح لكل جانب من جوانب حياة الإنسان، وكل جانب من جوانب حياة المجتمع كله، وهو إصلاح يحل جميع مشكلات الإنسان التى يمكن أن تقوم فى طريق تطبيق نظام الإسلام وشريعته بل كل مشكلة طارئة، لأن الأسس التى يقوم عليها الإصلاح الإسلامى ثابتة وصالحة لكل زمان ومكان.

● أما رسالة التعاليم – بوجه خاص – فهى تحدد أبعاد الفكرة الإسلامية وأركانها التى لا تكون إلا بها وهى:

– فهم الإسلام فهما صحيحا من القرآن الكريم والسنة النبوية.

– والإخلاص لله فى هذا الفهم وفى كل شىء فى حياة المسلم.

– والعمل من أجل الإسلام على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والمجتمع والأمة والدولة.

– والجهاد بكل أنواعه والتقيد بأحكامه وآدابه.

– والتضحية فى الجهاد بالمال والوقت والجهد والنفس.

– والطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر ولكل مسئول عن عمل من من أجل الإسلام.

– والثبات على هذا الدين وعلى كل حق.

– والتجرد لله ولدينه ودعوته – وهو موضوع هذه الحلقة من تلك السلسلة.

- والأخوة فى الدين التى تدعم وتقوى روابط العاملين من أجله.
- والثقة بمعنى اطمئنان الجندى إلى القائد فى كفاءته وإخلاصه.

- فالفكرة الإسلامية أو الدين الإسلامى أو الدعوة الإسلامية أو المنهج الإسلامى، كل هذه التسميات هى لمسمى واحد هو: الإسلام.

ومفردات هذا الإسلام ولبناته وأركانه من وجهة نظر إصلاحية تجديدية عند الإمام البنا هى تلك الأركان العشرة التى تضمنتها رسالة التعاليم.

- وسوف نحاول فى هذه الصفحات أن نجمل هذه الخصائص من خلال ركن التجرد وحده فى أربع نقاط هى:

- الولاء والبراء،
- والسمو والرفعة،
- والتميز والانفراد،
- والواقعية ومواكبة المتغيرات.

والله المستعان

أولا :

الولاء والبراء

لا يكون الإسلام فى قلب المؤمن وسلوكه إسلاما خالصا لله تعالى، وكاملا شاملا إلا إذا كان فيه ولاء لأولياء الله تعالى، وبراء من أعدائه أعداء دينه وأعداء المسلمين، فذلك من خصائص الفكرة الإسلامية، وإلا تميعت مواقف المسلمين ولم يتميز ولاؤهم لمن كان مع الله وعداؤهم لمن كان ضد الله تعالى.

تلك هى الخصيصة الأولى من هذه الخصائص الأربع التى نتحدث عنها من خلال ركن التجرد.

ولنلق ضوءًا على كل من الولاء والبراء.

١ - الولاء.

أ - الولاء : مفهومه ومحتواه.

الولاء هو القرب بين طرفين دون حاجز بينهما، ويستعمل فى قرب المكان، وفى قرب النَّسَب، وفى الدين وفى النصرة والصداقة والاعتقاد.

والولاية وهى من مشتقاته هى : النُّصْرة.

وولى الله هو : الذى آمن به وتوكل عليه وأطاعه والتزم بمنهجه وشريعته ظاهرا وباطنا فى كل أموره.

وبالولاء تتميز شخصية المؤمن عن سائر الناس، وذلك أنه يوالى مَنْ وَالىَ الله تبارك وتعالى، وبذلك يدخل فى المؤمنين الذين سماهم القرآن الكريم حزب الله ووصفهم بالفلاح والغَلَب.

- وقد أوجب الله تعالى على المؤمنين أن يكون ولاؤهم له ولرسوله وللمؤمنين، أوجب ذلك بطريقين :

طريق الأمر بالولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

وطريق نفى الولاء بين المؤمنين والكافرين - وهو نوع من البراء -.

● أما طريق الأمر بالولاية لله ولرسوله ففى الآيات القرآنية الكريمة التالية، وهى آيات جعلت الولاية لله ولرسوله وللمؤمنين واجبة:

– قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

[المائدة: ٥٥، ٥٦].

– وقال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٦، ١٩٧].

فالمؤمن يتخذ الله وليا فى كل شأنه، وهو بتلك الولاية ينتصر على عدوه ولا يخاف شيئا ولا يحزن على شيء فاته أو سيفوته فهو بإيمانه وتقواه له البشرى فى الدنيا والآخرة، كما يفهم ذلك من الآيات الكريمة التالية:

– قال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

– وقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

– وقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

– وقال: ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦، ١٢٧].

● وأما طريق نفى الولاء بين المؤمنين والكافرين، ففيه نوعان من النهى:

نهى عن الولاء بين شياطين الجن والإنس.

نهى عن الولاء مع الفاسقين والعصاة.

– والولاية لله تعالى ولرسوله ﷺ طاعة له وامتثال لأمره ونهيه، ونفيها عن عدوه وعدو الإنسان الشيطان، فيكون نفيها عنه معصية للشيطان واستعاذة منه.

- والولاية للمؤمنين تعنى نصرتهم وتأييدهم ونصر الحق فى كل موقف، والولاية للخير بالدعوة إليه وفعله.

فمن والى الله والاه الله ونصره على أعدائه الكافرين.

أما الآيات الكريمة التى نفت الولاء بين المؤمنين والكافرين، أو بينهم وبين الشياطين فهى كثيرة منها:

- قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠].

والضالون هم الغافلون الذين يتخذون من دون الله أولياء، متعلقين فى هذه الولاية بأوهى الأسباب، وأضعفها وأعجزها عن حمل من تعلق بها، كأنهم تعلقوا بخيوط العنكبوت، كما توضح ذلك الآية الكريمة التالية:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

- وكان صعبا على المسلمين – فى بداية أمر الإسلام – أن يمتنعوا عن اتخاذ المشركين أولياء لوثاقة العلاقة العشائرية بينهم وبين ذويهم من المشركين، ولكن الإسلام حتم عليهم ألا يتخذوهم أولياء وهم الذين كفروا وأخرجوا الرسول والمؤمنين من ديارهم وأوطانهم، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة: ١ – ٣].

- ومن اتخذ الكافرين أولياء من دون الله فقد جعل لله تعالى عليه سلطانا مبينا وحجة قوية في أن يعذبه بما عمل.

– قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤].

ومن تخفيف الله على المؤمنين أن أجاز لهم ولاية الكافر إذا كان هناك خوف محقق منه على المسلمين إذا هم جاهروا بعداوته.

– قال الله تعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ولا يستثنى من ذلك إلا مؤمن يكون مضطرا لهذه الولاية، أو لعدم المجاهرة بالعداء.

– قال تعالى: ﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

[آل عمران: ٢٨].

● ويحذر الله تعالى أشد التحذير من موالاة اليهود والنصارى لأنهم وإن كان بينهم عداوة تقليدية إلا أنهم يجتمعون ويتعاونون إذا كان عدوهم المسلمين!!!

– قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

● ولا يجوز لمسلم أن يوالى أحدا من الذين يتخذون دين الله هزوا ولعبا، واستنكارا وتكذيبا وإشاعة الباطل والأكاذيب سواء أكان هؤلاء الهازئون بالدين كفارا أو أهل كتاب، أو ضالين فاسقين من المسلمين، لأن تقوى الله – وهى الأصل لدى كل مسلم – ترفض هذه الولاية وتلفظها.

– قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٧، ٥٨].

● والأصل فى المؤمن ألا يوالى الذين يستحبون الكفر على الإيمان فإن فعل فهو من الظالمين، حتى لو كان هؤلاء آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أزواجهم وعشيرتهم، لأنه لا يجوز أن يكون أحد أو شىء أحب إلى المؤمن من الله ورسوله، فإن فعل فلينتظر عقاب الله تعالى.

– قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى

الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون (٢٣) قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

• وما دام الولاء لله وبالله فإن مجتمع المؤمنين بالله لابد أن يتميز عن غيره من المجتمعات بأن يكون الولاء بين أفراده قائما على الإيمان والهجرة فى سبيل الله والجهاد فى سبيله بالمال والنفس، وإيواء المؤمنين ونصرهم عند حاجتهم إلى ذلك، وكل تلك صفات أساسية فى المؤمنين فإن فقدت صفة من هذه الصفات اهتز الولاء بين المؤمنين، وعلى المتسبب فى ذلك إثم وحرج، لأن الكفار لا يُوالُون فهم بعضهم أولياء بعض، كما أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ومَنْ شذ عن ذلك من المؤمنين أوقع نفسه وإخوانه المؤمنين فى فتنة التفرقة، وجرَّهم إلى فساد كبير.

– قال الله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (٧٢) والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٣].

• وقد ينخدع بعض الغافلين من المسلمين، فيتصورون أنَّ ولايتهم للكافرين تعود عليهم بالعزة والمنعة أو بالمال والمنفعة، أو بالمعونات والقروض التى تخرج المسلمين الغافلين من الضيق والفقر، وكل ذلك غفلة بل وهم، فإن العزة لله جميعًا، يعطيها من شاء من عباده الطائعين الملتزمين بأمره ونهيه، ويحرمها من شاء من عباده، والمال والمنعة وكل سبب من أسباب القوة هو من عند الله يوجهه إلى من يشاء من عباده، ومن لم يؤمن بذلك من المسلمين فهو منافق أو قريب من النفاق، والمنافقون والكافرون سواء فى البعد عن الله تعالى واستحقاق غضبه وعقابه.

– قال الله تعالى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا

مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٤٠].

● هكذا أوضحت هذه الآيات الكريمة أن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين واجب شرعى من خالفه كان من المنافقين والكافرين، وما ذلك إلا لأن المجتمع المسلم يجب أن يتميز بسمات وخصائص نابعة من الدين الحق الذى جاء به محمد ﷺ وراجعة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وتلك هى الفكرة الإسلامية التى يجب أن يتجرد لها المؤمنون لأنها أسمى الفكر وأجمعها وأعلاها.

ب - عناصر الولاء.

● وللولاء عناصر أساسية تكونه وتبرز سماته وخصائصه وهى فى تصورنا سبعة عناصر - لا على سبيل الحصر - وهى:

الأول:

الإيمان بالله وحده «الوحدانية»؛ وذلك أن توحيد الله تعالى إلها وربا وخالقا ورازقا وباعثا ومحاسبا ومجازيا هو الذى يحتم أن يكون الولاء لمن كانت هذه صفاته، أو لمن جعله خاتم رسله وللدين الذى جاء به وللمؤمنين الذين جاهدوا معه، فذلك عنصر أساسى فى الولاء الصحيح.

والثانى:

إيقاظ الالتزام بالولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وذلك بالوقوف تحت راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بمعنى أن يحقق كل مسلم فى نفسه الإيمان بأركانه الست والإسلام بأركانه الخمس. وموالاة المؤمنين ليكون بذلك فى حزب الله، فيكتب الله تعالى له الفلاح والنصر. لأن حزب الله هم المفلحون وهم الغالبون.

والثالث:

الربانية بمعنى أن الولاء الحق يقتضى أن يكون التلقى عن الله تعالى رب العالمين وحده، تلقى المنهج بكل مفرداته والاعتزاز به وحده والاستمداد منه تعالى وحده، فهو المنهج الذى اختاره رب الناس للناس.

كما يقتضى الولاء الحق أن يكون التوكل على الله وحده مع الأخذ بما شرع من أسباب، وموالاة من أمر الله بموالاته ومعاداة من أمر بمعاداته من الناس والمبادئ والنظم.

كما تقتضى الربانية اليقين بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه لا يشاركه في هذه الربوبية غيره من معبود أو منهج أو نظام، بل هو سبحانه رب هذا العالم كله، ورب العوالم الأخرى التي لم تكتشف بعد فهو سبحانه رب العالمين وليس العالم وحده.

والرابع:

الإنسانية بمعنى أن الإنسانية كلها مشمولة برعاية الله ورحمته بتوجيه الدعوة الإسلامية إليها جميعا بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، لنقلها من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى ومن القلق والاضطراب إلى الاطمئنان والأمن، وذلك من منطلق أن الله تعالى كرَّم الإنسان وأعلى منزلته على كثير من مخلوقاته وجعل له حرمة كبيرة، إذ حرَّم العدوان على نفسه أو ماله أو عرضه أو فكره أو حريته وحقوقه كلها.

والعنصر الخامس:

إحياء الجهاد في سبيل الله لإزالة العوائق التي يضعها بعض الناس في طريق الوحدانية أو الإيمان والإسلام والدعوة إلى الحق، إذ لا ولاء لله ولا لرسوله ولا لمنهجه ولا للمؤمنين إذا لم تُزَل العوائق من طريق ذلك كله.

ولذلك كان المسلمون في أى عصر من عصورهم ضعافا ومطمعًا لأعدائهم كلما تخلوا عن الجهاد أو عطلوه.

والسادس:

إيثار الحق على الخلق، لأن الولاء لا يكون ولاء لله ولرسوله ولمنهجه إلا إذا كانت كلمة الله هى العليا، وكان الحق وإحقاق الحق شغل المؤمنين الشاغل وعملهم الدائب، مهما كانت التضحيات في سبيله.

والسابع:

موالاة من والى الله ورسوله ومنهجه والمؤمنين، ونصره وتأييده ومؤاخاته في الله، والتعاون معه على البر والتقوى حتى تكون كلمة الله هى العليا.

وبعـــد:

فهذه العناصر السبعة للولاء هى التي تجعله ولاء خالصا لله ولرسوله وللمؤمنين وتكتب لأهله النصر والتأييد من الله رب العالمين وتدل على تجردهم لهذه الفكرة الإسلامية.

٢ - البراء

أ - البراء : مفهومه ومحتواه.

البراء والبراءة والتبرؤ هو: انقطاع العصمة والصلة بين طرفين بحيث لا تصبح بينهما علاقة.

والبراءة: رفع التبعة.

والبراءة: الخروج والتَّفَصِّي مما يتعب ويكره مجاورته.

والبراءة: الإعذار والإنذار كما في قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

- وقد أوجب الله تعالى على المؤمنين البراء والبراءة من الكفر والكفار والشياطين، وكل عناصر الشر من الإنس والجن.

كما أوجب الله على عباده البراءة من المعاصي، ومن كل ما حرم الله تعالى أو نهى عنه.

- ومن لم يتبرأ من ذلك كله ففي إيمانه نقص أو ضعف، ولا يصلح إيمانه أو يكتمل إلا بالبراء مما أوجب الله تعالى البراء منه.

- وهذا البراء من هذه الأمور هو مما يميز المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات، ويجعل له شخصية إيمانية يعرف بها، ويهيىء له من الصفات والخصائص ما يجعله أهلا لرضا الله تبارك وتعالى، وعرضة لرحمته وتأييده ونصره؛ وذلك أن هذا البراء هو الذى أوجبه الدين والمنهج الإسلامي، ذلك الدين الذى فرّق بين الإيمان والكفر تفريقا حاسما حادًّا، وفرّق بين عبادة الله وحده لا شريك له وبين اتخاذ معبودات من دونه من مخلوقات أو هوى وشهوة، وفرّق بين الطاعة لله ولرسوله والمعصية.

وفرّق بين أتباع هذا المنهج وأولئك الذين يناصبونه العداء أو يتهمونه بالرجعية والانعزالية، وما إلى ذلك مما يَهْرِف به الحمقى ومن أعمى الله بصائرهم عن الحقيقة وعيونهم عن الحق.

- وبغير هذا البراء لا يستطيع المجتمع المسلم أن يعرف من يوالى ومن يعادى، ولا أن يميز بين مخلص له فى التعامل معه وبين منافق عليم اللسان يزوق الكلام ويزور المواقف، بل لا يستطيع أن يعرف من الذين يمكن التعايش مع فى ظل معاهدة أو ميثاق يوفى بها من

يوفى ويغدر بها ويخونها من يغدر ويخون، بل لا يعرف – بغير هذا البراء الذى حدد الله تعالى له بمن يكون – مع من يبيع ويشترى وتكون له بهم علاقات اقتصادية، لأن التمييز بين هؤلاء وأولئك ضرورى ليتم هذا التعامل دون غش أو غرر أو خداع، ودون الوقوع فى حمأة الربا والقروض المذلة المهينة المشروطة، الفاحش رباها، المؤدية فى النهاية إلى كوارث اقتصادية واجتماعية وسياسية.

● فلقد أوضحت آيات القرآن الكريم وجوب التبرؤ من كل ماحرم الله تعالى، وأعلنت عن هذه المحرمات منذ زمن باكر من نزول هذه الآيات الكريمة فى مكة المكرمة.

– قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وتلك أمهات الجرائم والآثام وعنها تتفرع كل جريمة أو إثم أو معصية لله تعالى.

ثم فصل لهم المنهج بعد ذلك هذه المحرمات التى يجب التبرؤ منها ومن فاعليها فى آيات عديدة من القرآن الكريم، ومنها:

–قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[الأنعام ١٥١– ١٥٣].

كل هذه الجرائم الكبرى يجب التبرؤ منها وهى عشر فى هذه الآيات يتفرع عنها كثير من الجرائم، وهى:

– الشرك بالله.

– وعقوق الوالدين.

– وقتل الأولاد من الفقر.

– وإتيان الفواحش ماظهر منها ومابطن.

– وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

–وأكل مال اليتيم إلا بالتى أحسن.

– وتطفيف الكيل وإخسار الميزان.

– وممارسة الجور فى القول أو فى الفعل.

– ونقض العهود والمواثيق.

– وعدم اتباع منهج الله وصراطه المستقيم باتباع غيره من المناهج.

طلب الله من المؤمنين التبرؤ من هذه الجرائم إن كانوا يعقلون أو يتذكرون أو يتقون، ومعنى ذلك أن من أتى شيئًا من هذه الأشياء فليس عاقلا، وليس مستفيدا من تجارب الأمم وليس متقيا لله تعالى.

● ومنذ زمن مبكر من تاريخ الدعوة الإسلامية أعلن رسول الله ﷺ براءته من الشرك والمشركين وهو فى مكة:

– قال الله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام: ١٩]

● ومن قبل محمد ﷺ أعلن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام البراءة من الشرك والكفر، باعتناقه التوحيد، بل جعل التوحيد « لا إله إلا الله » كلمة باقية فى ذريته إلى يوم القيامة– وتلك سنة كل نبى من عند الله بل هى من علامة صدقه فى نبوته وفى تلقيه عن الله تعالى.

– قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦–٢٨].

وقد استدل العلماء بهذه الآية الكريمة على بطلان التقليد وفساده، لأن إبراهيم عليه السلام أعلن البراءة مما كان يعبد أبوه وقومه وقد جرت عادة الناس على تقليد الآباء والأجداد، ولكن إبراهيم عليه السلام رفض هذا التقليد، وتبرأ مما كان يعبد أبوه وقومه. وتبرأ من الشرك وانحاز إلى الإيمان بالله وحده « لا إله إلا الله » وجعل هذه الميزة ميراثا لذريته من بعده، فكان الأمر كذلك إلى يوم الدين حيث لن يخلو الأرض– مهما طمّ

الإلحاد- من موحدين يشهدون أن لا إله إلا الله، ويتبرؤون من أى معبودات غيره سبحانه وتعالى.

● وقد نبه الله تعالى على حقيقة هامة فى قضية الذين يتخذون من دون الله أندادا فيظلمون بذلك أنفسهم، ويظلمهم الذين أغروهم على هذا الباطل، وعندئذ تتكشف الحقائق، فيتبرأ الذين اتبعوا وكانوا قادة وموجهين إلى الضلال من الذين اتبعوهم، وعند تكشف الحقائق يقول الذين خدعوا فاتخذوا من دون الله أنداداً: لو أن لنا عودة إلى الحياة الدنيا لنتبرأ من هؤلاء القادة المضللين كما تبرأوا هم منا بين يدى الله عز وجل، ولكن لافرصة لذلك فالكل بين يدى الله يوم القيامة، وما هى إلا حسرة الذين اتخذوا من دون الله أندادا، وماهى إلا نار يدخلونها لايخرجون منها أبدا.

-قال الله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

● وأوضح مايكون البراء من الشرك والمشركين فى آيات سورة الممتحنة فقد ورد فى هذه الآيات وجوب البراءة من الكفار أعداء الله وأعداء المسلمين أربع مرات.

الأولى: فى النهى عن اتخاذهم أولياء فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...**﴾ [الممتحنة: ١] أى لابد أن تتبرأوا منهم.

والثانية: فى النهى عن اتخاذهم أولياء حتى لو كانوا من أرحامهم وأولادهم..: ﴿**لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ...**﴾ [الممتحنة: ٣] أى تبرأوا منهم على الرغم من القرابة التى تجمعكم بهم.

والثالثة: وجوب الاقتداء بإبراهيم عليه السلام فى التبرؤ من قومه ومما يعبدونه: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ...**﴾ [الممتحنة: ٤]. أى يجب أن تكون لكم به أسوة فى هذا التبرؤ.

والرابعة: النهى عن ولاية هؤلاء الكفار، والتهديد بأن من يتولاهم فهو من الظالمين: ﴿**إِنَّمَا**

يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٩].

فهذه الآية الكريمة تقطع بأن صلة المسلمين بالمشركين غير جائزة وفي هذا رد على المسلمين الذين يقولون بأن هذه الصلة بالمشركين جائزة.

وهذا التبرؤ من المشركين له في الآية الكريمة مبرراته بالإضافة إلى أنه نهي من الله واجب الامتثال مطلقا، وهذه المبررات هي :

- أن المشركين قاتلوا المسلمين على دينهم.
- وأنهم أخرجوهم من ديارهم.
- وأنهم عاونوا على إخراجهم من ديارهم.

ولهذا وجب التبرؤ منهم.

– وقال الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾

- والأسوة بإبراهيم عليه السلام في هذه الآية يجب أن تكون في أمور عدة هي :

– إعلان البراء من قومهم الكفار ومما يعبدون.

– وإعلان كفرهم بهم.

–وإظهار العداوة لهم.

– وإظهار بغضهم إياهم.

– والاستمرار في التبرؤ منهم وعداوتهم وبغضهم حتى يؤمنوا بالله وحده.

– وقال تعالى :﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ١ – ٣].

● وفى هذه الآيات الكريمة جاء الأمر بالبراءة من المشركين مباشرا من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، والبراءة من المشركين فى هذه الآيات تعنى قطع مابينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، مع إعطاء المشركين فرصة أربعة أشهر حتى لايؤخذوا على غرة، فهذا ليس بجائز فى الإسلام، فللمشركين أن يسيروا فى الأرض آمنين أربعة أشهر لايُخَوَّفون ولايفزعون.

وهذه البراءة من المشركين هدفها تحيز المجتمع المسلم وتميزه عن المجتمعات الأخرى، أهل الكتاب والمشركين وكل من لم يدخلوا فى الإسلام وإعلامهم بأحكام خاصة أعلنها على بن أبى طالب - رضى الله عنه - يوم الحج الأكبر يوم عرفة سنة تسع من الهجرة يوم كان أبو بكر رضى الله عنه أميرا على الناس فى الحج- فأرسل رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ليقرأ على الناس هذا البيان.

وقد تضمن هذا البيان أحكاما كثيرة رسمت كل معالم الطريق فى علاقة المسلمين بغيرهم من الناس(١)

- وقال الله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

● والمعنى هو: وجوب التبرؤ من ود أعداء الله الذين يحادون الله ورسوله، وذلك أن الإيمان لايجتمع فى قلب مؤمن مع مودة أعداء الله، لأن من آمن بالله وأحبه وجب عليه أن يعادى عدوه.

وقال بعض المفسرين فى هذه الآية:

لايجتمع الإيمان مع ود أعداء الله فى القلب، فإن حصل أحدهما زال الآخر، أى أن من جمع هذا وذاك فهو كافر.

وقال بعضهم: إذا حدث أن اجتمع الإيمان مع مودة أعداء الله فذلك من الكبائر التى

---

(١) سوف نفصل هذا فى الحلقة السابعة من سلسلة التربية فى القرآن الكريم وهى: التربية الإسلامية فى سورة التوبة. إذا أذن الله.

يستحق صاحبها العقاب الأخروى ولكنه ليس بكافر.

وقال جمهور العلماء: أجمعت الأمة على أنه لايجوز مخالطتهم ومعاشرتهم، فما هذه المودة المحظورة؟

وقد أجاب الفخر الرازى عن هذا التساؤل قائلا:

المودة المحظورة هي إرادة منافعه دينا ودنيا مع كونه كافرا، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه.

﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾، قال ابن عباس رضى الله عنهما: نزلت فى أبى عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، وعمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وأبى بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، فقال النبى ﷺ له: «متعنا بنفسك» ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير، وعلى بن أبى طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عقبة يوم بدر، فأخبر الله تعالى أن هؤلاء لم يوادوا أقاربهم وعشائرهم غضبا لله تعالى.

وهذا القتل لهؤلاء الاقارب أعظم التبرؤ منهم.

ب- عناصر البراء

وللبراء عناصر أساسية تكونه وتبرز سماته وخصائصه وهى فى تصورنا سبعة، لا على سبيل الحصر أيضاً-، وهي:

الأول:

التبرؤ من كل مايناقض التوحيد ويعارضه من معبودات باطلة، ومن التوكل على غير الله أو الاستعانة به، والتبرؤ من كل رأى أو قول، ينكر أن الله تعالى هو الخالق الرازق الباعث المحاسب المجازى على الخير خيرا وعلى الشر بمثله، ومن كل آراء المضللين المزورين الذين ينكرون نبوة محمد ﷺ أو ينكرون أن منهجه أكمل المناهج وأتمها وأرضاها لله تعالى.

والثاني:

التبرؤ من كل عصبية للقوم أو الجنس أو الأرض أو القبيلة أو العشيرة، التبرؤ من ذلك كله إذا كان بديلا للانتماء إلى الإسلام، فإن كان دعما لهذا الانتماء فلا بأس به فى ضوء

الشروط العامة للقيم الخلقية فى الإسلام.

والثالث:

التبرؤ من الشرور والآثام والمعاصى وكل ما يغضب الله تعالى من الأقوال والأعمال، والاتصاف بصفات حظر الإسلام الاتصاف بها كالكبائر من ظلم وتكبر ونفاق وكذب، وإتيان شيء من الفواحش ماظهر منها وما بطن.

والرابع:

التبرؤ من أعوان الباطل والمشجعين عليه والمزينين له، فهذا الباطل وأعوانه يجب الكفر به وبهم، لأن الرسالة الخاتمة جاءت بالحق وبإزهاق الباطل ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١] والباطل هو مطلب الذين كفروا والحق هو مطلب المؤمنين، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ** ﴾ [محمد: ٣].

والخامس:

التبرؤ من العناد والتعصب للرأى والهوى، أى غرور الإنسان وتصوره أنه على الحق وأن غيره على الباطل، وتمسكه برأيه مع رفض الرأى الآخر، أو عدم الاستماع إليه أيا كان هذا الرأى الآخر، لأن فى ذلك تعطيلا للشورى ورفضا للتشاور، وتضييعا لكثير من المنافع الدينية والدنيوية، وهؤلاء الذين يغرون فى أنفسهم وفيما يرون يفسدون، وما للمسلم يتبع هواه والله تبارك وتعالى يقول لرسوله ﷺ ولكل مسلم: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٨].

والسادس:

التبرؤ من التعنت والتشدد فى الدين أو الغلو فيه، لأن هذا الدين يسر لاعسر فيه ولاحرج، والذين يضيقون على الناس فى معاشهم حمقى وغافلون عن جوهر الدين وحقيقته، فقد أنكر الله تعالى على الذين يضيقون على عباد الله ما أحل لهم أياً كان دافعهم إلى هذا التضييق .فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ**

الرِزْقِ..﴾ [الأعراف: ٣٢].

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا..» الحديث

والسابع:

التبرؤ من اليأس من روح الله أو فقد الأمل فى نصره وتأييده مهما اشتدت المحن على المسلمين وضيق عليهم أعداؤهم، فالله تعالى يقول: ﴿ **وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف: ٨٧]، ويقول ﴿ ... **لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**... ﴾ [الزمر: ٥٣].

وبعد:

فهذه العناصر السبعة التى ذكرنا للبراء هى التى تجعله خالصا لله تعالى، دالا على التجرد لهذه الفكرة الإسلامية.

ثانياً: سمو المبادىء وإنسانيتها

من خصائص الفكرة الإسلامية التى تجرد لها المخلصون من المسلمين بالولاء لها والبراء مما سواها ومن أعدائها، أنها فكرة سامية تقوم على مبادئ إنسانية رفيعة المستوى، وأن هذه المبادئ إنما كانت كذلك لأنها من عند الله تبارك وتعالى وليست من وضع فرد أو جماعة من الناس، لأن من يضعون المبادئ من البشر لايمكن تجردهم من الأهواء الشخصية أو القبلية أو العرقية أو الإقليمية بحكم بشريتهم وعجزهم عن إقرار العدل المطلق فيما بينهم.

أما أن يكون واضع هذه المبادئ هو الله تعالى، فإن الخلق جميعا عباده، بل أحبابه لايميز بينهم بلون أو إقليم أو جنس فهو سبحانه الذى خلقهم وأعطاهم الخصائص التى ميزت بينهم فى اللون والشكل والإقليم.

والله تبارك وتعالى لايصدر منه إلا العدل المطلق والحق المطلق الخاليان من أى غرض من الأغراض أو مجاملة أو محاباة لأحد من خلقه أو قبيل منهم.

- والناس كل الناس يتوقع منهم اتباع الهوى حتى وهم يزعمون العدل والمساواة والحرية والإخاء وتقدير حقوق الإنسان، ولأضرب على ذلك مثلين اثنين:

أولهما:

عصبة الأمم التى أنشئت عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) وكانت هذه الحرب بسبب اغتيال «الأرشيدوق فرانسير فرديناندو» ولى عهد النمسا، بيد صربى فى سرايبفو فى ٢٨/٦/١٩١٤م.

فقامت بذلك الحرب بين الحلفاء وهم: «انجلترا وفرنسا وروسيا وبلجيكا وصربيا والجبل الأسود واليابان ثم انضمت إليهم إيطاليا وبلغاريا»، ضد «النمسا وألمانيا والمجر والامبراطورية العثمانية» وبعد هذه الحرب أنشئت عصبة الأمم التى أعلنت مبادئ غالية براقة ظاهرها العدل ولكن جوهرها لم يمنع من النكوص من هذا العدل والدخول فى حرب عالمية ثانية سنة ١٩٣٩م استمرت إلى سنة ١٩٤٥م.

● وأحب هنا أن أشير إلى مجمل المبادئ التى أعلنتها عصبة الأمم، لأؤكد أنها لم ترع العدل المطلق ولا الحق المطلق وإنما حابت الدول الأعضاء فى العصبة، وهذه المبادئ هى:

١ – تعهد الدول الأعضاء – وكان عددهم عند إنشائها ثمانية وعشرين عضوا ثم انضم إليهم ما وصل بعددهم إلى أكثر من ستين عضوا – باحترام استقلال وسلامة أراضى كل منها والمحافظة عليها ضد أى اعتداء.

٢ – وعدم الالتجاء إلى الحرب لفض أى نزاع قبل عرض موضوع النزاع على التحكيم، أو مجلس العصبة.

٣ – وإقرار الأعضاء بخفض التسلح الوطنى إلى الحد الادنى الذى يتفق مع الأمن القومى.

٤ – وللعصبة مجلس من تسعة أعضاء؛ خمسة منهم دائمون هم الدول الحليفة وهى: انجلترا وفرنسا وروسيا وبلجيكا، وصربيا والجبل الأسود.

ثم فُصلت روسيا من العصبة سنة ١٩٣٩م.

وكان لهؤلاء الأعضاء الدائمين امتيازات على سائر الأعضاء!! ثم أصبح أعضاء المجلس خمسة عشر عضوا، منهم ستة دائمون لهم نفس الامتيازات على الأعضاء!!!

٥ – وإنشاء نظام الانتداب لتطبيقه على البلاد التى انتزعت من ألمانيا وتركيا عقب الحرب العالمية الأولى، وهذا النظام كان ستارا – كما قال بذلك الشرَّاح الغربيون أنفسهم – يخفى رغبة الحلفاء فى السيطرة على تلك الأقاليم، وأخذ خيراتها.

● وهذه المبادئ مجافية للعدل بمحاباتها للدول الأعضاء الدائمين فيها، وإقرارها نظام الانتداب، وبأن الستة الأعضاء الدائمين فيها لم يلتزموا بموضوع خفض التسلح التزاما حقيقيا!!!

وثانيهما: هيئة الأمم المتحدة:

● ثم كانت هيئة الأمم المتحدة التى أنشئت عقب الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ – ١٩٤٥م، لتحل محل عصبة الأمم، وشاركت فيها أمريكا – التى لم تشارك فى عصبة الأمم لأنها لم تصدق على معاهدة فرساى للصلح – فى الحرب العالمية الأولى –.

ووضعت مبادئ هيئة الأمم المتحدة فى فبراير ١٩٤٥م، ثم عدلت فى ٢٤/١٠/١٩٤٥م وأقرت فى ذلك اليوم وكان منها مما يطعن فى عدالتها ومساواتها بين الأعضاء:

- تمييز المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى سابقا أو روسيا الآن، وفرنسا والصين بما يعرف بحق «الفيتو» أى الاعتراض على أى قرار يصدره مجلس الأمن واعتباره كأن لم يكن!!!

- والمساواة بين الأعضاء حبر على ورق فى ظل حق «الفيتو».

- وفض النزاعات بين الدول بالوسائل السلمية والامتناع عن التهديد بالقوة أو استخدامها ضد الاستقلال السياسى. أين هذا من عربدة إسرائيل فى العالم العربى تحميها أمريكا والغرب؟

وأين ذلك من ممارسة الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا والاتحاد السوفيتى سابقا من العدوان على أى بلد لها فيه مطمع أو خرج على سياستها؟ - كما حدث فى فيتنام والفوكلاند وأوربا الشرقية عموما والمجر وبولندا خصوصا والجزائر والصومال والسودان وما لا أحصى من الدول الأعضاء التى وقع عليها عدوان مباشر من هذه الدول الكبرى!!!

وأين عدم التدخل فى الشئون الداخلية لدولة ما، من تدبير الانقلابات العسكرية، واعتقال بعض رؤساء الدول وشحنهم إلى أمريكا ومحاكمتهم فيها.

وأين ذلك من الحصار الجوى المفروض على العراق وليبيا؟

● ولقد بلغ عدد مبادئ هيئة الأمم المتحدة مائة وأحد عشر مبدأ تضمنتها مائة وإحدى عشرة مادة، كلها لا وزن له ولا قيمة أمام حق «الفيتو» وأمام تحيز أمريكا لإسرائيل، وضرب هذه المبادئ فى الصميم.

وأين الادعاء برعاية حقوق الإنسان بجانب ما تقوم به إسرائيل والموساد والمخابرات الأمريكية من جرائم فى حق الإنسان تصل إلى حد تكسير عظامه، وإبادته بالجراثيم والكيماويات؟.

إنها أكذوبة القرن العشرين لا نملك إزاءها إلا ازدراء المتشدقين بحق «الفيتو» والساكتين

على هذه التفرقة، والدهشة من تبجح الولايات المتحدة الامريكية من اتهام بعض الدول بأنها لا ترعى حقوق الإنسان، أو أنها ترعى الإرهاب!!!

أما المبادئ التى جاءت بها الفكرة الإسلامية، فإنها جميعا فوق الشبهات، وتخلو تماما من تمييز أى جنس أو عرق أو لون على غيره.

ونحاول فى هذه الصفحات أن نحصر كلامنا فى موضوعين هما:

- المبادئ العامة التى تقوم عليها الفكرة الإسلامية.
- وتكوين الدولة المسلمة التى تحترم هذه المبادئ.

الموضـــوع الأول

المبادئ العامة التى تقوم عليها الفكرة الإسلامية

هذه المبادئ العامة هى من خصائص الفكرة الإسلامية التى تميزها عن كل فكرة غيرها وكل نظام سواها، وذلك من معانى التجرد لهذه الفكرة الإسلامية.

ومبادئ هذه الفكرة فى عمومها مبادئ إنسانية نبيلة يعيش الناس الآخذون بها فى أمن وسعادة ورخاء، وكرامة فى الدنيا، وثواب عظيم فى الآخرة.

هذه المبادئ العامة فى كلمات هى:

الإيمان، والإسلام، والتقوى، والإحسان، وهذه المبادئ الأربعة متماسكة متعاقبة يفضى بعضها إلى بعض، ولا يغنى بعضها عن بعض.

ثم الشورى، والعدل، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذه الثلاثة لازمة لبناء مجتمع صالح وثيق الصلة بمن يحكمه أو يلى عليه أى ولاية. وتلك من السياسة الداخلية للدولة المسلمة.

ثم الدعوة إلى الله والحركة بالإسلام فى الناس والآفاق، والجهاد فى سبيل الله، ومحاولة إصلاح العالم كله، وتلك من السياسة الخارجية للدولة المسلمة.

وهذه المبادئ العشرة – دون حصر – من أرسخ المبادئ وأعمها وأنفعها بين كل المبادئ التى قامت عليها الفكرة الإسلامية، وهى المبادئ التى يجب أن يتجرد لها المسلمون ليحققوها نظريا ويطبقوها عمليا، حتى لو كلفهم ذلك أموالهم وأوقاتهم وكل جهودهم، بل لو كلفهم أنفسهم، وهذا من معانى التجرد أيضا.

● وهذه المبادئ معروفة للمسلمين جميعا بحيث لا تحتاج منا إلى تفصيل أو تحليل، وإنما إشارات إجمالية تركز على أهداف هذه المبادئ وأغراضها.

١ - الإيمان :

وهو صلب الدين كله، وأساس الحياة الإسلامية بكل شعبها وهو فى كلمات أو إشارات :

- الإقرار بتوحيد الله تبارك وتعالى إلها وربا وخالقا، والإيمان برسالة محمد ﷺ، وتحقيق ذلك ورسوخه فى القلب، مع الإيمان بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

- وهذا الإيمان يعنى أمورا هامة منها : اليقين بان الإنسان وما يملك، وما يرى من ناس وأشياء فى العالم كله ملك حقيقى لله تعالى، وليس ما فى أيدى الناس إلا عارية مستردة يجب أن يتقى الله فيها.

- واليقين بان الله هو المعبود الذى تجب طاعته لأن له الأمر والنهى، وأن فى طاعته الهدى والخير والفلاح.

- والرضا بما يرضى الله تبارك وتعالى، والسخط على ما يسخطه عز وجل.

- واليقين بأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تبارك وتعالى فيما أمر وفيما نهى.

ولا إيمان إلا بهذه الأمور، وأن هذا الإيمان على ذلك النحو يزيد بالطاعات لله ولرسوله، وينقص بالمعاصى والآثام والمخالفة لله ورسوله ﷺ.

٢ - والإسلام :

يعنى تطبيق مبادئ الإيمان وإخراجها إلى حيز الوجود الخارجى ويعبر عن ذلك بأركان الإسلام المعروفة لكل مسلم.

وهى : النطق والعمل بمقتضى «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

● وكل تقصير فى ركن من هذه الأركان يعنى زعزعة الإيمان ونقصه، بل هدمه والقضاء عليه إن حدث إصرار على تعطيل الأركان.

● وهناك تلازم بين الإيمان والإسلام بالنسبة لرضا الله تبارك وتعالى والحصول على ثوابه

وجنته، فلا إيمان بغير إسلام، ولا إسلام بغير إيمان، ولا يرضى الله تعالى إلا بهما معا.

ووردت فى السنة معان كثيرة للإسلام لكنها فى مجموعها لا تخرج عن هذه الأسس والمبادئ العامة، كما ورد أن الإسلام بنى على أربعة أركان: الصبر واليقين والجهاد والعدل.

وورد أن الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والعمرة سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له فى الإسلام.

٣ - والتقوى:

وهى خشيةُ المؤمِن المسلم اللهَ تبارك وتعالى، وشعوره بأنه مسئول بين يدى الله عن كل ما قدم فى الدنيا من قول أو عمل، وهذه التقوى وإن كان محلها القلب لكن تظهر آثارها على الجوارح، وتضفى على صاحبها بهاءً وقبولا عند المؤمنين.

– ومن التقوى لله أن يجعل الإنسان نفسه وماله وجهده ووقته فيما أمر الله به أو ندب إليه – أى حبب فيه –.

– والتقوى تعنى أن يكون تعامل الإنسان مع نفسه ومع ربه ومع الناس نابعا من خشيته لله تعالى، والتزامه بأمره ونهيه.

– ومن التقوى لله أن يكف الإنسان نفسه عن الوقوع فى الشبهات فضلا عن المنكرات والمحرمات، واضعا فى عقله وقلبه وسلوكه وجوب المحافظة على حدودِ الله وحقوقه وكلماته وجميع خلقه.

– ومن التقوى أن يدع الإنسان ما لا بأس به حذراً لما به بأس أى يترك بإرادته بعض المباحات خشية الوقوع فى شيء من المحظورات.

٤ - والإحسان:

وهو أعلى درجات الإسلام وأرفعها قدرا وأجلها شأنا، لأنه يعنى تحقيق الإيمان والإسلام والتقوى ليكون المؤمِن من المحسنين، ومن كان من المحسنين كان الله تعالى معه.

– والإحسان عبادة لله تخضع لشفافية القلب واستنارة العقل وعين اليقين، فهو يعبد الله

كأنه يراه، وهذا حسبه ليكون أتقى وأخوف لله.

– والإحسان يعنى الإخلاص لله والإجادة والإتقان لكل عمل يقوم به الإنسان.

– ومن الإحسان الإقبال على الله بالطاعات وحبه بحب عباده وبذل الخير والمعروف لهم، وتقديم المعونة المادية والمعنوية لكل واحد من المسلمين، وأحيانا لغير المسلمين بشرط ألا يكونوا من أعداء الدين أو أعداء المسلمين أو العصاة الفاسقين.

● وهذه المبادئ الأربعة يؤدى أولها إلى ثانيها، وثانيها إلى ثالثها وثالثها إلى رابعها فهى سلسلة متماسكة مترابطة لا يمكن فصل واحد منها عن سائرها.

وهذه المبادئ الأربعة تسهم فى بناء الشخصية الإسلامية القادرة على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة، والراغبة فى تقديم العون والخير للمجتمع كله.

● وأما المبادئ العامة الثلاثة التالية وهى: الشورى، والعدل، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهى المبادئ الأساسية لبناء مجتمع صالح، حسن الصلة بربه، وحسن الصلة بالناس من حوله كبارا وصغارا، حكاما ومحكومين، أغنياء وفقراء، وذلك عصب الحياة الداخلية فى أى مجتمع يدين بالإسلام.

وهذه إشارات وكلمات عن كل واحد من هذه المبادئ الثلاثة:

٥ – الشورى:

وهى مبدأ هام فى وضع سياسة للمجتمع وللدولة وبغيرها يكون الاستبداد والظلم وهضم حقوق الآخرين، والافتيات عليهم فى منعهم عن التعبير عن آرائهم.

– والشورى واجبة لازمة ملزمة، وليست منحة من حاكم ولا هبة من حكومة، وإنما حق أصيل لكل مسلم وواجب أصيل على كل من يلى من أمر المسلمين شيئًا.

– والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا ما لا خلاف فيه بين علماء المسلمين المعتد بهم.

– وقد أثنى الله تعالى على المسلمين المؤمنين المتوكلين على الله الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش المتسامحين فى حقوقهم المقيمين الصلاة المؤدين للزكاة المتصدقين، الذين أمرهم شورى بينهم أثنى الله عليهم بقوله: ﴿ .. وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... ﴾ [الشورى: ٣٨].

- وقد أوجب الله على رسوله الشورى ليعلمنا أنها واجبة فى قوله تعالى: ﴿ ...وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فما أمر الله نبيه بالشورى لحاجته إلى رأى غيره، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة من الفضل ولتقتدى به أمته ﷺ، قال ذلك الحسن البصرى وغيره من العلماء.

- والشورى تنضج الرأى وتؤدى إلى اختيار أحسن الآراء وأنسب الحلول لأى مشكلة، كما أن فيها تقديرا للرأى الآخر، ودعما لوحدة الكلمة والصف، وتطبيقا لحرية الرأى والاجتهاد(١).

٦ - والعدل :

ومعناه المساواة بين طرفين أو أطراف، أو بين أمرين أو أمور، والعدل يعرف بالعقل وهو العدل المطلق وذلك كالإحسان إلى من أحسن إليك، كما يعرف بالشرع كالقصاص، وأروش(٢) الجنايات، وغيرها.

- والعدل يقتضى رفض تعبير «السيادة» للحاكم على المحكوم، أو لأحد على أحد، إذ لا سيادة إلا لله تعالى ولمنهجه ونظامه.

- وإنما كان العدل من أهم المبادئ التى يقوم عليها الإسلام لأنه يتضمن المساواة بين الناس من منطلق الحقائق الإسلامية الثابتة التى تنادى بأن الناس جميعا لآدم، وأنهم عباد لله تعالى، ولا تفاوت بينهم إلا بالتقوى.

- والعدل يقتضى إحقاق الحق، وهو مطلب شرعى أساسى إذا فقد أو عطل أو انتقص قام التنازع بين الناس أفرادا وجماعات وأمما ودولا، مما يؤدى إلى الصراعات وإلى اشعال نيران الحروب.

- وإذا ما طبق العدل بمفهومه الذى أوضحه الإسلام بين الناس عموما وبين الحاكم والمحكوم خصوصا، فذلك الذى يضمن للمجتمع الأمن والاستقرار والسعادة والعيش فى كرامة إنسانية ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

(١) للتوسع فى موضوع الشورى: انظر لنا: التربية الإسلامية فى سورة آل عمران. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
(٢) الأرش هو: دية الجراحات ونحوها.

٧ - والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وهو مبدأ فرضه الله تعالى فرضًا على المسلمين القادرين على القيام به فى قوله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

- والأمر بالمعروف شَدٌّ لظهر المؤمن، وإرغام لأنف المنافق، وتأييد للحق، وإزهاق للباطل، ونشر للفضائل وتنقية للمجتمع من الرذائل.

- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب إسلامى عام ليس مقصورا على زمن بعينه ولا على مكان بعينه ولا على ناس بذواتهم، وإنما مجاله كل زمان وكل مكان وكل الناس، لأن الحاجة إليه ماسة بل ضرورية ليعيش الناس فى أمن واستقرار، وهو ميزة تميزت بها أمة الإسلام فكانت بها خير أمة أخرجت للناس: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

- والأمر بالمعروف - أى الخير أو كل ما هو نافع للإنسان فى دنياه وأخراه - توسيع لنطاق الحق والخير والعدل والعفة والشجاعة وكل فضيلة فى المجتمع.

وإذا استقرت هذه الفضائل فى المجتمع حُسِمَ الشَّر، ورفع الظلم، ومنعت الرذيلة بكل أنواعها، وانقمع الشيطان وصلحت العلاقات بين الناس فى المجتمع.

- والنهى عن المنكر - أى الشر أو كل ما هو سيئ وضار للناس فى دينهم ودنياهم - تطهير للمجتمع من الباطل ودعاته وأنصاره والموسوسين به، ومن الرذائل بمختلف أنواعها ودرجاتها لكى تحل الأخوة بين الناس محل العداوة والخصام.

- وإذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما فرضه الله على المسلمين فإنه بالنسبة للحاكم ولكل من يلى من أمور المسلمين مسئولية صغيرة أو كبيرة أهم عمل يقدم به لتستمر شرعيته فيما ولى من أمر المسلمين، فإن توقف عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد شرعيته وأصبح جديرا بأن ينسحب من هذه الولاية أو أصبح عزله عنها واجبا شرعيا.

وبعد:

فإن العدل والشورى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، هذه المبادئ العامة الثلاثة هى عصب السياسة الداخلية للمجتمع المسلم وتحت كل مبدأ منها تدخل عشرات الفروع

والقيم، وبدونها تسود الفوضى ويفعل من شاء ما شاء، ويختل النظام ويأكل القوى الضعيف ويعيث الظالم فى الأرض فسادا.

● وهذه المبادئ الثلاثة هى التى يجب أن يتجرد لها المسلمون عن كل ما يعوقهم فى تحقيقها وتطبيقها.

● وأما المبادئ العامة الثلاثة الأخيرة من هذه المبادئ العشر، وهى: الدعوة إلى الله، والجهاد فى سبيله والانطلاق إلى العالمية، فهى التى ترسم للأمة المسلمة سياستها الخارجية وتوضح لها معالم التعامل مع غير المسلمين، وتكفل لها أن تعيش مع المجتمع العالمى فى أمن وسلام وحسن جوار وحسن تعامل، بين أقران، لا بين قوى وضعيف، ولا بين تكتلات تحشد إمكاناتها ليستعلى بعضها على بعض - كما هو مشاهد فى مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة وصندوق النقد والقروض، وحق الاعتراض، وتأييد إسرائيل فى كل ما تمارسه من ظلم وعدوان على أصحاب الحقوق!!!

تلك المبادئ الثلاثة هى التى تحكم سياسة الدولة المسلمة الخارجية وترسم لها أهداف هذه السياسة وأبعادها، وما يجوز منها للدولة المسلمة وما لا يجوز، دون استعلاء ودون استغلال لأسباب القوة للسيطرة على الدول الضعيفة بأى حال من الأحوال - لأن ذلك ظلم والظلم من المحرمات -.

ونود أن نشير إشارات وجيزة إلى كل مبدأ من هذه المبادئ الثلاثة فيما يلى:

٨ - الدعوة إلى الله ونشر دينه فى الآفاق:

الدعوة إلى الله وإلى الدين الخاتم واجب كل مسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك ما أمرت به نصوص الإسلام من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة(١).

- الدعوة إلى الله واجب كل مسلم بشرط أن يكون على بصيرة بما يدعو إليه: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...**﴾ [يوسف: ١٠٨].

- والدعوة إلى الله والحركة بهذا الدين فى الناس والآفاق واجب مستمر لا يتوقف أبدا، وما ينبغى أن يحول بينه وبين المسلم خوف ظالم أو بطش جبار: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ...**﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

(١) انظر للمؤلف: فقه الدعوة إلى الله كتاب موسع من مجلدين كبيرين نشر دار الوفاء بمصر في طبعات عدة: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- والدعوة إلى الله والحركة بدينه تخضع لشروط وآداب معروفة قررها الإسلام: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴾ [النحل: ١٢٥].

- والدعوة إلى الله والحركة بدينه تستوجب على الداعى أن يكون أنموذجا لما يدعو إليه: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ... ﴾ [الشورى: ١٥].

- وعلى مَنْ يدعو إلى الله ويتحرك بدينه فى الناس والآفاق أن يستمر فى عمله حتى يبلغ هذا الدين كل ما يمكن أن يصل إليه كما جاء ذلك على لسان المعصوم ﷺ، فيما رواه الطبرانى فى الأوسط بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «...والذى نفسى بيده لا تذهب الأيام والليالى حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم»، وما رواه أحمد بسنده عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين فى الأرض...».

- وإذا وجد على الأرض كلها ناس لم تصلهم الدعوة إلى الله ولا الحركة بالإسلام إليهم، فإن المسلمين القادرين على الدعوة والحركة بل المسلمين جميعا آثمون مقصرون فى حق الله تعالى وحق دعوته، إذْ واجبهم أن يبلغوا دينه إلى كل عباد الله، وبعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فما على المسلمين إلا البلاغ.

- وهذه الدعوة إلى نشر دين الله فى عباد الله والحركة بهذا الدين فى الناس والآفاق جزء من سياسة الدولة المسلمة الخارجية.

٩ - والجهاد فى سبيل الله تعالى.

وهدف هذا الجهاد أن تبلغ كلمة الله إلى عباد الله، وأن تكون هى العليا لما فيها من خير للناس جميعا فى معاشهم ومعادهم، وأهل الباطل والهوى يحولون دائما بين هذه الكلمة وبين أن تبلغ الناس.

وهذا الهدف للجهاد فى سبيل الله يتخذ طريقين:

أحدهما:

تأمين طريق الدعاة إلى الله، بإزالة العراقيل والعقبات التى يبثها أعداء الله وأعداء دينه، ولهذه الإزالة أحكامها وشروطها وآدابها.

والآخـــر:

مواجهة أعداء الله المتربصين بالدين وأهله الذين يعتدون على المسلمين أو ينقضون معهم العهود والمواثيق أو يظاهرون عليهم عدوا.

● هذا الجهاد وهو ماض فى طريقيه فرضه الله فرضا على كل مسلم قادر، فرضا عينيا حينا وفرض كفاية حينا آخر، فى نصوص من الكتاب والسنة النبوية المطهرة(١). ونشير هنا إلى بعض تلك النصوص:

– قال الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ... ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

– وقال: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

– وقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التحريم: ٩، والتوبة: ٧٣].

– وقال: ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

– وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض».

– وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله» الحديث.

– وروى أبو داود بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم».

● فالجهاد فى سبيل مبدأ من مبادئ السياسة الخارجية للدولة المسلمة، تمتد به الدعوة إلى الدين والحركة به إلى الآفاق وتؤمن به الطرق التى يسلكها الدعاة والحركيون وتحمى به

---

(١) انظر للمؤلف فى موضوع الجهاد كله كتاب «الجهاد..» وهو الركن الرابع.. من هذه السلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام البنا رحمه الله تعالى.

حدود الدولة المسلمة، فى ضوء: ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا.

١٠ - والعالمية الإنسانية :

وهى طابع يميز الفكرة الإسلامية ، ويوضح الفروق بين الإسلام وغيره من الأديان والنظم.

● وتلك العالمية الإنسانية يرفدها ويعززها أن الدعوة الإسلامية عامة وموجهة للناس جميعا فى مختلف أنحاء المكان ومتطاول أمداء الزمان: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [سبأ: ٢٨].

● والأحاديث النبوية الشريفة التى تؤيد هذه العالمية الإنسانية كثيرة، منها:

- ما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار».

- وروى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى، - ولا أقول فخرا - : بعثتُ إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ... » الحديث.

- وروى أحمد بسنده عن تميم الدارى رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً ويذل ذليلا، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذُلاً يذل الله به الكفر»(١).

● ومن المسلَّم به فى الإسلام أن المسئولية فى المجتمع المسلم مسئولية الدولة بكل مكوناتها، وليست مسئولية فئة أو جماعة أو جنس من المسلمين، وإنما هى ذات طابع عالمى، وذلك تسامقًا مع عالمية الدعوة إلى الله.

● وكتاب الله الخاتم القرآن الكريم كتاب عالمى يحمل إلى البشرية القواعد العامة العادلة فى الحكم بين الناس عموما مسلمين وغيرهم كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ [النساء: ١٠٥].

---

(١) للتوسع فى موضوع عالمية الدعوة انظر للمؤلف: عالمية الدعوة الإسلامية - نشر دار الوفاء بمصر، ط: ٥ ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

● ومما يدعم عالمية الفكرة الإسلامية وإنسانيتها أنها تنظر إلى البشرية كلها على أنها من أصل واحد، وأنها جميعا أمة الدعوة كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١]، وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

● وأنه لا تفاضل بين الناس فى الإسلام بعرق أو جنس أو لون، وإنما هم جميعا أمام الله سواء ولا يتفاضلون إلا بالتقوى كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

● وأن الفكرة الإسلامية تسوى بين الناس جميعا فى تحمل المسئولية الفردية بحيث لا يحمل أحد عن أحد إثما أو ذنبا، كما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

● والطابع العام للدولة المسلمة طابع عالمى إنسانى بدليل ما نقدمه فيما يلى من شواهد:

– الدولة المسلمة لا تقوم على قومية بعينها كالعربية مثلا، لأن العربية هى اللسان وليست الإسلام نفسه، فهى لغة القرآن ولغة الإسلام وليست هى الإسلام أو طابع الإسلام، ومن فكر فى غير هذا أو حاول التعصب للعرب على سائر المسلمين فهو المخطئ ويحسب خطؤه على نفسه لا على الإسلام.

– والإسلام لا يعترف بتميز عنصر من عناصر الدولة على عنصر آخر منها، كعنصر الأشراف أو النبلاء أو أصحاب الثروات أو أهل الصناعة أو ملاك الأراضى أو أرباب العمل أو الطبقة العاملة «البروليتاريا» الأكذوبة – كما أكد كذبها ودجلها السقوط المدوى لما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى.

وإنما جميع عناصر الدولة سواء يتفاضلون فقط بالعمل الصالح.

وبعـــد:

فتلك هى المبادئ العامة – التى اخترنا منها عشرة – التى تقوم عليها الفكرة الإسلامية، تلك المبادئ التى يجب أن يتجرد المسلمون لها ولإقرارها فى الناس وجعلها من خصائص ذواتهم ومجتمعهم ودولتهم، إن كانوا يرغبون فى أن يرضى الله تعالى عليهم ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمْنا.

الموضوع الثاني

تكوين الدولة المسلمة التى تحترم هذه المبادئ وتطبقها

هذه المبادى العامة التى تقوم عليها الفكرة الإسلامية تظل حبرا على ورق ومجرد كلام ما لم تكون دولة مسلمة تحترم هذه المبادئ وتعمل على تحقيقها وتطبيقها، دولة بكل إمكاناتها وحقوقها وواجباتها.

- وإذا كانت الدولة هى التى تخضع الهيئات الحاكمة فيها للقانون، بحيث تصدر كل تصرفات أجهزة الدولة وفقا لقواعد قانونية عامة، وبذلك تكون السيادة فى الدولة للقانون وليست لإرادة الحاكم.. كما يجرى بذلك العرف وكما يقرره رجال القانون...

إذا كان ذلك كذلك، فإن الدولة الإسلامية كانت كذلك منذ قيامها فى المدينة المنورة – بعد هجرة الرسول ﷺ إليها – حتى الرسول نفسه لم يكن الحاكم المطلق فى الدولة، وإنما كان يخضع لقواعد وقوانين أنزلها الله عليه – وهى القرآن – أو علمه كيف يصوغها بلغته – وهى السنة – وكانت سنته قانونا تفصيليا للقانون العام الذى هو القرآن الكريم، وكان هو ﷺ فى هذه السنة لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى.

- وكذلك كان شأن الخلفاء الراشدين من بعده ﷺ وكان ذلك منهم بعد أن تم إنزال القرآن الكريم، وبعد أن فسرت السنة مجملة وشرحت ما يحتاج منه إلى شرح.

- ولم يكن موضوع الفصل بين السلطة السياسية «الحكام» والقانون من اختراع الغرب، فقهاء القانون فيه، وإنما هذا الفصل بين الحاكم والقانون أصل فى الإسلام ودولته منذ قيامها، وإلى أن يشاء الله رب العالمين. وكل تجاوز لذلك يقع وزره على التجاوز ولا يحسب على الإسلام منه شىء.

- وإذا كان فقهاء القانون قد اصطلحوا على أن الدستور يمثل قمة القواعد القانونية التى يخضع لها الحاكم وكل سلطات الدولة؛ فإن الكتاب والسنة النبوية هما الدستور الذى تتحاكم إليه سلطات الدولة كلها تشريعية وقضائية وتنفيذية، ويسمى خضوعها للقانون؛ «مبدأ المشروعية».

فما المبادئ التى تقوم عليها الدولة المسلمة؟ لكى تتكون تكوُّنًا صحيحا وتؤدى وظائفها أداء جيداً؟ أو كيف تُعَدّ هذه الدولة المسلمة إعدادا صحيحا سليما؟

إن ذلك مرتبط بالمبادئ التى تقوم عليها الدولة.

ولاندعى أننا سنذكر هنا كل تلك المبادئ فإن ذلك فوق طاقتنا من جانب وخروج عن طبيعة الكتاب من جانب آخر، وإنما هى كما قلت آنفا- إشارات وخطوط عامة.

١- إعداد الدولة المسلمة.

المبادئ التى تقوم عليها الدولة المسلمة.

المبدأ الأول:

حسن اختيار الحاكم.

وإنما يحسن اختياره وفق المعايير التى وضعتها الشريعة الإسلامية لاختياره وهى فى مجملها صفات القائد المخلص لدينه الكفء فى أداء وظيفته.

وتلك الصفات كثيرة أهمها القوة والأمانة، والحزم والرحمة وحسن الرعاية لما استرعاه الله عليه، وأى صفات أخرى يضيفها علماء المسلمين فى أى عصر من العصور تجاوبا مع متطلبات العصر فى الحاكم الذى يحكم الناس.

وهذا الحاكم المسلم يختاره أهل البصر والخبرة وفق تلك المعايير ويعرضون اختيارهم على الأمة بالصورة التى يرونها ملائمة، فإن قبلت الأمة اختيارهم كان على الحاكم أن يعلن قبوله لتولى القيادة.

والمبدأ الثانى:

تقرير حقوق الحاكم بعد اختياره، وهى حقوق كثيرة نشير إلي أهمها فيما يلى:

-السمع والطاعة: فيما أحب الناس أو كرهوا بشرط الا يأمر بما فيه معصية لله، وله على الناس الحب والموالاة.

- وإجابة دعوته: إذا دعا أحدا أو جماعة إلى القيام بعمل ما لصالح الدولة المنظور أو غير المنظور الذي أشار عليه به الخبراء والعلماء.

- والنفير معه إذا دعا إلى الجهاد فى سبيل الله من أجل الدعوة أو الحركة أو التمكين لدين الله

فى الأرض، وذلك فرض الكفاية، أو إذا دعا إلى الدفاع عن الدولة ضد أى عدوان، وهذا هو فرض العين.

– ونصيحته فيما من شأنه أن ينصح فيه وتقدم إليه النصيحة بالشروط والآداب التى أقرتها الشريعة للنصيحة، ويقدمها إليه أهل العلم والخبرة كل فيما يختص به، وتقدم إليه هذه النصيحة دائما سواء طلبها أم لم يطلبها، لأن النصيحة واجبة شرعا لأئمة المسلمين وعامتهم.

والمبدأ الثالث:

تقرير واجبات الحاكم نحو من يحكمهم من الناس.

وهذه الواجبات كثيرة ومتجددة حسب احتياجات الناس والعصر الذى يعيشون فيه، ومن أهمها:

– تطبيق شرع الله ومنهجه على الناس لضمان العدل ومقاومة أى محاباة أو انحراف أو هوى، فلا ضمان لهذا إلا بذاك.

– وممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونشر دعوة الله فى عباد الله، والتحرك بالإسلام فى الناس والآفاق، وتأمين الدعاة إلى الله وكفالة العيش الكريم لهم.

– وتأمين فرص العمل ووسائل العيش للناس من خلال ما تملكه الدولة من أموال ثابتة أو متغيرة، وما تفرضه من نظم مالية وما تجمعه من أموال الزكاة ونحوها، بحيث تتوفر لكل مواطن فرصته فى العمل الشريف الذى يكفيه الحاجة.

– وتفقد اليتامى والأرامل والعاجزين عن العمل وسائر المحتاجين لتأمين الحياة الكريمة لهم، بالطريقة الإنسانية التى شرعها الإسلام وأوجبها الله تعالى الذى كرم الإنسان.

– وتأمين التعليم وتيسير طلب العلم والتعلم، بحيث يواكب العلم أرقى ما وصلت إليه الإنسانية من علوم وتقنية وبحيث يكون التعليم الاساسى حقا لكل مواطن دون إرهاق أو تكاليف باهظة.

– أما أنواع التعليم ومستوياته، ومدة الالتزام فيه فذلك كله يخضع لظروف المجتمع المسلم ولما يشير به خبراء التعليم المسلمون.

– وتأمين الأسباب التى تحول بين الناس وبين الأمراض– الطب الوقائى– بالاهتمام بالبيئة

والنظافة والمرافق العامة وغيرها مما يستلزمه منع الأمراض عن الناس.

مع تأمين الدواء والمياه الصالحة للشرب، مما يحتاج إليه فى الطب العلاجى من مستشفيات ونحوها.

– وتأمين احتياجات الناس من المزروعات والمصنوعات والملبوسات وأنواع الطاقة وكل ما هو معين للناس على ممارسة حياتهم فى كرامة وكفاية وتعاون.

– وحماية المواطنين من الغش والخداع والربا والأفاقين وكل خطير من المجرمين يهدد حياة الآمنين.

– وحماية الدولة من أعدائها بتكون جيش على المستوى الملائم من حيث العدة والعدد والآلة العسكرية المتطورة مما يقترحه المتخصصون فى العلوم العسكرية عموما.

والمبدأ الرابع:

تقرير حقوق المواطنين والحرص على أن تصل إليهم كاملة غير منقوصة.

* وأهم حقوق المواطنين فى وطن يحكم حكما إسلاميا هو تمتعهم بحرياتهم العامة التى من أبرزها:

– حرية العقيدة.

– وحرية الفكر والإرادة.

– وحرية التعبير بكل وسائل التعبير المشروعة.

– وحرية العمل.

– وحرية التملك.

– وحرية التنقل.

– وحرية الصحافة والإعلام.

– وحرية نقد الحكام والمسئولين فى إطار ما شرع الإسلام من أدب، يجعل النقد للبناء لا للهدم ويحفظ للحكام احترامهم وتقديرهم.

– والحرية السياسية بوجه عام، أى حرية تكوين الأحزاب السياسية دون أن تحتكر السلطة تكوين الأحزاب، أو تفرض على الناس بشكل مباشر أو غير مباشر.

• ولايمكن أن تقوم هذه الدولة إلا توفرت لها هذه المبادئ كلها وغيرها مما يراه أهل العلم والخبرة ضروريا فى إعداد الدولة المسلمة، التى يعيش فيها مجتمع إنسانى تسوده قيم فاضلة تغرس فى نفوس الناس حب الخير وفعله والدعوة إليه، والتعاطف والتواد والتراحم، والتعاون على البر والتقوى.

فكيف يبنى هذا المجتمع الإنسانى الآمن فى ظل هذه الدولة المسلمة؟

ذلك ما نجيب عنه فى السطور التالية:

٢- إعداد المجتمع المسلم

يقوم المجتمع المسلم الصالح على الأسرة المسلمة الصالحة، فهى لبنته الأولى، ومن مجموعها يتكون المجتمع الصالح.

فما هى المبادئ العامة التى يُعد على أساسها المجتمع المسلم القادر علي ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة؟.

إنه يقوم على مبادئ أهمها مانشير إليه بإيجاز فيما يلى:

المبدأ الأول:

سيادة القيم الإسلامية فى المجتمع، بحيث يلتزم بها جميع الناس دون استثناء أو محاباة.

والقيم الإسلامية هى: كل قيمة فاضلة تستهدف الخير للناس جميعا، وتدعم الحق وتكفل العدل والشورى، وتؤمن الإنسان على حاضره ومستقبله، وتوجب عليه التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل، وتحببه فى التعاون على البر والتقوى، وتكفه عن الشر والأذى، والباطل والخنا.

فإذا سادت المجتمع هذه القيم سعد الناس ونشأت بينهم علاقات اجتماعية إنسانية تزكيهم وتطهرهم وترفع بين المجتمعات شأنهم وقدرهم.(١)

والمبدأ الثانى:

ممارسة الحقوق وأداء الواجبات.

- فمن حرم حقه أو حقوقه فسكت على ذلك الهضم لها فهو شيطان أخرس، مثله فى

(١) للتوسع فى معرفة هذه القيم انظرنا: كتاب التربية الروحية، وكتاب التربية الخلقية، وكتاب التربية العقلية من سلسلة مفردات التربية الإسلامية- نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية. ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

ذلك مثل من سكت على ظلم أو شارك فيه.

وللمسلم أن يتسامح فى حقه أو يتنازل عنه بمحض إرادته من أجل تأليف القلوب والتحبب إلى الناس والحرص على المودة بين الأقارب والأرحام.

– ومن قصر فى أداء واجبه أو امتنع عنه فهو من الآثمين، عند الله تعالى، ومن الذين يستحقون عقابا فى الدنيا يناسب الخلل الذى أدى إليه امتناعه أو تقصيره فى أداء واجبه، ولايجيز الإسلام لأحد أن يمتنع عن أداء واجباته إلا لعذر يقبله الله تعالى، وأما شأنه فى الدنيا فمتروك لما قدرته الشريعة من عقوبات كالحدود ونحوها، ومالم يرد فيه حد أو عقوبة معينة فمتروك لاجتهاد أهل القضاء، المهم الا يفلت ممتنع عن أداء واجبه أو مقصر فيه من عقوبة دنيوية مناسبة، فضلا عن العقوبة الأخروية.

● وبهذا المبدأ تستقيم للناس حياة اجتماعية، يعيشون فى رحابها إخوة فى الدين يخدم بعضهم بعضا ويتعاون بعضهم مع بعض.

والمبدأ الثالث:

التعاون على البر والتقوى لاعلى الإثم والعدوان، وذلك مبدأ إنسانى راشد أوجبه الإسلام فى قوله: ﴿ ...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ... ﴾ [المائدة: ٢].

– وهذا النص القرآنى يعنى أن كل عمل صالح يحقق للمسلمين أو لبعضهم فائدة فى دنياه أو أخراه يجب التعاون مع الآخرين على أدائه، ومفهوم واسع يشمل كل أنواع الخير.

– والتعاون على التقوى يعنى التزام أوامر الله واجتناب نواهيه والتعاون فى ذلك مع كل مسلم، كما يعنى التعاون على كف الشر والأذى عن النفس وعن الغير مع كل مسلم، ويعنى حفظ النفس عما يؤثمها أمام الله، وذلك بترك كل ما حرم الله أو كرّه فيه وفى فعله، بل ترك بعض المباحات خشية الوقوع فى الحرام.

● ومعنى ذلك تحريم أى تعاون بين الناس على الإثم –وهو كل مايغضب الله– أو على العدوان سواء أكان عدوانا على النفس بمقارفة ما حرم الله، أو عدوانا على الناس والحيوانات والأشياء. وهذا المبدأ يدعم نوازع الخير فى المجتمع، وينقى الحياة الإنسانية من الشرور والآثام وهمزات الشياطين.

والمبدأ الرابع:

حسن التعامل مع الحكام والمسئولين وأعوانهم وأولياء الأمور عموما، لأن لهؤلاء جميعا حقوقا متعلقة بذمة المسلم لابد من أدائها نحوهم.

وإنما يكون ذلك بحبهم ونصحهم إذا اقتضى الأمر، وطاعتهم في غير معصية لله ودعمهم وتأييدهم وإجابة ندائهم وصريخهم فذلك أدب الإسلام مع الحاكم والقائد والوالدين والمعلمين ومن هم أكبر سنا أو علما.

ويحرم غشهم أو الافتيات عليهم أو التخلي عنهم فضلا عن تأليب الناس عليهم أو تشجيعهم على عدم طاعتهم، وذلك أن الحاكم ظل الله في الأرض، إذ يستمد سلطانه من قانون الله الكتاب والسنة، ومنهما يستمد حقوقه ويعرف اجباته، ومن خلال ما تضمناه قد اختاره المسلمون بعد تزكية أهل العلم منهم والخبرة ووافقوا على أن يتولى حكمهم، وكل ذلك يوجب عليهم حسن التعامل مع حكامهم.

والمبدأ الخامس:

حسن التعامل مع مؤسسات المجتمع بكافة أنواعها، لأن هذه المؤسسات تخدم المجتمع وتذلل أمام الناس العقبات وتيسر لهم أمورهم وتساعدهم على قضاء حاجاتهم.

والمسلم يجب أن يكون حريصا على هذه المؤسسات أمينا عليها وعلى ماتقدمه من خدمات بحسن التعامل معها ومع القائمين عليها.

- بل إن على المسلم أكثر من ذلك نحو هذه المؤسسات، فإذا كان المسلم من أهل اليسار وجب عليه أن يدعم هذه المؤسسات بالتبرع لها من ماله أو جهده أو وقته، بل عليه أن يحمل عنها بعض مهامها وواجباتها إن استطاع.

وكل المرافق العامة في المجتمع تقوم عليها مؤسسات حكومية من حقها أن يتعامل معها تعاملا حسنا، يرضى الله تبارك وتعالى، ليحقق بذلك لمجتمعه سعادة الدنيا والآخرة.

والمبدأ السادس:

حسن التعامل مع المجتمعات المسلمة الأخرى.

ففي ظل شبكات المواصلات والاتصالات أصبح العالم كله أشبه مايكون بقرية صغيرة.

وعلى الرغم من أن العالم الإسلامي اليوم أكثر من ستين دولة أو حكومة أو مجتمعا، فهم

جميعا إخوة فى هذا الدين وفى تلك العقيدة يتشاركون فى القيم والمبادئ التى جاء بها الإسلام، ويحملون نفس الآمال والآلام ويوحد بينهم الكتاب والسنة والقبلة والنبى الخاتم والجنسية الواحدة وهى عقيدة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكل تلك العوامل توجب عليهم حسن التعامل مع هذه المجتمعات المسلمة حكوماتها ومحكوميها.

● ويأخذ حسن التعامل معها صورا عديدة منها:

– التعرف على قضاياها ومشكلاتها ومدارستها مع بعض الفاهمين لأسبابها وأبعادها وحلولها، ومعرفة مدى مايمكن أن يقدمه مجتمع مسلم ما لمجتمع مسلم آخر.

– وتعرف أحوال الأقليات المسلمة فى بلاد العالم، لمعرفة ما تعانيه هذه الأقليات ومايمكن أن يقدمه المسلمون لها من خدمات مادية أو معنوية.

– وتعرف أحوال المسلمين وما يقع عليهم من ظلم صارخ فى بعض أنحاء العالم مثل: المسلمين فى إسرائيل وفى تركيا وفى الجمهوريات التى انفصلت عما كان يسمى الاتحاد السوفيتى، وفى ألبانيا وفى كوسوفو، وفى البوسنة والهرسك، وفى انجلترا وفرنسا وهولندا وألمانيا، وفى أسبانيا، وفى الفلبين والصين... مع العمل على الاتصال بهذه المجتمعات لتقديم مايمكن تقديمه من عون مادى أو معنوى.

● كل ذلك من منطلق أن المسلمين أمة واحدة مهما تباعدت بينهم المسافات واختلفت الأجناس والألوان وتباينت اللغات، وأنهم ينبغى أن يكونوا أمة واحدة متعددة الأفكار توحد بينهم القيم والسياسة والاقتصاد والتعاون والأخوة فى الله.

والمبدأ السابع:

حسن التعامل مع سائر دول العالم.

وذلك مبدأ إنسانى في الإسلام تدعمه النصوص الإسلامية من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وعمل الصحابة رضوان الله عليهم.

– قال الله تعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٨].

وهذه الآية الكريمة وحدها كافية لإقرار مبدأ حسن التعامل مع الناس جميعا من غير المسلمين.

أما الذين يتصورون أن جميع الدول أعداء للإسلام والمسلمين فليسوا على صواب فى هذا التعميم، إذ العبرة فى تصنيفهم أعداءً للمسلمين هو ما ذكرته الآية الكريمة من:

– قتال المسلمين من أجل دينهم.

– وإخراج المسلمين من ديارهم – كما تفعل إسرائيل والصرب وغيرهما – .

فهؤلاء يمكن أن يبرهم المسلمين ويمنحوهم حسن الصلة، وأن يعاملوهم بالعدل، فإن الله تعالى يحب أهل البر والقسط.

وأما غير هؤلاء من الدول فإن التعامل معهم يجب أن يكون بمقتضى القيم الإسلامية من جانب، وفى ضوء ما يقترحه علماء المسلمين وخبراؤهم الذين يقدرون مصلحة المسلمين فى الحاضر وفى المستقبل من أسلوب للتعامل معهم.

٣ – وإعداد الأسرة المسلمة

الأسرة المسلمة هى وحدة المجتمع – كما قدمنا – ولا تستقيم حياة إنسانية كريمة ولا قيم فاضلة فى المجتمع المسلم إلا إذا كانت الأسرة قد أحسنت تربيتها، وأجيد إعدادها، لتستقر القيم الفاضلة فى أنفسهم ولتنتقل آثارها منهم إلى المجتمع.

- ومن أجل إعداد الأسرة المسلمة لابد من أن يسودها أو يسود إعدادها عددٌ من المبادئ الهامة التى نذكر منها ما يلى:

المبدأ الأول :

أن يحسن الزوج حسن اختيار زوجته، وأن تحسن الزوجة حسن اختيار زوجها بالموافقة عليه أو رفضه، ومعيار اختيار الزوجة لزوجته ما جاء فى الحديث الشريف: « ... فاظفر بذات الدين تربت يداك ».

ومعيار اختيار الزوجة أو وليها لمن تقدم لها هو نفس المعيار من حيث الغاية والقصد، وقد جاء ذلك فى حديث نبوى آخر جاء فيه: «إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير».

والمبدأ الثانى:

تربية الأبناء تربية إسلامية.

إذ على البيت المسلم أبًا وأمًا أن يربيا أبناءهما تربية إسلامية بغرس قيم الإسلام فى نفوسهم منذ طفولتهم.

ويكون ذلك بأن يكون الأب والأم ملتزمين بالقيم الإسلامية فى كل أمورهم: المسكن والملبس والمطعم والتعامل مع الأهل والأقارب والجيران والأصدقاء.

وعلى البيت المسلم أن يتعاون مع المدرسة والمسجد على تعهد الأبناء وتنشئتهم تنشئة إسلامية.[1]

والمبدأ الثالث :

أن تكون القوامة فى الأسرة للرجل، أى تحمل المسئولية والقيام بأعباء الأسرة المادية والمعنوية، فتلك هى الوظيفة الأساسية للرجل فى الأسرة، فهو قد هيأه الله لذلك بأكثر مما هيأ المرأة، فهو المرجع الأساسى للأسرة، ولذلك فإننى أرى ألا يفارق الأب أسرته إلى بلد آخر تاركا إدارة الأسرة للأم مثلا، فإن ذلك يضيع الأبناء كما هومشاهد فى كثير من الأحوال، فما بالك والحالة هذه بمن يفارق أولاده مصطحبا أمهم إلى بلد آخر سعيا وراء الرزق؟ إن ذلك تدمير للأولاد إلا من عصم الله، وذلك عندى غير جائز، لأن الله قد استرعى الأب أسرته فكيف يهملها؟ وكيف يتركها دون رعاية؟.

ولكن ليس معنى القوامة للرجل أن يلغى مكانة أم أولاده ويصبح هو الآمر الناهى المستبد، وإنما يحافظ لزوجته على مكانتها بين أولادها فقد حافظت الشريعة الإسلامية على ذلك وألزمت الزوج والابن المحافظة على مكانة الزوجة والأم فى الأسرة المسلمة.

- عندئذ تستطيع الأسرة المسلمة التى أحسنت تربية أبنائها أن تمد المجتمع بالعناصر الصالحة القادرة على البذل والعطاء والعمل والجهد الذى يدعم قيم المجتمع الإسلامية ويحسن حاضره ومستقبله.

والمبدأ الرابع :

بِرُّ الأقارب والأرحام، فكل بيت مسلم يجب أن يهتم بذلك فالأقارب والأرحام يشكلون- بحكم هذه العلاقة - نوعا من الإسهام فى تربية الأبناء، وفى دعم استقرار الأسرة وامتدادها فى الأهل والعشيرة.

- والبيت المسلم لا يكتمل بناؤه، ولا يتم امتداده الطبيعى إلا إذا وضع فى اعتباره وجوب بر الأقارب والأرحام والتواصل معهم والتعاون فى كل ما من شأنه أن يزكى هذه العلاقة وينميها.

---

(١) للتوسع : انظر للمؤلف : تربية الناشىء المسلم - نشر دار الوفاء بمصر : ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

– غير أن هذه الصلات يجب أن تتم فى إطار من القيم الإسلامية من حيث اختلاط الرجال بالنساء والحديث إليهن، والتعامل معهن، فإن التساهل فى هذا يمثل مزلقا يقع فيه كثير من الناس، ممن تختلط عليهم الرؤية الإسلامية لهذه العلاقات.

والمبدأ الخامس:

تفقد اليتامى والأرامل والعاجزين عن الكسب.

وتلك صفة هامة في الأسرة المسلمة، لا تنعزل عن هؤلاء المحتاجين، بل ترعاهم وتهتم بهم، فإن كان هؤلاء من الأقارب والأرحام فقد أصبح لهم فى الأسرة المسلمة حقان:

حق القربى وصلة الرحم،

وحق الرعاية والاهتمام.

– والقاعدة الأساسية التى لا يمكن تجاهلها فى الإسلام هى رعاية اليتيم والأرملة وذى الحاجة والعاجز عن الكسب كما بين المسلمين من تكافل وتراحم.

ومجموع الأحاديث النبوية الآمرة بذلك أو المحببة فيه كثيرة، نشير إلى بعضها فيما يلى:

روى البخارى بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا» وأشار بإصبعيه.

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... والساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله».

والقرآن الكريم من قبل السنة النبوية ينادى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

[البلد: ١١–١٦].

فلا تستطيع الأسرة المسلمة أن تعيش ولا أن تربى أبناءها تربية إسلامية صحيحة دون أن ترعى اليتيم والأرملة والمحاويج.

والمبدأ السادس:

برُّ الجيران وحسن التواصل معهم.

وهذا الخلق فى شريعة الإسلام أصل أصيل فى دعم العلاقات الإنسانية بين الناس، فإن للجار حقا ثابتا فى الإسلام لا يقصر فى أدائه إلا عاصٍ لله تعالى واقع فى الإثم والخطأ.

- وإن إيمان المؤمن لا يكمل إلا إذا أحسن إلى جاره، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٦].

وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه...».

وروى مسلم بسنده عن أبي شريح الخزاعي رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره».

وروى البخاري بسنده عن أبي شريح الخزاعي رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، الذي لا يأمن جاره بوائقه».

والمبدأ السابع:

برُّ أصدقاء الأب وصديقات الأم

وتلك دائرة أوسع في دعم المعاني والقيم الإنسانية التي دعا الإسلام إليها في الأسرة المسلمة، فإذا أضيف ذلك إلى بر الأبناء والآباء والأقارب والأرحام والجيران واليتامى والأرامل والمحاويج، وجعل ذلك من صميم الدين والتدين، كانت الأسرة المسلمة واسعة التواصل بالمجتمع كله، وهذا هو خلق الإسلام وأدبه وحرصه على إشاعة البر بين الناس عموما والأقارب والأرحام على وجه الخصوص.

بذلك جاءت الأحاديث النبوية الشريفة التي نذكر منها:

ما رواه مسلم بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبرَّ البرِّ أنْ يصل الرجل وُدَّ أبيه».

وروى أبو داود بسنده عن أبي أُسَيْد مالك بن ربيعة الساعدي رضى الله عنه قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله: هل بقي من برِّ أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: «نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما».

وبعـــد:

فهذه هي الأسرة المسلمة وتلك هي المبادئ التي تحكمها وتحكم علاقاتها بمن حولها من

الناس، وهى مبادئ إنسانية سامية رفيعة المكانة فى استقرار الحياة الاجتماعية، تستحق بكل جدارة أن يتجرد الناس لها ولتطبيقها ويدافعون عنها وينشرونها فى الناس إلى يوم الدين.

٤ - وإعداد الفرد المسلم.

الفرد المسلم هو الهدف الأول للتربية الإسلامية، إذ هو اللبنة الأساسية فى بناء الأسرة المسلمة رجلا كان أو امرأة إذ هو أحد ركنى الأسرة الناشئة «زوجين».

وإعداد الفرد المسلم يقصد به تربيته تربية إسلامية وقد منح الله تعالى الإنسان نعمتين عظيمتين يستطيع بهما أن يربى نفسه بنفسه:

إحداهما: إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية ليخرج الناس بذلك من الظلمات إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان.

والأخرى: العقل، يفكر ويدبر ويختار لنفسه عن بينة ما يراه أصلح له فى معاشه ومعاده.

● فإن ضل عقله لسبب من الأسباب كان معه ما لا يضل أبدا وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

● وقد أودع الله فى الإنسان وخلقته جوارح سبعة:

اللسان والبصر والسمع واليدان والرجلان والبطن والفرج، وكل جارحة من هذه الجوارح قد تردى صاحبها إن هو استعملها فيما حرّم الله عليه أن يستعملها فيه، وقد تجلب له رضا الله وجنته إن هو استعملها فيما شرع الله له أن يستعملها فيه.

فالفرد المسلم بناء على هذا يستطيع أن يربى نفسه بنفسه تربية ذاتية بعد أن يفارق البيت الذى نشأ فيه والمدرسة التى تعلم فيها.

غير أن للإسلام مبادئ عامة فى تربية الفرد المسلم تربية تجعل منه إنسانا صالحا لممارسة الحياة الإنسانية الكريمة التى تليق بتكريم الله تعالى للإنسان.

وهذه المبادئ كثيرة تختار منها سبعة هى أهم ما فيها فى تصورى، وأرجو أن أكون فى هذا من الموفقين.

وتلك المبادئ هى:

المبدأ الأول:

تربية روح الإنسان

والروح أشرف ما فى الإنسان مما أودع الله فيه من بديع ما خلق، فالروح جزء من الإنسان

جوهرى تقوم به حياة الإنسان.

ولأن التربية الإسلامية عموما موضوعها الإنسان، فإن الروح لابد أن تخضع لنوع من التربية والإعداد يلائمها.

● وتربية الروح تستهدف تيسير السبيل أمامها لمعرفة الله تبارك وتعالى، وتدريبها وتعويدها على القيام بأعباء العبودية لله تعالى، أى أن تؤدى ما أوجب عليها من: إيمان، وإسلام وتقوى وإحسان وعدل وشورى ودعوة إلى الله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وجهاد فى سبيل الله، أى تفر هذه الروح بصاحبها إلى الله، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

● ولتربية الروح وإعدادها إسلاميا دعائم لابد منها هى:

– أداء الفرائض.

– والإقبال على النوافل.

– ومحاولة الوصول إلى الإحسان.

– والتزام سمت المؤمنين فى كل شيء.(١)

والمبدأ الثانى:

تربية عقل الإنسان.

والتربية الإسلامية للعقل تعنى إعداده ليتعلم كيف يفكر وكيف يتدبر وكيف يختار ويريد ليصل من وراء ذلك كله إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وكيف يتبع ما جاء به الرسول ﷺ.

● فالإسلام يدعو إلى التعلم فالعلم فالتعليم وكل تلك أعمال عقلية وضع الإسلام لها الضوابط الدقيقة.

ودعا الإسلام العقل إلى التثبت والتبين، وترك كل ما يصل إليه بالتخمين والظن، وعوّده على التفكير العلمى، بل رسم لهذا المنهج أبعادا دربه فيها على حرية النقد والاعتراض فى

---

(١) لتفصيل ذلك: انظر للمؤلف: التربية الروحية نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

حدود أدب الإسلام لهذا كله.[1]

والمبدأ الثالث :

تربية خلق الإنسان.

فقد اهتم الإسلام بهذه التربية وعوّل عليها، وجعل لهما أهدافا، وجعلها قادرة على ضبط سلوك الإنسان، بحيث لو التزم بهذه القيم الخلقية فإن ولاءه يكون لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين. وبحيث يكون سلوكه متوافقا مع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- وهذه القيم الخلقية تحول بين الإنسان وبين الانحلال الأخلاقى إذ تقاوم فيه الإفراط والتفريط والتعصب والتعنت والتشدد، وتوجهه إلى التسامح والعفو والإحسان.

بل إن هذه القيم الخلقية الإسلامية تعصم صاحبها عن كل ما يغضب الله تبارك وتعالى.[2]

والمبدأ الرابع :

تربية جسم الإنسان.

وهذا الجسم نعمة من الله تعالى على الإنسان أودع فيه الروح والعقل، وجعل فيه الجوارح كلها التى يدخل الإنسان بها جنة الله أو ناره - كما أوضحنا آنفا -.

- وعبادات الإسلام كلها تحتاج إلى بدن صحيح قوى، ولذلك حرم الإسلام كل ما يضعف البدن من طعام أوشراب أو لذة محرمة أو إفراط فى تناول ما يضر الجسم، وأباح ما نفعه فى حدود مرسومة محدودة، فقال تعالى: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍ خير...».

---

(١) انظر للمؤلف: التربية العقلية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٢) انظر للمؤلف: التربية الخلقية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

والمبدأ الخامس:

تربية المسلم اجتماعيا

وذلك أن المسلم جزء من أسرة من مجتمع من عالم إسلامى مترامى الأطراف يضم اليوم أكثر من ستين دولة وأكثر من ألف مليون من البشر.

وللمسلم فى كل مجال من هذه المجالات كلها - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - عمل جليل يجب أن يقوم به مستجيبا لأمر الله تعالى.

فهو عضو فى أسرة له فيها عمل وله حقوق وعليه واجبات، وبعد قليل هو رب أسرة له فيها عمل وله حقوق وعليه واجبات، وهو عضو فى مسجد له فيه حقوق على إخوانه وعليه واجبات نحوهم، ثم هو عضو فى مجتمع مسلم ودولة مسلمة وعالم إسلامى، وكل ذلك له فيه عمل وله حقوق وعليه واجبات.

وتربية الإنسان على أن يمارس حقوقه أو يتنازل عنها أو عن بعضها بعفو وتسامح، وعلى أن يؤدى واجباته لا يقصر فيها أو يتخلى عنها هى التربية الاجتماعية الصحيحة المقيدة للفرد وللأسرة وللمجتمع وللدولة وللعالم الإسلامى كله.

والمبدأ السادس:

تربية المسلم اقتصاديا.

وهذه التربية ضرورية يجب أن يعد لها المسلم منذ صغره فيتعلم مقاومة الإسراف والتبذير، وإنفاق المال فى غير وجوهه المشروعة،ويقاوم فى نفسه التقتير والبخل والشح وحب المال لذات المال.

ثم تتسع دائرة تربيته الاقتصادية فيتعلم كيف يتوسط فى إنفاقه ويؤدى فيه حقوق الله وحقوق الناس، ويتعلم كيف يتعاون مع غيره من المسلمين فى تنمية المال وتثميره فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة ونحوها، ليدعم بذلك اقتصاد وطنه،ويجنبه شر الديون الربوية والسيطرة الاقتصادية.

● وروح الاقتصاد هى مقاومة التبذير فى المال وتبديده، وإنفاق ما فوق الحاجة، أو تضييع المال بحبسه عن المشاركة فى الأعمال والمشروعات التى تعود على المجتمع بالخير، لأن هذا الحبس هو الكنز الذى حرّمه الله وهدَّد فاعليه قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ

﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

[التوبة: ٣٤، ٣٥].

إن المال إذا أنفق فى سبيل الله كان أروج ما يكون وأربح ما يكون إذ هو يقع فى يد الله سبحانه وتعالى فيجازى عليه أحسن الجزاء، وسبيل الله هو كل ما فيه مصلحة عامة للمجتمع المسلم بل ما فيه مصلحة للإنسان المسلم لتدفع عنه الحاجة وتحوله من محتاج إلى مكتف.

والمبدأ السابع:

تربية المسلم جهاديا.

وإن المقولة الصحيحة المسَلَّم بها لدى علماء الإسلام فى كل العصور هى: أنه لا إسلام بغير جهاد، ولاجهاد بغيرتضحية.

- والإسلام يربى الفرد على الجهاد بأنواعه كلها.

– جهاد الشيطان والهوى بكف النفس عن المعاصى والآثام.

– والجهاد بكلمة الحق عند أى سلطان جائر.

– والجهاد لأعداء الله أعداء المسلمين.

- وهذه الأنواع من الجهاد تحتاج من المجاهد إلى التضحية وبذل المال والجهد والوقت والنفس فى ميادين القتال لتكون كلمة الله هى العليا.(١)

وهذه المبادئ فى تربية الفرد المسلم هى أسمى ما تكون المبادئ وأعلاها؛ لما تشتمل عليه من قيم رفيعة وإنسانية كريمة، وهى المبادئ التى من أجلها يتجرد المسلمون من كثير من الأعراض والأغراض ليقفوا أنفسهم وجهودهم على تطبيق هذه المبادئ الإنسانية الرفيعة السامية.

---

(١) للتوسع فى موضوع الجهاد: انظرللمؤلف: ركن الجهاد وهو الحلقة الرابعة من سلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا.

ثالثًا : التميُّز والانفراد

من خصائص الفكرة الإسلامية أنها متميزة على سائر الأفكار، ومنفردة دونها بصفات لا توجد إلا بها.

– فالتميز نعني به ظهور فضل الإسلام على غيره من النظم والأديان.

– والانفراد نعني به استقلال الإسلام بمبادئ لا يشاركه فيها دين سواه.

وكلاهما مما يعد من خصائصه التي توجب على المسلمين أن يتجردوا لهذه الفكرة الإسلامية من كل من سواها من المبادئ والنظم والنظريات.

● وقد تميز الإسلام وانفرد بخصائص كثيرة أبرزها ثلاثة :

– أنه دين الفِطْرة السوية.

– وأنه دين العقيدة الصحيحة.

– وأنه دين المبادئ الثابتة.

١ – الإسلام هو دين الفطرة السوية.

الفطرة هي الخلقة التي خلق الله الناس عليها أول ما خلقهم، وقد فطرهم على التدين، فكان التدين لهم ضرورة اجتماعية لا يستطيعون العيش في مجتمع آمن إلا به، فالإنسان متدين بطبعه كما هو مدني بالطبع أي لا يعيش إلا هكذا.

والدين أي دين ضرورة روحية عقلية اجتماعية إذا فقده الإنسان انهار روحيا وعقليا واجتماعيا، وإن بدا يسعى على قدمين ويمارس أسباب الحياة من طعام وشراب وتناسل!!!.

إن الإنسان بغير دين هو والحيوان سواء كل منهما يحاول أن يتمسك بالأسباب المادية التي تبقي عليه مظاهرالحياة وشكلها، أما جوهرها وحقيقتها فبعيدة عنه بعد السماء عن الأرض، مادام بعيداً عن الدين، إن الدين كالماء والهواء لا حياة إلا به.

● وإذا كان ذلك شأن الدين أي دين، فمابالنا بدين الإسلام خاتم الأديان وأتمها وأكملها وأرضاها لله تعالى؟

إنه دين الفطرة السوية التي فطر الله الناس خلقها ومن أحسن من الله فطرة، ولن تتبدل هذه الفطرة مهما أمعن الإنسان في التعلق بأسباب الحياة المادية، ومهما تفنن في أنواع

الرفاهية الحسية، فإن أقرب المشاهدات لنا فى هذا العصر تؤكد لنا أن أرقى البلاد فى الأخذ بالأسباب المرفهة للحياة هى أكثر البلاد خواء أدى فيها إلى زيادة عدد المنتحرين الراغبين عن هذه الحياة المادية- كما هو الشأن فى السويد والنرويج وأمريكا-، كما تقول بذلك تقاريرهم وأخبارهم!!!

- إن الفطرة السوية هى الفطرة المعتدلة التى تبتعد بصاحبها عن الإفراط فى أى شيء، أو التفريط فى متطلبات الحياة الإنسانية الكريمة أو الشذوذ عن الاعتدال والتوسط الذى هيأ الله الإنسان له.
- إن الله تعالى خلق الإنسان مفطورا على أن يتدين، أى تكون له عبادة يتوجه بها إلى الله تعالى.

فكما أن الإنسان يشعر بالجوع فيلتمس الغذاء بفطرته، ويشعر بالبرودة والحرارة فيلتمس الظل والملبس، فإنه كذلك يحس بحاجته إلى العبادة فيبحث عن إله يعبده، ذلك هو الإنسان السوى الذى لم تفسده الأخيلة والأوهام والشياطين التى تقربه من الحيوان إن هو ابتعد عن التدين أو استغنى عنه.

والعبادة فى جوهرها عبودية للإله الأعلى سبحانه وتعالى وتعبد وتذلل له قد فطر الإنسان عليه.

والكون كله ومافيه من ناس وأشياء ومخلوقات على هذه الأرض أو فى السماء يعبد الله تعالى بقانون الفطرة أو ناموسها، وقد دلت آيات القرآن الكريم على ذلك:

- قال الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [الإسراء: ٤٤]

فالتسبيح فى هذه الآية عبادة- أى طاعة له سبحانه وتعالى بحكم الفطرة.

- وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج: ١٨]، والسجود فى هذه الآية بمعنى العبادة والطاعة أى الخضوع لقانون الفطرة وناموسها.

- فكل الناس وسائر المخلوقات إذن تعبد الله طوعا أو كرها خضوعا لناموس الفطرة، حتى إن الجوارح التي تعصى الله، واللسان الذى يكذب المرسلين ويتحدى الله تعالى ويعبد غيره، كل تلك الجوارح لاتتحرك ولاتمارس الطاعة أو المعصية إلا لعبادة الله وحده وفق قانون الفطرة.

غير أن بعض الناس -وهم يحققون لأنفسهم مقتضيات الفطرة ضلوا عن الهدف الحقيقى لهذه الفطرة، وعلى سبيل المثال: فإن هدف الفطرة عند الجوع هو تناول الطعام والشراب للمحافظة على فطرة الحياة، لكنهم ضلوا عن هذا الهدف فجعلوا تناول الطعام والشراب غايةً لاوسيلة فعاشوا ليأكلوا، ولم يأكلوا ليعيشوا!!

● وهكذا ورث الخلف عن السلف هذا الضلال فصار تراثا عن الآباء والأجداد عز عليهم أن يتخلوا عنه، وبهذه المحافظة على تلك الموروثات، فقدوا حرية الاختيار والانتخاب، فتحول هذا التراث إلى قانون مقدس- على الرغم من أنه قيد، وتقليد وسلب لحرية الإرادة.

● وكان هذا الضلال أو مثله عندما غفل الإنسان عن هدف الفطرة فى حاجته إلى معبود هو الذى خلقه وأنعم عليه بنعمة الحياة، فخدع عنه بما صنعه الآباء والأجداد من تصورات لإله ليس هو هدف الفطرة، فتخبط فى متاهات الضلال فتوجه إلى عبادة أشياء مما على الأرض رأى فيها نفعا له كالشجر والحجر والماء والنار والحيوان، بل عبد الأعضاء التناسلية لما رآه فيها من منحه الامتداد فى أبناء وأحفاد.

- وبعض الناس توجه إلى السماء، فعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر، واعتبرها أجدر بالعبادة من مخلوقات الأرض.

- وبعض الناس توجه فى عبادته إلى المعانى المجردة وعالم الأرواح، والنور والحب والجمال والقوة والعقل وسجد لها ووجد أنها الأجدر بأن تعبد.

- ثم اتجه بعض الناس الذين رأوا فى هذه المعبودات من دون الله، عجزا وخضوعا لقانون فطرتها بحيث لاتحيد عنه، فلا الشمس ينبغى لها أن تدك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون، عندئذ أيقنوا أنها معبودات باطلة وأنها جميعا مسخرة لله عابدة له بفطرتها، فاتجهوا إلى عبادة الله وحده لا إله إلا هو فاطمأنت قلوبهم إلى ذلك، وبذكر الله تطمئن القلوب.

وهنا هدأ الإنسان واستقر، وخرج من ظلمات الحيرة والقلق والاضطراب، وعرف بفطرته السوية أن لا إله إلا الله مالكه وخالقه ورازقه.

● ومن هنا تميز الإنسان على سائر مخلوقات الله إذ عبد الله وحده مختارا، وعبدته سائر مخلوقاته اضطرارا.

ومالم يعبد الإنسان ربه اختياراً وقد منحه الله من القوة والكفاءة والقدرة على الرقى والترقى، ليعرف ربه ويهتدى إليه، فهو فى درجة أقل من درجة الحيوان والجماد وسائر

مخلوقات الله، إنه بذلك فى أسفل السافلين بعد أن خلقه الله فى أحسن تقويم، فلم يهتد إلى ربه ولم يعرفه، وتلك هى القاعدة فى خلق الله للإنسان فى أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل السافلين لأنه لم يعرف إلهه الحق: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ** ﴾ [التين: ٤، ٥].

ويستثنى من هذه القاعدة من عرف ربه فآمن به، ومن التزم منهجه فسلك فى حياته سلوك ممارسة العمل الصالح: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [التين: ٦]، وذلك الأجر المتصل- غير الممنون- مكافأة على عبادته الاختيارية لله سبحانه وتعالى.

- الإنسان السوى الفطرة يعرف معبوده الحيقى معرفة خالصة، ويطيعه فيما أمر وفيما نهى، أى يتبع المنهج الذى أوحاه إلى رسوله الخاتم ﷺ فى كل أمور دينه ودنياه، وليس من أمور الدين فحسب، إذ يخطىء من يظن أن عبادة الله وفق منهجه هى فقط النطق بالشهادتين والصلاة والصيام والزكاة والحج، ونوافل هذه الفرائض من أذكار وأوراد وصلوات وصيام وصدقة وعمرة، حتى لو أداها على أحسن وجه وأكمله، لأن العبادة لله تعالى أوسع من ذلك وأشمل، لأنها تتناول الدنيا وكل ما فيها من حركة وعمل، إنها تتناول الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا إلى أن تصل كلمة الله ومنهجه إلى عباده أجمعين.

بهذا المفهوم الواسع الصحيح للعبادة يخرج المسلمون مما يعيشون فيه اليوم من ذل وفرقة وضياع، وحاجة إلى أعدائهم فى الطعام والشراب والسلاح، كأنهم بهذا الاحتياج يتخذون هؤلاء الأعداء آلهة من دون الله أو آلهة مع الله، فلقد وعد الله تعالى بهذه الحقائق فى قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور: ٥٥].

وبعـــد:

فالإسلام أو الفكرة الإسلامية تميز وانفرد بأنه دين الفطرة، ونرجو أن نكون قد أوضحنا ذلك فى تلك الصفحات.

ومن هنا كان التجرد لهذا الدين الإسلامى أو للفكرة الإسلامية ضروريا وأساسيا، وكان مبعث سعادة للإنسان فى معاشه ومعاده، ولأى شيء يكون التجرد إن لم يكن لهذا الدين العظيم؟.

٢ - وأنه دين العقيدة الصحيحة

يتميز الإسلام وينفرد بأنه الدين الوحيد الذى جاء للناس بعقيدة صحيحة فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وسائر الأمور الغيبية.

وهذا الدين هو الوحيد بين الأديان الذى تكفل الله بحفظه بحفظ القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. بينما استحفظ الله الأحبارَ والرهبان كتبه التى سبقت نزول القرآن الكريم.

● ومن أجل هذا جاءت العقيدة فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، خالية من أى تحريف أو تبديل، كما حدث فى الكتب السابقة على نحو من الأنحاء لا يشك فى حدوثه إلاَّ مكابرٌ أو مغالط.

- فالعقيدة الصحيحة كما تحدث عنها القرآن الكريم جاءت كاملة من عند الله، لا من تصورات البشر وفلسفاتهم، وأن الرسول الخاتم ﷺ لم يكن له عمل فى توضيح هذه العقيدة الصحيحة إلا عمل المبلغ عن ربه سبحانه وتعالى بصدق وأمانة.

● أما تقبل عقول الناس وقلوبهم للعقيدة الصحيحة فهو من أمر الله تعالى، وخارج تماما عن اختصاص الرسول ﷺ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

● وهذه العقيدة الصحيحة التى هى منحة من الله تعالى، مصدرها الله تعالى، ولذلك جاءت خالية من كل عيب أو نقص أو جهل من ذلك الذى وقع فيه الناس من قبل نزول القرآن، وهم يتصورون اعتقادا مّا فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

● هذه العقيدة الإسلامية التى جاء بها الإسلام ملائمة للفطرة السوية للإنسان ملبية لحاجاتها جميعاً، مما جعل هذه العقيدة خير أساس يقوم عليه منهج للحياة الإنسانية الكريمة.

● والعقيدة الإسلامية فى الله تعالى ذاته وصفاته وأفعاله إنما جاءت ملائمة لقدرات الإنسان العقلية والروحية، إذ هو بحكم خلقته وفطرته محدود فى زمان ومكان وطاقة لا يمكن له أن يتجاوزها بحال، فالإنسان ليس كلياً ولا مُطلقاً ولا أزليا ولا أبدياً، ومن أجل ذلك كان

إدراكه محدوداً بهذه الحدود.

وقد حجب الله تعالى عن الإنسان ما لا يستطيع أن يدركه بحكم خلقته، وحال بينه وبين ما لا يلزمه فى القيام بوظيفته فى الحياة الدنيا.

– وأول هذه التصورات فى العقيدة الإسلامية: هو معرفة كنه الذات الإلهية معرفة تلائم استعداد الإنسان وقدراته لأنه يقيس على ما يعرفه فى حياته البشرية من مماثلات لتلك الذات الإلهية، والقرآن الكريم يمده بالمعرفة الصحيحة عن الذات الإلهية فى قوله تعالى عن نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]. وفى قوله تعالى: ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٤].

– وثانى هذه التصورات هو: مسألة الروح، فقد حدث القرآنُ الكريم الإنسانَ عنها بما يمكن أن يدركه بقدراته وحجب عنه ما لا يستطيع إدراكه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

غير أن منهج الإسلام المفصَّل فى التربية أعطى لتربية الروح من الاهتمام ما يمكن أن تصل من خلاله إلى أرقى مستوى لها.[١]

– وثالث هذه التصورات: هو أمور الغيب التى حجب الله على الناس معرفتها إلا بالقدر الذى يلائم قدرات الإنسان، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ومن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].

● هذه هى العقيدة الإسلامية فيما احتفظ الله لنفسه من غيب لا يطلع عليه أحداً من خلقه إلا من ارتضى من رسول، وهى بهذا التحديد عقيدة صحيحة خالية من أنواع التخبط التى ضلت فيها البشرية على مر عصورها فى معرفة الله تعالى، حتى مع وجود أديان لديهم دخلها بعض التحريف والتبديل، فقالت البشرية فى ذات الله على غير علم ولا بصيرة ولا هدى ولا كتاب منير، فكانت تلك الفجاجة وهذا القصور والجهل والضلال والإضلال.

---

(١) انظر لنا: التربية الروحية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

– ورابع هذه التصورات: هو تصور الملائكة؛ من هم؟ وما وظيفتهم؟ وما صلة الإيمان بهم بالإيمان بالله تعالى؟

● فلقد تخبط الناس فى تصور الملائكة وقالوا فيهم بغير علم حتى جاء الإسلام للناس فى الملائكة بفصل الخطاب.

فقال: إن الملائكة عباد الله المكرمون، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]. وفى قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

● وأن للملائكة وظائف معروفة كلفهم الله تعالى بها، وأن بعضهم قد حددت له وظيفة بعينها كجبريل وإسرافيل وغيرهما، وأن الله يصطفى منهم رسلاً.

● وإنما وجب الإيمان بالملائكة وكان مكملا للإيمان وركنا من أركانه لأنهم الذين ينزلون بالوحى الإلهى على الرسل والأنبياء يبلغونهم رسالات ربهم، قال الله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٨].

– وخامس هذه التصورات: هو الإيمان بالرسل عليهم السلام وبالكتب التى جاءوا بها من عند الله، وذلك أصل من أصول العقيدة الإسلامية، والرسل والملائكة اصطفاهم الله وآتاهم العلم والحكمة والبصيرة، وألزمهم التبليغ عنه والصدق والأمانة فيما يبلغون عن الله تعالى، وهؤلاء جميعاً يجب الإيمان بهم كما تجب طاعتهم فيما بلغوا عن ربهم سبحانه وتعالى، وما بلغوا الناس ولا أمروهم إلا بما يصلح دينهم ودنياهم.

● أما ما يجىء به الناس للناس وما يضعون لهم من قوانين ونظم فإن ذلك كله قد أثبت فشله فيما يحقق للناس الأمن والاستقرار سواء أكان هؤلاء الواضعون لتلك النظم والقوانين من علماء القانون أم من علماء الفلسفة أو التصوف أو الاجتماع أو السياسة والاقتصاد.

● والرسالة الخاتمة التى جاء بها الرسول الخاتم ﷺ والتى تكفل الله تعالى بحفظها هى الواجبة

الاتباع.

- وسادس هذه التصورات: هو اليوم الآخر وما يجرى فيه من بعث وحشر وحساب وجزاء، والإيمان به مكمل للإيمان بالله، ومن كفر به فقد كفر بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ ...وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤٧]. ومن قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠، ٢١].

- لقد جاء الإسلام بالعقيدة الصحيحة فى كل هذه الأمور التى لا يكون الإيمان إلا بهذا التصور الصحيح لها والإيمان بها جميعا.

وبهذا التصور الصحيح للعقيدة يتميز الإسلام عن غيره من الأديان -إذ دخلها التحريف والتبديل وحُفظ هو من ذلك- وينفرد بذلك من كل ما جاء به الفلاسفة والعلماء على اختلاف عصورهم ومذاهبهم، وسلامة العقيدة وصحتها جزء أصيل من أمن الإنسان واستقراره، وهو أساس لا غنى عنه فى ممارسة الإنسان لحياة إنسانية كريمة.

٣ - وأنه دين المبادئ الثابتة

إن ثبات المبدأ وقدرته مع ثباته على مواكبة المتغيرات، مما يدعم التميز والانفراد لهذه المبادئ والنظم.

- والفكرة الإسلامية ذات مبادئ ثابتة فى مجالات ثلاثة لا يجوز فيها التغير لتغير الزمان أو المكان أو الناس، وتلك المجالات هى:

- العقيدة.

- والعبادة.

- والخلق.

فهذه ثوابت من يوم جاء بها محمد ﷺ، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين، لأن تغير أى شىء منها يصيب الإنسان بالاضطراب ويجلب إليه الخراب والدمار فى كل ما يحيط به، ولأن هذه الثوابت تدور حولها أعمال الإنسان كلها، وتقاس عليها فى الصحة والفساد والدفع والضرر فى معاش الإنسان ومعاده.

● أما العقيدة الثابتة فلها مفردات، ومفرداتها كذلك ثابتة، وكل تغير فيها أو في مفرداتها ينسف الإيمان نفسه ويزيله من أساسه.

– وتلك المفردات –كما سبق أن أشرنا– هي كل ما يتصل بذات الله تعالى وصفاته وأسمائه وأفعاله، وأن كل ما عداه من مخلوقاته، ومن ملكه، وأن نواميس الكون كلها من صنعه، وأنه سبحانه خلق الإنس والجن ليعبدوه، وأنه كرم الإنسان وجعل لنفسه وماله وعرضه حرمة لا يجوز المساس بها، وأنه سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض واستخلفه فيها وطالبه بأن يعمرها.

كل هذه المفردات ثابتة غير قابلة للتغيير أو التطوير، ولا مجال فيها لزيادة عليها أو نقصان منها، لتستقيم بهذا الثبات حياة الإنسان في الدنيا والآخرة.

● وأما العبادة لله تعالى الثابتة المستقرة، فلها كذلك مفردات ثابتة لا يجرى عليها مع تطاول الزمان وتنوع المكان شيء من التغيير أو التبديل فضلاً عن التطوير.

– وهذه المفردات للعبادة، وكل ما يتصل بها من أن الدين عند الله هو الإسلام وأنه تعالى لا يقبل من أحد دينا سواه، وأن لهذا الإسلام أركانا معروفة بني عليها، وأن العمل الصالح المنضبط مع أوامر الله تعالى ونواهيه ومنهجه ونظامه، كل ذلك ثابت لا يتغير بتغير الزمان والمكان والناس، ولا مجال فيه لتغيير أو تبديل أو تجديد أو إبداع، مما ينادى به الضالون الذين يشتطون في تحدى الدين وعباداته مقلدين في ذلك –عن عَمىً ما فعله الغرب في تحدى الكنيسة التي احتكرت الدين واستغلت المتدينين وحرمتهم من حرية الفكر وحرية العمل، فثار الغرب عليها وعلى تلك «الكثلكة».

وليس في مفردات العبادة الإسلامية ما يمكن أن يثور عليه أحد فالعبادات كلها لله وليست لرجال الدين، وكل الناس يؤدونها لوجه الله تعالى لا قربانا لأحد.

● وأما الأخلاق التي جاء بها الإسلام فثابتة أيضا وغير قابلة أبداً لأن تتغير بتغير الزمان والمكان والناس، وعلى سبيل المثال فسوف يظل الصدق والأمانة والعفة ثوابت أخلاقية ما بقي الزمان والمكان والناس.

– ومفردات هذه الأخلاق الثابتة لها مجالان أساسيان هما: مجموعة القيم الخلقية الفاضلة، ومجموعة القيم الخلقية الراذلة، أي ما يأمر الله تعالى من التحلي به وما ينهى عن ممارسته.

وكل ذلك ثابت لا مجال لتغييره، إذ هو من صنع الله تبارك وتعالى، وقد قضى أن التمسك بهذه الفضائل والتخلى عن هذه الرذائل هو فى صالح الإنسان فى كل زمان ومكان.

- والقيم الفاضلة من: صدق وأمانة ووفاء ونجدة ودعوة إلى الخير وأمر بالمعروف، وجهاد فى سبيل الله وغيرها من عشرات الفضائل التى تلتمس فى نصوص الكتاب والسنة ثابتة غير قابلة للتغيير ولا للتبديل ولا للتطوير والإبداع.

- والقيم الراذلة من: كذب وخيانة وغدر وظلم ودعوة إلى الشر والفساد وأمر بالمنكر عموما أو تحبيب فيه وقعود عن الجهاد فى سبيل الله، وغير ذلك من عشرات الرذائل التى حرمها الله فى كتابه وفى سنة رسوله ﷺ، أيضاً ثابتة غير قابلة للتغيير ولا للتبديل.

- تلك نماذج من المبادئ العامة فى مجالى الفضائل والرذائل جاء بها الإسلام وجاء بها كل دين من عند الله لم يدخله تحريف ولا تبديل.

- ولهذه المبادئ الثابتة المستمرة على ثباتها مزايا نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

أولاً:

التناسق والتوافق مع النظام الكونى كله، ذلك النظام الذى أخضعه الله تعالى لقوانين ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، وهذا التناسق والتوافق هو الذى يحفظ على الكون نظامه ويحول بينه وبين الخلل والفساد.

فهذه المبادىء العامة إنما كانت ثابتة لكى تحفظ للكون وللناس والأشياء وسائر المخلوقات استمرارها على النحو الذى قدّر الله تعالى لها حياتها على نظامه، وإلا ضاع الناس والأشياء وسائر المخلوقات.

ثانياً:

الوقاية من جنون التغيير لمجرد التغيير، كما حدث للفكر الغربى والفكر الماركسى، وللشيوعية والاشتراكية وغيرها من المبادئ والنظريات، فقد كان هذا التغيير عندهم ضربا من الخلل والاضطراب وإحداث مزيد من الصراع والتعادى.

إن المبادئ الثابتة فى العقيدة والعبادة والخُلُق هى الحماية والوقاية من كل هذا الصراع.

ثالثاً:

وقاية المجتمع الإنسانى من الحيرة والقلق بسبب الاستمرار فى التغيير، لما يترتب على هذا التغيير من فقد الأمن والاستقرار والدخول فى تجارب جديدة لا يدرى الإنسان عن نتائجها إلا بعد أن يغامر بالدخول فيها.

ولا تجد الإنسانية محوراً آمنا تدور حوله وهى مطمئنة كما تجد فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما تضمناه من مبادئ عامة ثابتة يكون فى الأخذ بها النجاة من كل شر.

رابعاً:

وقاية المجتمع من الصراع الذى يدور بين الحاكم والمحكوم عادة، الحاكم الذى يريد -فى الغالب أن ينتقص من حقوق المحكوم- والمحكوم المفطور على أن يتمسك بحقوقه ويدافع عنها، ومن هنا يقوم الصراع بينهما.

وفى هذه المبادئ الثابتة ما يتحاكم إليه الحاكم والمحكوم بثقة نابعة من أن هذه المبادئ من عند الله خالق الناس وراحمهم والمشرع لهم ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم، وهى مبادئ لا تجامل أحداً على حساب أحد، ولا تظلم أحداً من أجل أحد.

- وعند اضطراب المبادئ وعدم ثباتها:

- فإن بعض الحكام يضيقون الخناق على الناس ويأخذونهم بالظن ويضطهدونهم بالسجون والمعتقلات والنفى والتشريد ليصاب الناس بالهلع والفزع فيسكتون عن حقوقهم، ولكنه غالباً ما يكون سكوتا يأتى عقبه انفجار.

- ومن الحكام من يتركون لمحكوميهم حرية ممارسة الشهوات ويقننون لهم شرب الخمر والزنا واللواط ولعب الميسر، ليسكتوا عما لهم من حقوق لدى الحكام.

وما سبب هذا وذاك إلا غيبة المبادئ الثابتة التى يعرفها ويتمسك بها الحاكم والمحكوم على السواء.

- وآيات القرآن الكريم التى تؤيد مزايا هذا الثبات لتلك المبادئ التى جاءت من عند الله كثيرة نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

- وقوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

- وقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨-٢٠].

- وقوله: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

- وقوله: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩].

- وقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

[آل عمران: ٨٥].

- وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

[النساء: ٥٩].

- وقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

- وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فكل هذه الآيات الكريمة تقرر أن ما كان من عند الله من مبادئ عامة ثابت لا يتغير، وأن فى ثباته صالح الناس فى دينهم ودنياهم، ورضى الله عنهم.

● وفائدة الثبات لهذه المبادئ العامة فى الإطار الذى اختاره الله تعالى لها؛ أن يضمن لها أمرين حيويين هما لب التقدم الحضارى، وجوهر الحياة الإنسانية الكريمة، وهما:

الأمر الأول:

الأمن من الخروج عن هذا الإطار الذى وضعه الله، وذلك أن الخروج عنه أو منه حيرة وضلال وضياع وتخبط وخسران للدنيا والآخرة، لأنه خروج على مقتضى الفطرة التى فطر

الله الناس عليها بل فطر عليها المخلوقات جميعاً.

والأمر الآخر:

هو إتاحة حرية الحركة داخل هذا الإطار، على نحو من المرونة والقدرة على مواكبة المتغيرات والمستحدثات في حياة الإنسان، وذلك نماء للحياة الإنسانية للوصول بها وبسائر مفرداتها إلى الحد الذى أراده الله تعالى لتكريم الإنسان وتفضيله على كثير من مخلوقاته.

● ومعنى ذلك أنه مع هذه المبادئ العامة الثابتة، لا جمود ولا رجعية -كما يزعم من يجهلون لب الفكرة الإسلامية وجوهرها وثبات مبادئها مع قدرتها على الحركة ومواكبة المتغيرات في هذا الإطار.

إن هؤلاء الجاهلين يحسبون -مخطئين- أن الإسلام مَدَنِيَّة بين المدنيات الأخرى، أو حضارة تعايش حضارات أقدم أو معاصرة أو آتية، إذ الحق أن الأمر ليس كذلك إطلاقا، لأن الإسلام منهج ونظام أوحاه الله إلى خاتم رسله ﷺ لتعمل به الإنسانية كلها في أى زمان وأى مكان.

ومن أجل ذلك كانت الثقافة الإسلامية مغايرة لكل ثقافة وكان الفكر الإسلامي مختلفاً عن كل فكر، وبالتالى كانت الحضارة الإسلامية في كل فروعها ومعطياتها تحمل الطابع الإيمانى في كل ما تفرزه من معطيات.

وكل هذه الاختلافات والمغايرة في الثقافة والفكر والحضارة لصالح الإسلام ومحسوبة له لا عليه، وداعمة للحياة الإنسانية الكريمة في كل الظروف.

وإذا اختلف ما كان من عند الله -لأنه محكوم بالكتاب والسنة- مع ما كان عند الناس -على ما فيهم من قصور- فإن هذا الاختلاف لصالح ما كان من عند الله، ولصالح من أخذ بما جاء من عند الله.

● فإن قال قائل - وكثيراً ما قيل هذا ويقال- فما الذى جعل المسلمين الآخذين بما هو أفضل لأنه من عند الله في مكان الضعف والتراجع بل الاحتياج والتبعية لمن أخذوا بما وضعه الناس لأنفسهم من قوانين ونظم وثقافة وفكر وحضارة؟.

كان الجواب هو: أن المسلمين الضعفاء المتراجعين حضارياً المحتاجين إلى غير المسلمين، لا يأخذون بكل ما جاء من عند الله وإنما يخلطون به سواه، أو يستبدلون غيره به.

أما الذين يربطون بين الإسلام نفسه منهجاً ونظاماً وثقافة وفكراً ومعطيات حضارية نابعة من هذا المنهج، وبين واقع المسلمين السيىء الذى أدت إليه عداوات وحروب لكل ما جاء من عند الله، فهؤلاء تحركهم -فيما يقولون- الأحقاد والضغائن حتى لو كانوا من المسلمين، إنهم إذا كانوا من المسلمين يفقدون الولاء لله ولدينه ومنهجه ونظامه، ويرون الانتماء إلى ما عند الناس من مظاهر حضارية تخفى وراءها السم الزعاف.

وإذا كان القائلون بذلك من غير المسلمين من يهود ونصارى، أو ملحدين، فما ذلك بمستغرب منهم فإن عداوتهم للإسلام والمسلمين عداوة تقليدية وموروثة -على الرغم من أن الإسلام كما أوضحنا آنفاً يقول: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٨].

وكم بر المسلمون فى فترات ازدهارهم هؤلاء الأعداء وأقسطوا إليهم -وكان ذلك مع دولة الروم عند الانتصار عليها، ومع اليهود يوم اضطهدوا فى أسبانيا ومع الصليبيين الغازين يوم أُجْلوا عن مصر والشام- ولكنهم أعماهم الحقد فضلوا عن الحق والإنصاف ضلالاً بعيداً.

- إن الإسلام ومبادئه العامة فى ثبات واستقرار يحتم على المسلمين أن يتعاملوا مع أنفسهم طائعين وعصاة، ومع غيرهم أهل كتاب ومشركين ذلك التعامل الذى يحكمه البرّ والعدل والالتزام بأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه.

فإن حدث تغير فى ذلك فالعيب فى المسلمين الذين لم يلتزموا بمنهج الإسلام، وليس عيباً فى منهج الإسلام ولا فى مبادئه بحال من الأحوال.

رابعا: الواقعية ومواكبة المتغيرات

من خصائص الفكرة الإسلامية، أو من خصائص الإسلام بوصفه دينا ومنهجاً ونظاماً؛ أن يتعامل مع الواقع الذى يعيشه الناس تعاملاً يعترف بما فيه من خير ينفع الناس، وأن يُعدِّل ما فيه من عِوَج يُفَوِّتُ على الناس مصالحهم، وأن يقاوم ما فيه من شر يسيء إلى حاضر الناس أو مستقبلهم، ويوجه هذا الواقع إلى ما يعود على الناس بالخير فى دينهم ودنياهم.

وإنما يتعامل الإسلام هكذا مع الواقع الذى يعيشه الناس لأن هدفه الكبير هو إصلاح الحياة الإنسانية كلها، بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى ومن الباطل إلى الحق، فالظلمة والضلال والباطل قد تكون من هذا الواقع أو مسيطرة على بعضه فتصيب الإنسان بالأضرار والأخطار، ولا مخرج للإنسان منها إلا بأن يعتصم بالدين ويلتزم بمنهجه ونظامه.

وهذا الهدف الكبير للدين الخاتم، وللرسول الخاتم ﷺ يفهم من قول الله تبارك وتعالى: **﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾** [إبراهيم: ١-٣]. ومن قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [الحديد: ٩].

هكذا يستهدف الإسلام أن ينقل الناس من دافع سيىء تفرضه عليهم الضلالات، وأعوان الباطل، أو تحببه إليهم شهواتهم وهمزات شياطينهم، إلى حياة تلائم إنسانيتهم التى كرمها الله تعالى وأحاطها بنعم لا تحصى.

● وسوف نجعل حديثنا عن الواقعية التى يتعامل معها منهج الإسلام فى الإصلاح، فى نقاط ثلاث هى:

- مصادر الواقعية فى الإسلام.

– وحوافظ هذه الواقعية الإسلامية.

– وأنواع هذه الواقعية الإنسانية التى يتعامل معها الإسلام.

سائلاً الله تبارك وتعالى العون والتوفيق.

١ – مصادر الواقعية فى الإسلام

إذا كان الإنسان فى أى زمان ومكان يعيش واقعاً، تُكَوِّنه وتدعو إليه حاجاته ورغباته.

وإذا كان هذا الواقع الذى يعيشه الإنسان قد يكون ملائما لفطرته وقد لا يكون ملائما لها، فإن تعديل هذا الواقع ليلائم الفطرة السليمة للإنسان هو هدف المصلحين والمفكرين.

● والأديان كلها فى حقيقتها وجوهرها برامج إصلاح لواقع الإنسان، والإسلام من بين هذه الأديان هو الأتم وهو الأكمل وهو الخاتم، ولذلك جاء للإنسان بنظام حياة دنيوية لو اتبعه والتزم به عاش أحسن واقع يحقق له سعادة الدنيا والآخرة.

● وإذا كان واقع الإنسان يجب أن يلائم حاجات الإنسان الضرورية والكمالية، فإن الإسلام وهو منهج وضعه رب العالمين هو وحده الذى يرسم لهذا الواقع معالم وأبعاداً يستطيع الإنسان إذا سعى فى إطارها ولم يخرج عنه، أن يصنع لنفسه واقعاً ملائماً محققا لحاجاته كلها.

● وحاجات الإنسان التى يجب أن تشبع فى حدود ما يصلحه وما يصلح له، هى:

– حاجات عقله وروحه.

– وحاجات بدنه وجوارحه.

– وحاجات تعامله مع الناس.

● أما حاجات عقله وروحه؛ فإن مصدرها فى الإسلام هو ما جاءه به: من عقيدة صحيحة فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومن دعوة إلى حرية العقل بدعوته إلى النظر والتأمل والتدبر والسير فى الأرض للحصول على المعرفة والاستفادة بسير الأولين.

إنها عقيدة صحيحة تعلم الإنسان كيف يعيش واقعاً كريماً لنفسه ولغيره من الناس.

– فهى تجعله منصفا فى تعامله مع الآخرين مما لا يشاركونه فى عقيدته، متآخياً مع من يشاركونه فيها.

– وهى تلزمه بألا يكره أحداً على اعتناق دينه أو معتقده، وإنما تعلمه أن يعرض عقيدته على الآخرين ثم يكتفى بهذا العرض وبعد ذلك: من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

– وهى عقيدة تلزمه بأن يتعامل تعاملاً حسناً فى كل موقف من مواقفه مع الآخرين سلماً وحرباً.

● وأما حاجات بدنه وجوارحه؛ فإن الإسلام شرع له إشباع هذه الحاجات دون إسراف ودون تقتير، وفى أطُر حددتها الشريعة وجعلت تجاوزها حراماً، وسمحت له أن يستجيب لحاجات بدنه كلها مادام ذلك مما أحل الله. وهذبت بدنه وجوارحه وروحه بالعبادات.

– والعبادات مدرسة تطبع من يتعلم فيها على التوجه الصحيح فى كل جانب من جوانب الحياة، وتهيىء له صفاء القلب ونقاء الروح من الغل والحسد وكل رذيلة.

والعبادات تعلم الصبر والتحكم فى شهوات النفس والبدن وتولد فى الإنسان الحس الاجتماعى والتعاطف مع الفقراء وتولد فيه الإحساس بالطهارة والنظافة، وتعطفه على المسلمين فى شتى بقاع الأرض فى تجمع كبير من أقصى الأرض إلى أقصاها فى موسم الحج ليشهدوا منافع لهم.

إن العبادات فى الإسلام مدرسة تعلم الناس أن لهم حدوداً يجب أن يقفوا عندها ولا يتجاوزوها وإلا وقعوا فى ظلم أنفسهم وظلم المنهج الذى اختاره الله لهم، وفى ظلم الناس.

● فأما حاجات الإنسان إلى تعامله مع الآخرين فهى من الحاجات الضرورية للإنسان بوصفه قد فطر على ألا يعيش وحده، فلابد أن يكون عضواً فى مجتمع صغر هذا المجتمع كالأسرة أو كبر كالعالم الإسلامى كله.

وضابط هذا التعامل ورابطه هو القيم الخلقية التى توجه سلوك الإنسان وتحول بينه وبين ما يضر بنفسه أو بغيره من الناس، فى إطار ضخم ومدى واسع من الفضائل التى أوجب الإسلام على الإنسان أن يتصف بها، ومن الرذائل التى حرَّم عليها أن يمارسها أو يقترب منها، ومن داخل هذا الإطار يتحرك الإنسان متعاملاً مع ربه ومع نفسه ومع المسلمين جميعاً، بل مع غير المسلمين، لأن القيم الخلقية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الناس.

إن القيم الخلقية فى الإسلام مدرسة يتعلم منها المسلم كيف يتحلى بالفضائل، وكيف يتخلى عن الرذائل، وكيف يمارس حقوقه وكيف يؤدى واجباته، وكيف يتعامل مع الناس بمثل ما يحب أن يتعامل الناس معه به.

إنها قِيَمٌ تحمله على أن يكون إيجابياً متحمساً لكل عمل يقوم به مادام مما أوجب الله،

وتحظر عليه السلبية والتراخى والتباطؤ وقلة المبالاة، ليكون عضواً نافعاً فاعلاً فى المجتمع الذى يعيش فيه، بل فى العالم الإسلامى الذى ينتمى إليه.

إنها القيم التى تجعل منه مجاهداً فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، كلما سمع هَيْعَةً طار إليها شوقاً إلى رضا الله تعالى وجنته.

وهذه الثوابت الثلاثة:

العقيدة والعبادة والخلق على النحو الذى جاء به الإسلام هى مصادر الواقعية التى يجب أن يعيشها الإنسان، وهى مصادر ثابتة مستمرة صحيحة سليمة قادرة على أن تكفل لمن تمسك بها حياة إنسانية كريمة.

ويضاف إلى هذه المصادر الثابتة كثير من اجتهادات المسلمين فيما يجد من أحداث، بشرط واحد هو ألا يصطدم اجتهادهم مع أصل من هذه الأصول أو مصدر من هذه المصادر– العقيدة والعبادة والقيم الخلقية.

- وهذه الواقعية للإنسان المسلم التى أخذت من هذه المصادر الثلاثة هى القادرة – بما فيها من مرونة وفتح لباب الاجتهاد– على أن تكفل له مواكبة للمتغيرات أو تعديلاً لها أو تبديلاً، وهى بهذه الظروف والملابسات ومن خلال الثبات لهذه الأصول، والقدرة على التغيير والتطوير كلما دعت حاجة تميز الفكرة الإسلامية عن غيرها من الأديان والنظم والمناهج وتكفل للإنسان أن يقيم على أسسها حضارة من أرقى الحضارات التى يمكن أن يقيمها الإنسان فى أى زمان وأى مكان.

٢ - حوافظ الواقعية الإسلامية

هذه الواقعية الإسلامية التى اختار الله للإنسان عناصرها الثابتة، ورضى الله أن يشق طريقه فى الحياة على هدى منها.

هذه الواقعية لابد لها من حوافظ تضمن لها البقاء والفاعلية وتحول بينها وبين عبث العابثين، وتحافظ لها على استجابتها لحاجات الناس والمجتمع والدولة والعالم كله استجابة قوية فاعلة، غير معارضة للمبادئ الثابتة -عقيدة وعبادة وخلقاً- هذه الحوافظ كثيرة امتلأت بها آيات القرآن لمن أراد أن يتدبر وحفلت بها السنة النبوية لمن أراد أن يهتدى.

وسوف أوجز الحديث عن هذه الحوافظ فى كلمات لأن التوسع فيها يخرجنا عن سمت الموضوع الذى نحن بصدده، وهى أنواع ثلاثة من الحوافظ هى:

● حوافظ للعقيدة أو الواقع الاعتقادى للمسلمين:

وهى -فى تصورى- ثلاث حوافظ:

الأولى:

بُعد العقيدة الإسلامية عن التجريد، أى الخيال العقلى الذى لا يصدقه الواقع فى كثير من الأحيان إن لم يكن فى كل الأحيان، كما يطمح إلى ذلك الفلاسفة فتستمر محاولاتهم، ولكنهم لا يحصلون منها على شيء يحقق مصلحة الإنسان، وإنما تظل أفكارهم وطموحاتهم حبيسة هذه النظريات التجريدية الهائمة، فلا هى معترفة بواقع الإنسان وحاجته إلى عقيدة صحيحة ولا هى قادرة على أن تتخيل له هذه العقيدة الصحيحة.

● بينما الواقعية الإسلامية تتعامل مع كل الحقائق المحيطة بالإنسان بموضوعية بعيدة تماماً عن التجريد والخيال، وعلى سبيل المثال:

فإن خالق المخلوقات كلها سبحانه رب الناس ورب كل مخلوق، متفرد بالألوهية والربوبية، ليس صورة أو قوة يتمثلها العقل البشرى من عند نفسه، ولكنه سبحانه وتعالى الإله ذو الصفات والأسماء والأفعال التى حددتها وأوضحتها آيات القرآن الكريم، بل أفاضت فيها، فهو سبحانه الرحمن الرحيم لا إله إلا هو الملك القدوس السلام، الخالق البارئ المحيى المميت الباعث الوارث الذى خلق الإنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وخلق له من

نفسه زوجا يسكن إليها، وخلق السموات والأرض، وقدّر اختلاف الألسنة والألوان، ونزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها... إلى آخر ما جاء مفصلاً فى آيات القرآن الكريم[1]، مما يفصل الحديث عن صفات الله تعالى وأسمائه، وأفعاله.

والثانية:

بُعد العقيدة الإسلامية عن الشطحات المثالية أو غير المثالية التى ملأت عقول الفلاسفة القدماء مثل: أفلاطون وأرسطو وأفلوطين.

- فأفلاطون يتصور الإله –كما يملى عليه عقله وما تهيئ له شطحاته؛ إنه فى النهاية: إله لا إرادة له ولا عمل، لأن هذا من مقتضى المثالية والكمال.

وأما الوجود عنده فنوعان:

– عقل مطلق.

– ومادة أولية «هيولى».

والقدرة كلها من العقل المطلق.

والعجز كله من المادة.

وعند أفلاطون: هناك أرباب وأنصاف أرباب... وهناك مُثُل، هى مثل العقل وهى خالدة دائمة، وهذه هى المُثُل العليا لكل موجود يتلبس بالمادة، فكل شجرة مثلاً فيها صفة أو صفات ناقصة عن الشجرة المثال التى هى فى عقل الله منذ القدم، وكل الشجر الذى على وجه الأرض محاكاة لهذه الشجرة المثال.

- وأرسطو يتصور الله تعالى هو العلة الأولى أو المحرك الأول أو المحرك الذى لا يتحرك، وهذا المحرك لابد أن يكون سرمدا لا أول له ولا آخر، وأن يكون كاملاً ومستغنيا عن سواه.

– وأرسطو يقول بعدم العالم، لأن إحْداثَ العالم يستلزم تغييراً فى إرادة الله، وإرادة الله قديمة، فلابد أن يكون العالم قديما وإلاَّ حدث العبث والنقص.

---

(١) انظر فى ذلك على سبيل المثال: الآيات من [سورة الروم: ١٧–٢٧] من قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، والآيات من [سورة الأنعام: ٩٥–١٠٣] من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، وغيرها من الآيات الكريمة.

– وأفرط أرسطو حين قال: إن الله تعالى لا يعلم الموجودات لأنها أقل من أن يعلمها، فهو يعقل أفضل المعقولات فقط، وهى ذاته، فهو العقل والعاقل والمعقول، وذلك أفضل ما يكون.

● وأما أفلوطين، فإن الله تعالى عنده لا يشعر بذاته، لأنه لا يميز ذاته من ذاته فيعرفها لأنه يتنزه عن التمييز ويتنزه عن الشعور.

● وهذه كلها تصورات لله تعالى تصورها الفكر البشرى دون أن يستضىء بالعقيدة الصحيحة فى الله تعالى، فجاءت تصورات بعيدة كل البعد عما وصف الله تعالى به نفسه، وما ذكره سبحانه عن أسمائه وأفعاله، فى آيات القرآن الكريم وهى –كما رأينا فى هذه الإشارات الفلسفية العابرة– لأفلاطون وأرسطو وأفلوطين، تختلف تماما عما جاء به الإسلام عن الله تعالى، كما يتضح ذلك من آيات القرآن الكريم.

والثالثة:

من هذه الحوافظ للواقعية الإسلامية:

● هى رفض ما جاءت به أفكار الناس عن الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، والقضاء والقدر، فقد جاءت أفكارهم فى هذه الأمور بالغة الخطأ والشذوذ، بل الإنكار والتكذيب لذلك كله:

– فمنهم من قال إن الملائكة بنات الله أنجبها حين تزوج الجن. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!!!

– ومنهم من أنكر النبوات كلها وأنكر الرسل والأنبياء، وكثير منهم كذبوا فيما جاءوا به، بل إن اليهود قتلوا بعض الرسل إمعانا فى تكذيبهم ومعاندتهم!!!

– ومعظمهم أنكر اليوم الآخر وما يجرى فيه من بعث وحشر وحساب وجزاء، وجنة ونار!!!

– وكلهم كفروا بالقضاء والقدر وقالوا بالصُّدْفة، وما تجرى به الطبيعة على المخلوقات وما يأتى به الدهر وأحداث الأيام والليالى!!!

● ووجوب التزام الناس بما جاءهم على لسان محمد ﷺ، لأن فى هذا الالتزام عصمة لهم من الضلال والحيرة فى تصور العقيدة والعبادة والخلق، إذ لا سبيل إلى إدراكها إدراكاً

صحيحاً إلا من خلال ما تضمنه الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة.

هذه حوافظ العقيدة...

● أما حوافظ العبادة فكثيرة نذكر منها ما يلى:

– التوجه بهذه العبادات كلها إلى الله تبارك وتعالى وحده، فهو الذى شرعها وكلف بها ويثيب على فعلها ويعاقب على تركها، والتوجه لغير الله تعالى شرك يعاقب الله عليه أشد العقاب.

– والالتزام بهذه العبادات على النحو الذى شرعه وبالطريقة التى حددتها السنة النبوية لأداء هذه العبادات، دون تدخل فيها بالتعديل أو التغيير، لأنها كما قلنا آنفاً من المبادئ الثابتة فى الإسلام.

– والالتزام فى العبادات الموقوتة بأوقاتها دون تقديم أو تأخير كالحج وصوم رمضان، وحلول الحول على الزكاة، ونحو ذلك فليس لأحد أن يقدم فى ذلك أو يؤخر ولو فعل فى الحج لم يجزئه، ولو فعل فى الصوم لضرورة فعدة من أيام أخر ولو فعل فى الزكاة فقد أصبحت صدقة ولم تسقط عنه الفريضة – وتفصيل ذلك فى كتب الفقه الإسلامى وهى غنية فى الحديث عن هذه الأمور.

– ومراعاة أحكام كل عبادة وتحقيق شروطها ومراعاة آدابها، إذ معنى كونها عبادة لله أنها تؤدى وفق أحكام وشروط وضعها الله تعالى أو وضعها الرسول ﷺ.

● هذه بعض الحوافظ التى تحفظ العبادات، والعبادات – كما قلنا – جزء أصيل من الواقعية الإسلامية التى يجب المحافظة عليها، حتى يستطيع بها المسلم مواكبة المتغيرات، فإذا لم تكن هناك حوافظ للعبادة ضاعت –كما هو مشاهد عند عدد من المسلمين اليوم– ومن ضاعت منه عبادة الله فماذا بقى فيه من الإسلام ليواكب به المتغيرات؟.

● وأما حوافظ القيم الخلقية التى جاء بها الإسلام؛ فإنها تعنى أمرين اثنين هما:

– قبول الفضائل التى اعتبرها الإسلام فضائل ودعا المسلمين إلى الاتصاف بها –أو التحلى بها كما يقول العارفون– ومعنى ذلك أن يلتزم المسلم بكل فضيلة دعا إليها الإسلام وأن يحرص على تمثلها والاستمساك بها طاعة لله تبارك وتعالى، وتحببا إلى الناس وتشجيعهم

على التحلى بها، وكل الفضائل التى جاء بها الإسلام معروفة للمسلمين، ومثبوتة فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة.[1]

– ورفض الرذائل التى حكم الإسلام بأنها رذائل، ودعا المسلمين إلى نبذها والتخلى عنها.

وكل ما حرَّم الله من قول أو عمل فهو رذيلة يجب اجتنابها، وكل ما حرَّم رسول الله ﷺ من قول أو عمل فهو رذيلة يجب اجتنابها كذلك.

الرذيلة لها مرادفات باعتبار أن فعلها يغضب الله تعالى، ومن مرادفات الرذيلة: الإثم، والمعصية، والحرام.

- وبعد فهذه حوافظ تحفظ على المسلمين تلك الواقعية التى جاء بها الإسلام رحمة بالناس ورحمة بالمجتمع، فإذا حافظ الناس على هذه الواقعية أمكنهم بالمحافظة عليها أن يواكبوا المتغيرات وأن يعدلوا من المستجدات بما لا يعارض الثوابت التى تحدثنا عنها من عقيدة وعبادة وخلق، وإذا لم يحافظوا على ثوابت هذه الواقعية فقدوا أهم ما ميزهم الله من بين أهل الأديان، وهى أن دينهم فيه قدرة على مسايرة المتغيرات ومواكبتها، وعندئذ ينتشر الجمود وتشيع الرجعية، ويعجز المسلمون عن مواكبة المتغيرات فإما أن يقبلوها كما هى حتى لو تعارضت مع الثوابت لديهم، وإما أن يرفضوها مطلقا، وفى هذا تفويت لمصالح المسلمين، لا ترضاها شريعة الله من عباد الله.

- وما بُلِىَ المسلمون بشىء أسوأ من أن يصيب بعضهم الجمود أو الرجعية أو حرب كل جديد لأنه جديد، مع أن فقه الدين يستدعى فقه الدنيا، وفقه الدنيا يعنى أن هناك متغيرات لابد من التعامل معها وقبول ما لا يعارض الدين منها ورفض ما يعارضه.

فما هى أنواع هذه الواقعية الإسلامية التى يجب أن نحافظ عليها لنعيش حياة إسلامية صحيحة؟.

ذلك ما نحاول الحديث عنه فى الصفحات التالية والله المستعان.

---

(١) انظر للمؤلف: التربية الخلقية حلقة من سلسلة مفردات التربية الإسلامية – نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣ – أنواع الواقعية التى جاء بها الإسلام

من رحمة الله بالناس عموما أن جعل الإسلام خاتم الاديان، ومحمداً خاتم الرسل ﷺ، إذ ضمن ذلك للناس أن ينزل عليهم أكمل كتاب سماوى وأبعده عن التحريف والتبديل، وضمن لهم أن يكون الرسول الخاتم هو محمدا ﷺ أفضل المرسلين ورحمة الله المهداة إلى العالمين.

– ومن رحمة الله بالمسلمين خصوصا أن جعلهم ورثة هذا النبى الخاتم والدعاة من بعده إلى الله وإلى هذا الدين، فتلك منزلة شرف لا ينالها إلا من أراد الله له الخير ورحمه فى الدنيا بأن حمله عبء النبى الخاتم، ويرحمه إن شاء فى الآخرة إن بلغ عن الله ونشر دينه وتحرك به فى الآفاق وفى الناس.

– ومن رحمة الله تعالى بالبشرية جمعاء أن جعل لهم الدين الخاتم دينا يعترف بواقعهم ويقدره ويعدل منه ما يحتاج إلى تعديل، فجاءهم بدين هذه الواقعية التى تمكنهم من التغلب على ما يظهر فى حياتهم من مشكلات.

وهذه الواقعية التى جاء بها الإسلام ليست كلمة تقال، ولكنها:

– واقعية الإنسان صاحب الحاجات الضرورية والكمالية.

– وواقعية المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان وتحكمه حاجات ضرورية وكمالية أيضاً.

– وواقعية منهج يحترم حاجات الإنسان وحاجات المجتمع، وهذا ما سنوضحه فى الصفحات التالية.

أ – واقعية الإنسان

هذا الإنسان خلقه الله ضعيفا ولكنه رحم ضعفه فأرسل له الرسل والأنبياء، وأنزل عليه الكتب السماوية لينقذه بهذا وذاك من هذا الضعف الإنسانى المعروف عنه، بل منحه العقل ليميز به أسباب الضعف وأسباب القوة وأعطاه الإرادة ليختار لنفسه ما يزيل عنه ضعفه وتخاذله أمام رغباته وشهواته.

- فواقع الإنسان الذى يجب أن يتعامل معه الإسلام هو أنه: ضعيف، خطَّاء، متعال تطغيه النعمة، كنود جحود لنعم الله عليه، كفور، عجول، غافل، مغرور، وهذه الأوصاف كلها ليس القصد منها الزراية بالإنسان فهو على الرغم من كل هذه الصفات من أفضل مخلوقات الله تعالى.
- وقد سجل الإسلام واقع هذا الإنسان فى آيات القرآن الكريم وليس بعد القرآن بيان، كما تحدثت عن هذا الواقع الأحاديث النبوية الشريفة وكلمات النبى ﷺ وحى يوحى.
- وسوف نعرض من تلك الآيات الكريمة ما يوضح واقع الإنسان، ثم نشير إلى التعامل مع هذا الواقع بالرفض أو بالتعديل، والله الهادى إلى سواء السبيل:

– قال الله تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [العلق: ٦–٨].

أى أن الإنسان فى واقعه يجاوز حده وقدره، فيطغيه أن يرى نفسه ذا ثروة وغنى، فيستكبر على هداية الله تعالى إياه وسورة العلق هى السورة الأولى التى نزلت على رسول الله ﷺ كما قال بذلك جمهور العلماء.

وعلاج هذا الواقع السيئ أن يثوب الإنسان إلى رشده وألا يطغيه المال لأنه عرض زائل، إذ لابد أن يفوت الإنسان فيأتى فى مكانه الفقر، أو يفوته الإنسان بالموت، ولو نفع مال صاحبه لنفع قارون الذى كانت مفاتيح خزائنه تعجز عن حملها العصبة أولو القوة من الرجال، فما نفعه ماله يوم خسف الله به وبداره الأرض.

إن التذكير بقارون وقصته فيه إصلاح لهذا الواقع من ذلك الإنسان الذى تطغيه الثروة والمال. وتلك مهمة الدعاة إلى الله.

– وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٦–٨] .

وهذا من واقع الإنسان : يجحد نعم ربه عليه وهى نعم لا تحصى ثم هو يعترف بهذا الجحود والكفران ويسجله على نفسه بين يدى الله تعالى ، ومن واقعيته أنه يحب الخير حبا شديداً .

والتعامل مع هذا الواقع الإنسانى بتذكيره بنعم الله تعالى وتعريفه أن شكر النعمة يؤدى إلى زيادتها واستمرارها ، وتبصيره بأن حب الخير والمال لا يعيبه مادام أدى فيه الواجب الذى أوجبه الله عليه نحو نفسه ونحو الناس .

– وقال : ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [عَبَس : ١٧–٢٣] .

وذلك من واقع الإنسان ؛ كفور بنعمة ربه ، غافل عن قدرة الله تعالى عليه إذ خلقه إنشاءً ثم يميته ويبعثه ويحاسبه ، فهو بهذا الكفر وتلك الغفلة ما فعل ما أمره الله به من إيمان وطاعة .

ولابد من التعامل مع هذا الواقع ، بتوضيح عاقبة من كفروا نعمة الله من الأولين ، وماذا فعل الله بهم ؟ وماذا يلقون عنده يوم ينشرهم ويحشرهم ويحاسبهم وهم لم يفعلوا ما أمرهم به ؟ .

إن قصص القرآن ملىء بأخبار هؤلاء وما جرى لهم .

– وقال : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] .

من واقع الإنسان أنه متعجل فى معظم أمره ، يتعجل الحصول على الخير ، ويتعجل زوال أسباب الشر ، ويتعجل فى الحكم على الناس والأشياء ، ويتعجل استنباط النتائج من مقدماتها ، بل يتعجل الدعوة بالشر كتعجله الدعوة بالخير ، وقد خلق الإنسان من عَجَل .

والتعامل مع ذلك الواقع بدعوته إلى التمهل والتأنى والتبين والتثبت ، وضرب الأمثال له من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

والعجلة من الشيطان لأنها طلب الشىء وتحريه قبل أوانه ، وذلك من مقتضى الشهوة ، فلذلك كانت مذمومة فى آيات عديدة من القرآن الكريم ، وفى العجلة الندامة ، وهو واقع

قابل للتغيير والتعديل إلى الأحسن لو ركز على ذلك الدعاة إلى الله.

– وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

وواقع الإنسان فى هذه الآية الكريمة أنه إذا أصابه ضُرٌّ فى نفسه أو ماله أو نحو ذلك أحسَّ بضعفه وحاجته إلى ربه فجأر إليه بالدعاء وتضرع وابتهل، فإذا صرف عنه الضر وكشف عنه ما يضايقه عاد إلى واقعه السيئ ونسى أو تناسى ما كان فيه من شدة، فاعتبر بهذا الخلق من الذين أسرفوا على أنفسهم فأوقعوها فى الإثم والمعصية.

ولابد من التعامل مع هذا الواقع الردىء، وتبصيره بأن علاج ذلك أن يكون الإنسان مع الله دائما يذكره ويدعوه فى الشدة والرخاء، فى الشدة ليصرفها عنه، وفى الرخاء لحفظه عليه، ولابد من أن يضرب له الدعاة الأمثال من الكتاب والسنة وسير الصالحين.

وبعد: فهذه آيات كريمة خمس فقط تصور واقع الإنسان ولكن أمثالها فى القرآن الكريم كثيرة، وتلك مهمة الدعاة إلى الله وهذا زادهم الذى يتزودون به فى هداية الناس وتعديل ما فى واقعهم من خلل.

- تلك هى واقعية الإنسان التى تحدث عنها القرآن الكريم، وهى واقعية بشرية فطرت على الوقوع فى الخطأ وعلى أن يصيبها الخلل نتيجة لنوازع النفس وتحكم الشهوات فى الإنسان.

وهذه الآيات الكريمة تصورها بصدق وموضوعية ودون مبالغة فى تقديرها، ولا تهوين من شأنها.

- إن واقعية الإنسان يمكن أن تتجه إلى أعلى وأرقى، ويمكن أن تنزل إلى الأدنى والأسوأ، إذا أقبل الإنسان على تحسين هذا الواقع بالاستجابة لأمر الله ونهيه، أو إذا خالف أمر الله ونهيه فانحط بواقعيته إلى درجة قريبة من واقع الحيوان الذى لم ينعم الله تعالى عليه بنعمة العقل وإرسال الرسول ووضع المنهج.

- وإن الإنسان مهما كان واقعة سيئا إذا اتخذ من القرآن الكريم وما جاء فيه من أمر ونهى مسلكا له فى حياته مع نفسه ومع ربه ومع الناس نفع نفسه فى دينه ودنياه وتغلب على سلبيات هذا الواقع وتجاوزها إلى ما هو أحسن وأفضل.

● وأكبر آفة تصيب الإنسان صاحب هذا الواقع هى أنه لا يلتزم بما جاء فى القرآن الكريم مهما كان السبب الذى صرفه عنه، ليبحث له عن منهج آخر ونظام ظاهره خادع وباطنه موجع، إن تلك الآفة تدمر الإنسان والمجتمع.

– وقد يغر الإنسان وهو يلتمس منهجا غير منهج الله بأن كثيراً من الناس يتعاملون مع غير منهج الله، ويقول فى نفسه فلأكن مع الأكثرية، وتلك خدعة أخرى وقع فيها الغافلون من قبل، ويقع فيها الغافلون اليوم.

وقد أشارت آية قرآنية كريمة إلى الوقوع فى هذا المأزق وحذرت منه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [الأنعام: ١١٦–١١٧].

وعند التدبر فى هاتين الآيتين الكريمتين نجدهما تقرران عددا من الحقائق منها:

– أن الناس فى آرائهم لا يتبعون –غالبا– إلا ميولهم الشخصية، وهذه الميول لا تعبر عن الحق أو تمثله، بل هى ظنون وأخيلة تُحسِّن لهم ما يشتهون.

– وأن الظنون مهما كثرت ومهما كثر عدد الناس الذين يجرون وراءها، فإنها لا تغنى عن الحق شيئا ولا تصلح بديلا عنه وأن كثرة الآخذين بها لا تنفى أنهم على خطأ.

– وأن الذين ينحازون إلى آرائهم وميولهم ليسوا صادقين مع أنفسهم ولا أمام الناس وإنما هم كاذبون يعلمون أنهم كاذبون ﴿ **وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴾.

– وأن الله تعالى يعلم حقيقة من ضل عن سبيله إذ التمس منهجا غير منهجه، ويعلم بالمهتدين الذين آثروا ما جاءهم من عند الله.

● إن اعتراف الإسلام بهذه الواقعية، ليس تسليما منه بأنها حتمية من الحتميات التى يتشدق بها الذين لا يعرفون، وإنما جاء الاعتراف بها فى مجال الإشفاق على هذا الإنسان ورحمته، بتعديل هذا الواقع السيئ بإعطاء الإسلام للإنسان قدرا ضخما من الحرية ليعدل هو مساره بنفسه:

– فأعطاه حرية الاعتقاد، فلم يكرهه على الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩].

- وأعطاه حرية الفكر والنظر والتدبر بل شجعه عليها، ودعاه إلى السير فى الأرض بحرية والاستفادة من تاريخ السابقين، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

- وأعطاه كل أنواع الحريات -التى أشرنا إليها آنفاً- كحرية العمل وحرية الكسب وحرية التعبير وحرية التنقل... إلخ بشرط واحد هو ألا يؤذى نفسه أو غيره بهذه الحرية.

وهذه الحريات تمكنه من تعديل مساره وتغيير ما هو سيئ من واقعه.

ب - واقعية المجتمع

القرآن الكريم، والسنة النبوية التى فصلته يقران أن الواقع الذى يعيشه المجتمع واقع إنسانى بكل ما فى واقع الإنسان من قصور وعجز، فلا بد أن يكون فى المجتمع الخير والشر، والحق والباطل والهدى والضلال.

وآيات القرآن الكريم تؤكد أن أكثر الناس لا يعلمون وأن أكثرهم لا يؤمنون وأن أكثرهم لا يشكرون، وأن أكثرهم لا يعقلون وأن أكثرهم للحق كارهون وأن أكثرهم فاسقون، أو كافرون، أو مشركون أو لا يسمعون أو معرضون.

وهذه الكثرة هى المجتمع فى مجموعه لا فى جميعه، وتلك الصفات هى من صميم واقع المجتمع، ولأن واقعهم هذا، فإنه قد شاع فيهم أكل مال اليتيم وظلم الضعيف واستضعاف من لا شوكة له، كما شاعت فيهم أنواع الفواحش التى تؤدى إليها الشهوات كشرب الخمر ولعب الميسر والزنا واللواط، والغش والربا وأكل أموال الناس بالباطل وما لا أستطيع أن أحصى من الرذائل.

- هذا واقع المجتمع الإنسانى فى كل زمان ومكان قبل مجىء الإسلام وبعد مجيئه وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين.
- ومهمة الإسلام ومنهجه وهو يعترف بهذا الواقع الاجتماعى السيئ أن يطبب له وأن يعالجه، وأن يرسم الطريق الآمن للخروج من هذا المأزق الذى توقعه فيه شهواته بتزيين من شياطين الجن والإنس، فما هو إلا أن ينسى الله فيقع فى هاوية الرذائل.
- وعلاج الإسلام لهذا الواقع الاجتماعى السيئ، إنما تكون بأمور على جانب كبير من الأهمية، منها:

– التبصير بالفضائل الاجتماعية ومطالبة الناس بها كالتزام الإيمان والتقوى والتعاون على البر والتقوى وحسن التعامل مع الناس عموما ومع الضعفاء على وجه الخصوص.

– وبيان أن جزاء التمسك بالفضائل الاجتماعية نوعان:

- دنيوى وهو السيادة والقوة والأمن.

● وأخروى وهو ثواب الله تعالى وجنته.

– والتعريف بالرذائل الاجتماعية ومطالبة الناس بالابتعاد عنها وعن أسبابها كالنهى عن الشرك وعن عقوق الوالدين وعن التولى يوم الزحف، وعن التعاون على الإثم والعدوان، وعن الكذب والظلم والربا والغش وسائر الرذائل.

– وبيان أن جزاء الوقوع فى هذه الرذائل الاجتماعية نوعان كذلك:

● دنيوى وهو التبعية والضعف والقلق والحيرة.

● وأخروى هو عقاب الله وغضبه يوم القيامة.

– والدعوة المفتوحة إلى السير فى الأرض والنظر فى سير الأولين لأخذ العبرة والعظة.

فهذه الأمور الخمسة –وغيرها كثير– هى ما عالج الإسلام به واقع المجتمع السيئ.

● ولنطّلعْ على بعض الصور فى واقع المجتمع، ولننظر كيف عالجها الإسلام بالكلمة الهادئة الهادية ثم بالعقوبة الرادعة التى قد تصل إلى حد القتل –إذا كانت الجريمة تستوجب ذلك–.

● وعلى سبيل المثال:

– إن كثيراً من الناس يتبعون الشهوات وسوف يلقون غيًا، هؤلاء تحدثت عنهم الآية الكريمة: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾

[آل عمران: ١٤].

– وكثير من الناس يرغبون فى إتيان الفواحش والمنكرات وتلك دعوة الشيطان وعمله: ﴿ **... وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ...** ﴾ [النور: ٢١].

● هؤلاء وأولئك يؤثرون لذاتهم الوقتية على منافعهم الحقيقية فى الدنيا والآخرة غفلة منهم وضلالا!!! وهذا واقع فى المجتمع لا يمكن لأحد أن يكذب حدوثه.

● وقد عالج الإسلام هذا الواقع علاجا نظريا وعمليا بحيث يتمكن المجتمع من تغيير هذا الواقع لو اتبع العلاج.

– أما العلاج النظرى:

فهو علاج بالكلمة التى يجب أن تتدبر فيها العقول، هى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وعند التدبر فى الآية الكريمة نجد:

أن الفواحش كلها رأسها الزنا، إذ هو الحرام الذى يجر صاحبه إلى سلسلة من أنواع الحرام الأخرى... والفاحشة هى ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

وكل فاحشة من الفواحش حرَّمها الله على الناس صيانة لهم عن سوء عاقبتها فى الدنيا والآخرة.

وهذه الفواحش سواءٌ فى الحرمة أكانت ظاهرة أم باطنة مستترة، وتحريم الله تعالى لها والتدبر فى علة هذا التحريم يهدى الإنسان إلى الابتعاد عنها إذا أراد لنفسه وللمجتمع الذى يعيش فيه الخير والصلاح.

– وأما العلاج العملى:

فهو الدوام على إقامة الصلاة، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهى فريضة تسبقها طهارة للبدن والثوب والمكان ويصحبها استقبال القبلة وتبدأ بتكبيرة الإحرام، وتتكرر فى اليوم والليلة خمس مرات، وهى والتطهر لها يغسل الإنسان من خطاياه كما لو انغمس فى نهر جار خمس مرات فى اليوم والليلة.

والصلاة مشتملة على تمجيد الله تعالى وحمده والثناء عليه ودعائه وتكبيره وتسبيحه وقراءة القرآن الكريم، وقراءة التشهد، وهى مصحوبة دائما بالنية والإخلاص والتوجه بها إلى الله والوقوف فى قيامها بين يديه.

ومن أدى الصلاة بشروطها وآدابها فكيف يأتى فاحشة فضلا عن فواحش تسىء إلى صاحبها وإلى المجتمع الذى يعيش فيه.

قال الله تعالى يوضح هذا العلاج العملى لمن يأتون هذه الفواحش: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فهذا هو العلاج العملى وهو الصلاة، فإنها تصرف المصلى عن الذنوب والآثام والفحشاء والمنكر، وعن كل ما نهى عنه الله تعالى تبارك وتعالى.

وعلاج عملى آخر هو أن من فرغ من صلاته فعنده ما هو نافع ومفيد فى الابتعاد عن كل ما يغضب الله، وهو: ذكر الله ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

● ومثال آخر من واقع المجتمع:

– إن كثيراً من الناس لا يسهمون فى رعاية الضعفاء يتامى وأرامل وعاجزين عن العمل وكبار السن وفقراء ومساكين وغارقين فى الديون وأمثالهم.

وهؤلاء الممتنعون عن مدّ يد العون لإخوانهم وأخواتهم فى المجتمع الذى يضمهم جميعا ويمد مظلته عليهم، هؤلاء يرتكبون خطأ فادحا فى حق الله تعالى الذى أوجب فى أموالهم حقوقا لهؤلاء المحاويج، وأخطأوا فى حق أنفسهم إذ عرضوها لعقاب الله تعالى، وفى حق المجتمع الذى يعيشون فيه إذ يتسبب امتناعهم عن مدّ يد العون فى إثارة الأحقاد والحسد والتباغض بين الأغنياء والفقراء، ثم يؤدى ذلك بالضرورة إلى الجريمة التى يحركها الفقر والاحتياج ويشجع عليها عدم رعاية الحقوق، وسريعا ما يهبط المجتمع بذلك إلى مهاوى الجريمة والرذيلة ما ظهر منها وما بطن.

إن هؤلاء الممتنعين عن العطاء المادى أو العطاء المعنوى هم فى الحقيقة مجردون من المشاعر الإنسانية عموما ومن المشاعر الإسلامية على وجه الخصوص فهم بهذا الامتناع يزدادون ضراوة، وأصحاب الحقوق يزدادون ضعفا وضياعا وتشجيعا على الجريمة، وما يمكن لمجتمع إنسانى أن يعيش آمنا فى ظل هذه الجرائم.

هذا من واقع المجتمعات الإنسانية فى معظم الأمكنة والأزمنة.

● ومن أجل ألا يستمر هذا الواقع السيئ، لما يعود به من أوخم العواقب وأفدح الأضرار على الناس جميعا فإن دين الإسلام ومنهجه وضع لذلك علاجا.

وهذا العلاج – كسابقه وكمعظم أنواع العلاج التى يضعها الإسلام – ذو شقين أيضا، شق نظرى وشق عملى.

أما الجانب النظرى:

فهو مجموعة من آيات القرآن الكريم يجب أن يتدبر فيها الناس، وأن يأخذوا منها العبرة

التى ترشد سلوكهم، وتحول بينهم وبين هذه الرذائل التى سميناها آنفاً، وتلك الآيات الكريمة هى:

– قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٤٧].

وهذه الآية الكريمة دعوة إلى الإنفاق على الفقراء فى مجتمع لا يزال معظم أهله على الكفر ومعاندة الرسول ﷺ ولكنهم مدعون بحكم أنهم أعضاء فى مجتمع، وبمقتضى ما منحهم الله من عقول تعى وتتدبر فى قضايا المجتمع، والأغنياء والفقراء مدعوون إلى الإنفاق لإذهاب الحاجة عن المحتاجين، ولسل ما فى أنفسهم من حسد وحقد، لتستقيم حياة الناس فى المجتمع على التراحم والتعاطف وأداء كل ما عليه من حقوق نحو الآخرين.

– وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

فهذه الآية الكريمة تقرر أن فى طبع الإنسان وفى واقعه الذى يعيشه الحرص بل البخل، وذلك أن الإنسان مهما ملك من مال فإنه يخشى أن ينفق منه على غيره، بل امتد به البخل إلى أن يخشى أن ينفق من ماله على نفسه، والآية الكريمة تعالج هذا الواقع بالدعوة إلى تدبر هذه الآية والتعمق فى فهم معناها ومرماها، ليخرج من ذلك بأن التقتير رذيلة كما إن الإسراف رذيلة، وأن العاقل يجب ألا يتصف بأى صفة منهما.

– وقال: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

[الشورى: ٣٦-٣٨].

والآية الكريمة توحى بأن الناس معظم الناس آفتهم أن من أوتى شيئا منهم من النعم استمتع بها فى الدنيا، ونسى ما عند الله فى الآخرة، مع أن ما عند الله أبقى وأكبر من كل ما فى الدنيا من نعم.

وأن الله تعالى أعد هذا النعيم لعباده الذين اتصفوا بصفات يحبها الله ويدعو للتحلى بها وهى فى هاتين الآيتين:

- الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . .
- والتوكل عليه سبحانه وتعالى .
- واجتناب كبائر الإثم والفواحش .
- والتسامح والغفران للناس .
- والاستجابة لله تعالى فى كل ما أمر وما نهى .
- وإقامة الصلاة .
- والتعامل بالشورى .
- والإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج .

● وهذه الاستشهادات الثلاثة التى استشهدنا بها هى من القرآن الكريم الذى نزل بمكة، والدعوة الإسلامية فى بداية أمرها وفى أوج التضييق عليها وعلى صاحبها وصحابته، وعناد المشركين وتحديهم للرسول ﷺ ودعوته، على أشد ما يكون العناد والعداء .

ومع كل تلك الظروف فإن آيات القرآن الكريم تعطف أفراد المجتمع بعضهم على بعض وتطالبهم بتنقية المجتمع من كبائر الإثم والفواحش، وتطالبهم بالتسامح فيما بينهم والتشاور فى أمورهم والإنفاق على ذوى الحاجة .

العجيب أن المجتمع وهو مشرك لا يزال على الكفر مطالب بهذه القيم الاجتماعية الرشيدة التى تحقق للناس حتى الكفار منهم الأمن والطمأنينة والمودة والمرحمة، والمحافظة على آداب المجتمع وقيمه أن تداس - وكان المجتمع الجاهلى حافلا بكثير من القيم الخلقية التى أقرها الإسلام ودعا إلى التمسك بها كالعفة والشجاعة والكرم والنجدة، والوفاء .

وأما الجانب العملى :

فهو علاج عملى لهذه الرذائل الاجتماعية التى يظلم فيها القوى الضعيف ويأكل حقوقه، ولا يرعى فى اليتامى والأرامل والفقراء والمساكين ما يجب أن يرعاه .

● وهذا العلاج العملى أخذ طريقين :

- طريق فرض الزكاة -على المسلمين وكانوا حديثى عهد بالجاهلية- وجعلها ركنا من أركان الإسلام وسهما من أسهمه .

ويرى بعض العلماء أن الزكاة فرضت على المسلمين بمكة لكن لم يفرض نصابها الذى انتهت إليه .

- وطريق تحبيب المسلمين فى الصدقات وجعلها مع سائر النوافل بابا واسعا للتقرب إلى الله تعالى.

● ففى الزكاة المفروضة جاء قول الله تعالى: ﴿ ... فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل: ٢٠].

فهذه الآية الكريمة تطالب المسلمين على سبيل الواجب؛ بقراءة ما يتيسر من القرآن، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وبإعطاء الفقراء نافلة غير الزكاة مما وجب لهم فى مال الأغنياء، وباستغفار الله تعالى.

- وفى الإنفاق فى سبيل الله -وهو باب واسع تدخل فيه معظم حاجات المحتاجين من المجتمع- فى هذا الإنفاق جاء:

- قول الله تعالى: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ٧].

فهذه الآية حضٌّ على الإنفاق فى سبيل الله تعالى، ووعد للمنفقين بأجر كبير.

- وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ٩].

وتحمل هذه الآية الكريمة عددا من الحقائق نذكر منها:

- استنكار على الذين لاينفقون فى سبيل الله.

- وتقرير أن المنفق إنما ينفق من مال لله وسيرته الله.

- وتفضيل للمنفقين فى سبيل الله قبل فتح مكة على الذين أنفقوا بعد الفتح.

- ووعد من الله تعالى بالحسنى لكل المنفقين فى سبيل الله من قبل الفتح وبعده.

- وقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾.

وذلك استنهاض وتشجيع على الإنفاق فى سبيل الله، وتسمية ذلك الإنفاق قرضا يقع فى

يد الله عندما يقع فى يد المحتاجين ووعد على ذلك بالأجر العظيم.

● ومن الأساليب العملية فى علاج البخل وعدم الإنفاق فى سبيل الله ذلك النداء من الله على المؤمنين وإخبارهم بأن أهل الأديان السابقة وقعوا فى مخالفات فيما يتصل بالمال، ومن هذه المخالفات: أكلهم أموال الناس بالباطل رباً ورشوة، واستعمالهم ذلك المال فى الصد عن سبيل الله، وكنز هذا المال وحرمان أهل الحقوق فيه من حقوقهم.

ولذلك بشَّع الله تعالى أفعالهم تلك وأصبحت هذه الأفعال عملا بغيضا إلى الله يجب ألا يأتيه أحد من الناس، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

[التوبة ٣٤، ٣٥].

● ومثال ثالث من واقع المجتمع:

كثير من الناس- فى أى مجتمع- يحبون أن يعيشوا فى أمن ودعة، ويرغبون فى الراحة وفى كل مايجلب إليهم الوفرة والسعة، ويبتعدون كل البعد عما يكلفهم جهدا ماديا أو أدبيا، أو وقتا أساسيا من أوقاتهم التى يستثمرون، أو وقتا إضافيا من أوقاتهم التى يضيعون. ويرفضون كل تضحية من نوع ما من أنواع التضحيات. وهؤلاء ليسوا قلة فى أى مجتمع من المجتمعات.

وتلك صفات فى الناس تدل على ضيق أفقهم وسوء تقديرهم للظروف التى تحيط بهم، إذ ربما كانت تضحياتهم بشىء من أموالهم أو أوقاتهم أو جهودهم تدفع شرا مستطيرا، وعدوا مبيرا، لايندفع إلا بهذه التضحيات.

ولو انتشرت صفات هؤلاء بين أفراد المجتمع لأصيب المجتمع بتفكك يتبعه ضعف وتبعية للعجز عن رد أى عدو لهذا المجتمع. وهل يمكن رد العدو إلا بالتضحية التى قد تصل إلى حد التضحية بالنفس.

وهذا تقصير فى حق النفس وفى حق المجتمع ليس كمثله تقصير، ونكوص عن أداء الواجب، ولابد أن يترتب على هذا التقصير والنكوص أن يصاب المجتمع بضعف وتخاذل

على كافة مستويات العيش فيه.

فلابد أن ينتشر الفقر وتسوء الحالة الاقتصادية وتركبهم الديون وتستهلكهم الربويات المتفاقمة.

ولابد أن تخبو فيهم روح العمل والجهاد، فيصبحوا من المستضعفين الأذلاء التابعين.

ولابد أن يضطربوا سياسيا وعسكريا فيطمع فيهم الأعداء ولابد أن تخبو فيهم روح الإبداع والإتقان والتجويد لما يصنعون أو يزرعون.

وكيف لايحدث هذا وأسوأ منه وهم مقصرون قاعدون عن أداء واجباتهم، أَلْهَتْهُم رغباتهم الشخصية عن واجباتهم الاجتماعية، ففقدوا هذا وذاك.

● ومما يدعو لمزيد من الأسف الشديد أن معظم بلدان العالم الإسلامي اليوم- في السنوات الخمس الأخيرة من العقد الثانى من القرن الخامس عشر الهجرى ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م تعيش هذه الظروف وتمارس هذا التراجع وتلك السلبية[١]، وبالتالى تجد نفسها فى مجال التبعية للغرب- العدو التقليدى للمسلمين والعرب من لدن كان للمسلمين وجود فى الأندلس، ومن يوم شن الغرب الحروب الصليبية على العالم الإسلامى تلك الحروب التى لم تنته باستعادة صلاح الدين لبيت المقدس من أيدى الصليبيين ولكن انتهت فى نظرهم يوم بسطت انجلترا نفوذها على فلسطين ووعد وزير خارجيتها بلفور اليهود بوطن قومى لهم فى فلسطين إذ أعلن قائد القوات البريطانية آنذاك اليوم انتهت الحروب الصليبية»!!!

هذا واقع عاشه المجتمع المسلم بل العالم الإسلامى كله، واقع متراجع من يوم تحالف مصطفى كمال- نصف اليهودى- مع الغرب لإسقاط الدولة العثمانية، وتقسيم أملاكها على الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الثانية، ومنذ ذلك التاريخ وانجلترا وفرنسا تعيشان فى كثير من بلدان العالم الإسلامى وقد بسطتا نفوذهما اللغوى والثقافى والعسكرى أحيانا، والاقتصادى، والتعليمى، ثم زاحمتهما أمريكا فى بسط نفوذها على العالم الإسلامى- وأمريكا أى اليهود وإسرائيل- وتغلغلت الولايات المتحدة الأمريكية فى العالمين العربى والإسلامى فأضعفتهما وبدلت النظم فيهما من نظم «ديموقراطية» إلى نظم عسكرية.

وتفنن الغرب ومعه أمريكا فى تفتيت العالمين العربى والإسلامى وتمزيقه وتكوين دويلات

(١) انظر لنا: التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى اليوم وطريق التغلب عليه ط دار الوفاء بمصر: ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

أو إمارات فيه لايبلغ عدد سكان بعضها ربع مليون مواطن، وهما يحاولان بكل وسيلة ألا تجتمع كلمة العرب أو كلمة المسلمين على شيء على الرغم من منظمتي الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامي!!

واصطناع الخلافات بين دول العالم العربي والإسلامي تجد أذانا صاغية من حكام عسكريين كل رصيدهم من فهم السياسة هو العنجهية والاستبداد، فتقوم الحروب بين هذه الدول، وتسوق أمريكا والغرب أسلحتهما لتغذية هذه الحروب، وأصبحت إسرائيل اليوم قوة عسكرية تساوى أو تزيد على قوة العالم العربي مجتمعا بإرادة الغرب وإصرار أمريكا، ومن هنا يلهث السياسيون العرب على التسلح لموازاة قوة إسرائيل ويبيع الغرب السلاح ويأخذ ثمنه نفطا وقطنا وماشاء، وكلما هدأت الأمور تحركت المؤامرات وتحرشت إسرائيل، وزاد الصراع على طلب السلاح!!

ذاك واقع المجتمعات المسلمة اليوم، فهل ينتظر والحالة هذه أن يسلك المجتمع سلوكا إسلاميا يضمن به حسن الإعداد والتقدم العلمي وإنتاج آلة الحرب؟.

من أجل ذلك الواقع الذى عاشه بعض المسلمين فى مجتمعاتهم والذى تعيشه المجتمعات الإسلامية اليوم، وضع الإسلام العلاج لهذا التقاعد والتراجع والنكوص عن القيم الإسلامية الداعية إلى الأخذ بأسباب القوة وحسن الإعداد للعدو ذلك الإعداد الذى جاء فى صيغة الأمر فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وكلمة «لهم» فى الآية عائدة على الأعداء أى أن الإعداد يجب أن يكون ملائماً لما عند العدو من آلة عسكرية.

● وقد عالج الإسلام- من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية- هذا القصور والتقصير، بنفس ماعالج به الظواهر الاجتماعية التى تحدثنا عنها آنفا - أى بأسلوبين أحدهما نظرى والآخر عملى.

أما الأسلوب النظرى:

فهو كسابقيه تأمل ونظر وتدبر فى آيات القرآن الكريم، وإجالة للفكر والاجتهاد فى فهمها ومعرفة أهدافها، ومن ذلك:

- قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا**

استَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٥٩، ٦٠].

- وعند التأمل والتدبر فى هذه الآية يدرك المسلمون أن الإعداد لمواجهة الأعداء واجب أوجبه الله لرد كيد الأعداء دفاعا عن الدين وعن الحق، وعن كل قيمة إنسانية كريمة جاء بها الإسلام.

- وأن من قصَّر فى هذا الإعداد فقد خالف أمر الله وعطله، حاكما كان فى المجتمع المسلم أو فردا عاديا، لأن الخطاب لمجموع المؤمنين، وليس لبعضهم دون بعض، كل يجب أن يُعد ما يستطيع لمواجهة عدو الله وعدو المسلمين، ولكن التنظيم والتنسيق لهذا الإعداد هو مسئولية الحاكم أولا وأخيرا، ذلك الحاكم الذى عليه أن يجند طاقات المجتمع كله مادية ومعنوية ليكون على مستوى مواجهة العدو، ثم يتجه بالإعداد إلى ماشاء من مرافق ومنافع عامة، لأن الإعداد فى مجال ماينفع الناس ويدفع عنهم الضرر إعداد لمعركة «حياة» أو الإعداد لمواجهة عدو فإنه إعداد «لمعركة حياة أو موت».

- وأن الإعداد يجب أن يكون متنوعا ومستوعبا لكل ما تحتاج إليه المعركة مع العدو من إعداد:

– فهناك إعداد النفوس والعقول والقلوب لخوض المعركة من أجل الإسلام ومنهجه– والإسلام ومنهجه ونظامه مستهدف دائماً بالنسبة للأعداء–.

– وهناك إعداد الأجسام لتكون قوية قادرة على تحمل أعباء الجهاد، وذلك بتجنب كل ما من شأنه أن يضعف الجسم من إسراف أو إفراط فى الطعام والشراب وسائر الشهوات، أو حرمان للجسم من مطالبه المشروعة.

مع الأخذ بكل الأسباب التى تقوى الجسم كالاعتدال فى الغذاء والاستقامة، والتريض والتدرب على الصبر فى بذل المجهود وغير ذلك من أسباب كثيرة.

– وهناك إعداد للمقاتلين قادة وأفراداً – وذلك عمل أهل العلم والاختصاص فى جيوش المسلمين–.

– وهناك إعداد للعلماء فى مجالات العلم المتعددة التى تجعل للمسلمين تفوقا على عدوهم فى مجالات العلم والتقنية، وذلك أن الحرب اليوم تعتمد على العلم باكثر مما تعتمد على كثرة الأفراد، وامتلاك القنابل الذرية والهيدروجية وأسلحة الجراثيم والميكروبات والكيماويات ربما كان أهم فى المعركة من استعمالها، فلابد من امتلاكها لا استيرادها،

وذلك واجب المؤسسات العلمية فى المجتمع، وهو واجب يتطور فى كل يوم بحسب مايصل إليه الكشف العلمى من مستوى.

والقاعدة الذهبية التى يجب على العلماء أن يتذكروها جيدا وهم يمارسون بحوثهم العلمية هى «وأعدوا لهم..».

– وإعداد المال الذى يلزم لكل هذا الإعداد، فالمال طاقة فاعلة أساسية فى كل أنواع الإعداد.

● والأصل الأصيل الذى لايحتاج إلى توكيد هو أن كل نوع من أنواع الإعداد إنما يقوم به علماؤه المتخصصون فيه عملا بمبدأ أساسى فى الإسلام هو: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٤٣].

● ومن الآيات الكريمة الواجب تأملها والتدبر فيها وهى داخلة فى العلاج النظرى.

– قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴾ [النساء: ٧١].

وفى تدبر هذه الآية الكريمة نهتدى إلى حقائق هامة لايستطيع من يواجه عدوا أن يتجاهلها فضلا عن أن يستغنى عنها، سواء على مستوى المجتمع كله أفرادا وجماعات، أو على مستوى الحكام ومؤسسات الحكم وأجهزته، أو على مستوى القادة والجنود، ومن تلك الحقائق:

– وجوب أخذ الحذر من العدو والاحتياطات من مباغتاته وأنواع كيده، ومايتم ذلك إلا بمعرفة إمكانات العدو المادية والمعنوية وخططه وأساليبه فى الحرب والكيد، وذلك متروك لأهل العلم والخبرة فى هذا المجال.

لكن المجتمع كله يجب أن يوعى فى مجال الحذر والاحتياط.

– ووجوب الاستجابة للنفير كلٌ بما يستطيع أن يستجيب به، لأن هذا أمر من الله تعالى وأمره سبحانه واجب النفاذ.

– وليس لأحد – إلا صاحب عذر – أن يقعد عن النفير متعللا بأنه فاته النفير مع الجماعة، لأن النفير واجب على كل أحد بذاته.

● ومن الآيات الكريمة التى نهى الله فيها عن القعود عن مواجهة العدو:

– قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ**

مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء: ١٠٤].

وعند تدبر ماترمى إليه هذه الآية الكريمة نستطيع أن نهتدى إلى الأمور التالية:

– النهى عن الضعف والتخاذل لافى المعركة وحدها، ولكن بعد المعركة أيضاً، لأن العدو قد ينسحب عن خطة ونيته عودة إلى القتال، وعندئذ يجب تتبعه حيث ذهب للقضاء عليه مهما كان ذلك التتبع مكلفا من جهد ووقت ونفس، لأن الأصل فى الجهاد وملاقاة الأعداء أن يصحب ذلك ألم وتعب وجراحة وغيرها، ومع ذلك كله فلابد من تتبعه، ولاعذر لمتخلف عن تتبع العدو مهما كانت آلامه، لأن العدو يتألم كما يتألم المسلمون.

– ومعرفة أن تتبع الأعداء بعد المعركة من صميم الحرب ومن أسباب النصر، وإن كان لايشتمل هذا التتبع على قتال فى كثير من الأحيان، ولكنه من مكملات الحرب بل من ضروريات الانتصار فيها.

– ويتعلم المسلمون من الآية الكريمة أنهم مهما تحملوا من عناء وألم وهم يطلبون العدو ويتتبعونه، فإن ذلك واجبهم وإن عليهم أن يصبروا عليه وعلى لأوائه.

وإذا كان أعداء الله وأعداء الإسلام وهم الكفار يتحملون آلام الحرب ويصبرون عليها، وهم لايرجون من الله شيئاً إذ يكفرون به، فكيف لايتحمل المؤمنون بالله آلام الحرب ومتاعبها وهم يرجون من الله ثوابه ورضاه وجنته؟.

● ومن الآيات الكريمة التى أمر الله تعالى فيها بالجهاد فى سبيل الله، والنفير فى أى حرب لله:

– قوله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

وعند التدبر فى هذه الآية الكريمة نتعلم منها:

– أن النفير فى أى معركة فى سبيل الله واجب وجوبا عينيا مادامت هناك قدرة عليه.

– وأنه واجب على كل حال من حالات النفير خفافا كان النافرون أو ثقالا فى تسلحهم لملاقاة العدو، والمعنى: لاتقعدوا عن النفير لمواجهة العدو بحال من الأحوال.

– وأن المسلمين مطالبون بالجهاد فى سبيل الله بكل أنواع الجهاد المادية والمعنوية.

– وأن الاستجابة للنفير وللجهاد فى سبيل الله هو خير للمسلمين على كل حال، خير لهم

فى الدنيا بكف أعدائهم عنهم، وخير لهم فى الآخرة برضا الله تعالى عنهم، مهما تكن التضحيات فى هذا الجهاد حتى لو كانت استشهاداً فى سبيل الله.

وأما الأسلوب العملى:

فإنه أمر بالدخول مباشرة فى المعركة، جهادا فى سبيله وإعلاءً لكلمته، وهو أمر واجب التنفيذ، كما يفهم ذلك من عديد من آيات القرآن الكريم وعدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة، ومن هذه الآيات الكريمة:

- قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النحل: ١١٠].

فهذه الآية الكريمة تعلن أن الله تعالى معين وناصر للذين هاجروا فرارا بدينهم من الفتنة، وخوفا من أن يردهم الكفار إلى الكفر، فرارا بأنفسهم من التعذيب والسجن والقهر والكيد، ثم جاهدوا فى سبيل الله بما يملكون من مال وجهد ووقت، وحول وطول، هؤلاء يغفر الله لهم ذنوبهم، ويرحمهم فى واسع رحمته ويغدق عليهم من فضله ماداموا قد صبروا على متاعب الجهاد فى سبيل الله ومشقاته.

- وتلك سنة الله تعالى فى الذين يجاهدون فى سبيله ماتخلفت فى زمان ولامكان، وقد حفل القرآن الكريم بقصص هؤلاء المجاهدين وبحسن جزاء الله تعالى لهم، لأنهم جاهدوا فى سبيله ولإعلاء كلمته.

- وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهذه الآية الكريمة وعد من الله تعالى بمزيد من الهداية إلى الحق والخير للذين بذلوا جهودهم واحتملوا مشقات الجهاد وصعابه فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا، وأن يسود منهجه ونظامه حياة عباده.

وفى الآية تسمية لهؤلاء المجاهدين بأنهم محسنون بجهادهم فى سبيل الله، وبشارة لهم بان الله معهم يعينهم وينصرهم فى كل معركة.

- وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ**

﴿ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[الأنفال: ٧٤، ٧٥].

وهذه الآية تفتح مجالا للعمل الذى يرضى الله تعالى ويساوى الجهاد فى سبيله وهو العمل الذى يقدمه المسلم لنصر المسلمين ولإيواء من يحتاج منهم إلى مأوى، كان يكون المسلم غير آمن فى مكانه على دينه يتعرض من أجله للتضييق والتعذيب، فإن من أوى هذا المسلم كان له عند الله أعظم الجزاء، وكان بهذا العمل من المؤمنين حقا، ونال عند الله كالمجاهد المغفرة والرزق الكريم.

- وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦].

والمعنى أن الابتلاء والاختبار سنة من سنن الله تعالى فهو سبحانه قد اقتضت حكمته أن يختبر المؤمن ويبتليه ليمحص إيمانه، ويرى منه مايكافئه عليه، ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام فقد كان اختبار المؤمن ليعلم الله المجاهد من القاعد فيجزيه أحسن الجزاء عملا دالا على الإيمان وكان الجهاد فى سبيل الله مكملا للإيمان.

والمجاهد مؤمن واضح صريح يعطى ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين، ولايتخذ من دون أوليائه هؤلاء مكانة من الناس، يواليهم سرا أو جهرا، فكان لابد من اختبار المجاهد ليعلم منه ذلك.

- وقوله جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣].

فهذا أمر مباشر يتطلب عملا يجب أن يقوم به الرسول ﷺ، وأن يقوم به المسلمون، وهو جهاد الكفار والمنافقين والاشتداد عليهم عسى أن يخرجوا من كفرهم ونفاقهم.

وبعد:

فتلك الآيات الكريمة التى ذكرنا والأوامر التى تضمنتها بالإضافة إلى وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ فى سيرته وفى تعامله مع أعداء الإسلام، كل ذلك هو التطبيق العملى لمقاومة القاعدين عن الجهاد الذين يؤثرون الدعة والراحة، مما جعلهم سلبيين مع دينهم فى أداء

واجباتهم نحوه مهما تظاهروا بتضحياتهم بالمال أو بالجهد والوقت فى سبيل الله تعالى.

حـ- واقعية المنهج.

المنهج الذى جاء به الإسلام للناس- متمثلا فى الكتاب والسنة- منهج واقعى بمعنى أنه يقدر واقع الإنسان وواقع المجتمع الذى يعيش فيه.

● ومن أجل ذلك لم يكلف الناس بمالايستطيعون: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومن تقديره لواقع الإنسان أنه لم يشرع له مايشق عليه: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

بل لايريد هذا المنهج الواقعى أن يدخل الإنسان فى أدنى حرج من دينه أو أمره: ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ** ﴾ [المائدة: ٦] و﴿ **مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨].

● ولأنه منهج واقعى فإنه لم يترك الناس دون تكليف، لأن الإنسان غير المكلف يفقد الإحساس بلذة طاعة الله الذى كلفه ويفقد الإحساس بمرارة معصيته سبحانه وتعالى، ومن فقد هذه وتلك فهو والبهيمة سواء، فقال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ [القيامة: ٣٦]. وقال: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

● إنه منهج واقعى لايتجاهل فطرة الإنسان التى فطره الله عليها، فهى فطرة تحتوى كل ما أودع الله فى الإنسان من طاقات وقدرات وغرائز ورغبات وملكات ومخاوف وأشواق، ولامافطره عليه من قدرة على الطاعة وقدرة على المعصية، ولاماكرمه به من عقل وإرادة وقدرة على الاختيار.

ففى طبيعة الإنسان قدرة على المعصية فهو ليس من الملائكة الذين ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم: ٦]، وليس كالشيطان يكفر بربه ويعصيه: ﴿ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٧]. وقال: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا** ﴾ [مريم: ٤٤].

وإنما هو إنسان خلقه الله فسواه وعدله ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] وجعله فى أحسن تقويم ليكون أهلا لطاعته وعبادته ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]، وكرمه وحمله فى البر والبحر ورزقه طيبا وفضله على كثير من خلقه ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠]

- تلك فى اختصار شديد هى واقعية المنهج الذى اختاره نظاما لحياة الإنسان.

- ولقد كان- ومايزال وسيظل- من رحمة الله تعالى أن جعل للإنسان هذا المنهج ليلائم فطرته، ويناسب طاقاته وقدراته، ويعبر من خلال نظامه وقيمه عن رغباته وشهواته، ويقرب بالتمسك به من ربه فيحظى برضاه، ويبتعد به عما يستطيع أن يبتعد عنه من الأخطاء والمعاصى، ليسعد به فى معاشه ومعاده.

- إنه المنهج الذى احترم عقله ودعاه للفكر والنظر والتدبر وخيره بين أن يؤمن أو يكفر، وحظر على أى أحد أن يكرهه على الدخول فى الدين، واحترم حقوقه وجعل المحافظة عليها من أوجب الواجبات وانتهاك شيء منها من أعظم الحرمات.

- إن واقعية المنهج تتمثل فيما اختار الله فيه من القيم الخلقية التى تحفظ الإنسان إنسانيته إن هو التزم بها، وتحفظ عليه كرامته إن هو دعا إليها وعمل على نشرها فى الناس.

- إن واقعية المنهج أخذت فى اعتبارها، وهى تعدد مفرداتها الخلقية وتنوعها أن ترفع من قدر الإنسان فى أى زمان أو مكان يعيش فيه، ليكون أهلا لحب الله له، فإذا أحبه الله وفقه وأعانه وكان سمعه وبصره... » الحديث القدسى.

فرضى عنه فى الدنيا وأرضاه فى الآخرة.

- إن واقعية المنهج الإسلامى يمكن أن تجمل فى كلمات قرآنية جامعة هى قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

- فهذا المنهج فى هذه الآية الكريمة هو الدين القيم، والإنسان قد أمر بأن يقيم وجهه لهذا الدين، لأنه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهى فطرة ثابتة لاتتبدل ولاتتغير،

ومنهج الدين ملائم لها لو اتبعه الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة بل يكابرون ويكذبون ويتخذون مناهج أخرى ترديهم فى الدنيا وتخزيهم فى الآخرة.

● وهذا المنهج الواقعى تجتمع أهدافه كلها على وجه الإجمال فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء:٩]. فهو المنهج الذى يركز أهدافه كلها فى هداية الإنسان للطريقة التى هى أقوم له فى دينه ودنياه، ومع ربه ومع نفسه ومع الناس، وليس وراء ذلك أهداف أنبل ولا أنفع للإنسان.

● وليس فى هذا المنهج غموض، ولا فى نظامه شيء لا يعرفه إلا طوائف بعينها، وإنما هو ميسر لكل مسلم، وجميع مقرراته- على كثرتها وتنوعها- لاتخفى على أحد، ولم يخص الله بها أحدا دون أحد، كل تلك المفردات يمكن معرفتها عند النظر والتأمل فى القرآن الكريم، وبخاصة فيما أمر به أو نهى عنه، وهذه الأوامر والنواهى هى لب المنهج وجوهره، وفى الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه إحياء لأركانه وإعمال لأحكامه وتمسك بشروطه.

والقاعدة العامة فى هذه المفردات أن هذا المنهج ماترك من خير يعود علي الإنسان بالنفع فى معاشه ومعاده إلا أمره به وماترك من شر يضر بالإنسان فى معاشه أو معاده إلا نهى عنه.

● وأما حواشى هذا المنهج وكمالياته فهى فيما حبب فيه القرآن والسنة، ولم يصل إلى درجة الواجب، أو كره فيه الكتاب والسنة، ولم يصل إلى درجة الحرام.

- وليس فى القرآن الكريم من قصة أو خبر أو وعد أو وعيد إلا والهدف من ذلك أن يرسم للإنسان طريقاً فى حياته سهلا ميسورا يوصله إلى رضا ربه تبارك وتعالى، ويحول بينه وبين الانحراف عن الصراط المستقيم صراط الله: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الانعام: ١٥٣].

● وسوف يظل هذا المنهج الإسلامى واقعيا ما بقيت للناس على هذه الأرض حياة، ومهما تغيرت ظروف الإنسان أو تبدلت بفعل تغير الزمان والمكان والمستجدات فإنه واجد فى ثوابت هذا المنهج- من عقيدة وعبادة وخلق- مايحقق له سعادة الدنيا والآخرة إن هو تمسك به، فالله تبارك وتعالى جعله طريقا ليخرج الناس به من الظلمات إلى النور ومن الهدى إلى الضلال: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ**

صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ... ﴾

[إبراهيم: ١، ٢].

● وكما أوضح القرآن الكريم هذه الواقعية للمنهج الإسلامى أوضحتها السنة النبوية المطهرة، فقدرت واقعية الإنسان وواقعية المجتمع ونصحت وأرشدت إلى أمثل الطرق فى التعامل مع هذا الواقع بهذا المنهج الواقعى.

وفيما يلى نسوق عددا من هذه الأحاديث النبوية الشريفة:

– روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مانهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم...».

– وروى أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجة بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ذرونى ماتركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشىء فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه».

● وفى هذين الحديثين الشريفين اعتراف بواقع الإنسان وأن صبره محدود واستطاعته محدودة، وتلك –كما قدمنا– هى واقعية الإنسان، ولن يكلفه الله إلا فى حدود مايستطيع.

– وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة– رضى الله عنها – أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها، قال: مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لايمل الله حتى تملوا» وكان أحب الدين إليه مادوام عليه صاحبه.

● ولابد من التدبر فى قوله ﷺ: «عليكم بما تطيقون» فإن فيها من تقدير واقع الإنسان وإمكاناته ما فيها.

ولابد من التدبر فى قوله: «فوالله لايمل الله حتى تملوا» فإن ذلك درس عميق لأولئك الذين يشددون على أنفسهم ويحرجون ما وسَّع الله!!

– وروى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثا، وهم المتعمقون المتشددون فى غير مواضع التشدد.

– وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء

من الدلجة » وفى رواية أخرى للبخارى: « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشىء من الدلجة، القصد القصد تبلغوا ».

– وروى مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه، فقال: « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: « وإن زنى وإن سرق ثلاثا، ثم قال فى الرابعة: على رغم أنف أبى ذر » فخرج أبو ذر وهو يقول: وإن رغم أنف أبى ذر.

– وروى مسلم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال:

« إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنه كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة ».

– وروى مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، وقالوا: أين نحن من النبى وقد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر؟

قال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبدا.

وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أنقطع.

وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: « أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى ».

– وروى مسلم بسنده عن حنظلة بن الربيع – رضى الله عنه– وكان كاتب رسول الله ﷺ، قال: لقينى أبو بكر رضى الله عنه فقال: كيف أنت ياحنظلة؟ قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ماتقول؟ قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكر بالجنة والنار، كأنَّا رأى

العين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا[1] الأزواج والأولاد، والضيعات[2]، نسينا كثيراً.

قال أبو بكر رضى الله عنه: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر- رضى الله عنهما- حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: نافق حنظلة يارسول الله!!

فقال رسول الله ﷺ: «ماذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرا، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ماتكونون عندى، وفى الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات.

- وروى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بينما النبى ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم فى الشمس ولا يقعد، ولايستظل، ويصوم، فقال النبى ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه».

● إن أبا إسرائيل فى هذا الحديث وإن كان رجلا بعينه رضى الله عنه إلا أنه رمز لكل متشدد فى الدين، آخذ نفسه بأشد ممَّايوجب عليه الدين.

● وبعد هذه النصوص من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة فتلك هى واقعية المنهج الإسلامى للحياة الإنسانية تقوم- كما رأينا فى هذه النصوص الكريمة- على دعائم راسخة تمثل الأساس لفقه الدين وفقه الدنيا، وهى:

أولا:

التكليف صادر من الله تعالى لكافة خلقه بأن يعبدوه ويوحدوه ويؤمنوا به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وكل الناس مكلفون إلا من فقد شرطا من شروط التكليف.

ثانيا:

التكليف دائما بما هو فى استطاعة الإنسان، مما هو ملائم لفطرته التى فطره الله عليها

(١) عافسنا: لاعبنا وداعبنا.

(٢) الضيعات: أسباب المعايش والمشاغل.

وذلك واقع الإنسان، وملائم للمجتمع الذى يعيش فيه الإنسان بما فيه من سلبيات، وذلك واقع المجتمع.

وعندما ينحرف واقع الإنسان أو واقع المجتمع عما أمر الله ونهى فإن المنهج يعالج هذا الانحراف نظريا وعمليا.

ثالثا:

لم يكلف الله أحدا بمايشق عليه أو يدخله فى حرج من أمره، حتى يمكن أن نقول: إن كل مافيه مشقة على الإنسان فى تطبيقه أو حرج أو ضيق لايمكن أن يكون من شرع الله ولا من تكليفه.

رابعا:

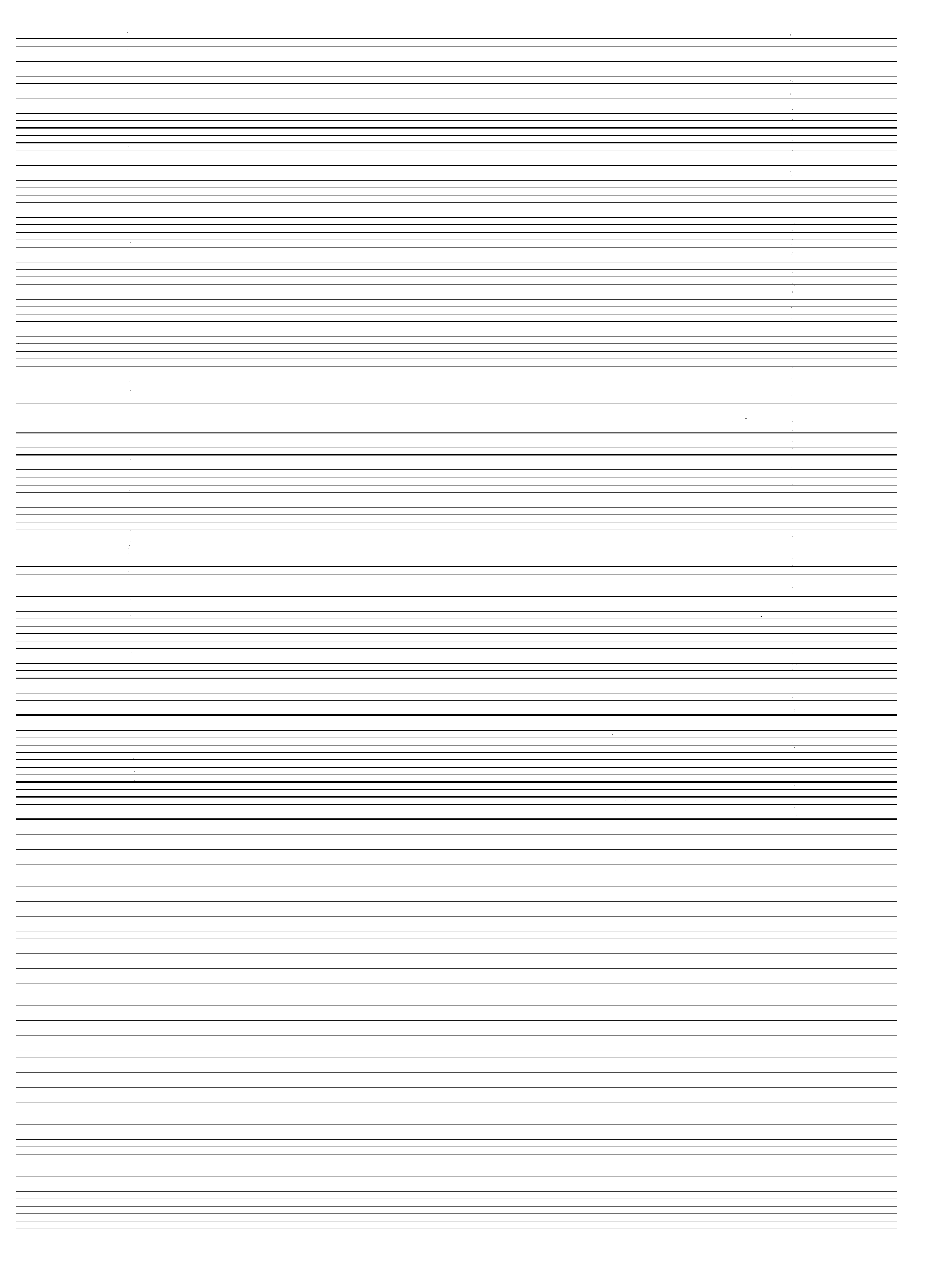
المرونة فى التعامل مع المتغيرات والمستجدات باب واسع للاجتهاد والوصول من خلاله إلى كل ما هو فى صالح المسلمين فى دنياهم وأخراهم، بشرط واحد هو عدم الإخلال بثوابت المنهج من عقيدة وعبادة وقيم خلقية.

وبعـــد:

فإن هذه الواقعية التى يحسن المنهج الإسلامى التعامل معها فى الإنسان والمجتمع هى من خصائص الفكرة الإسلامية أو من خصائص الدين الخاتم.

وهى بهذه الخصيصة وبسابقتها من الخصائص كالولاء والبراء وسمو المبادئ وإنسانيتها وتميزها وانفرادها مع واقعيتها وقدرتها على مواكبة المتغيرات هى الفكرة التى تستأهل أن يتجرد لها المسلمون من كل ما يشغلهم عن الإخلاص فى نشرها وإقناع الناس بها عن طريق الدعوة والحركة والعمل والالتزام.

والمسلم لايتجرد إلا للحق ولما له مصداقية، وليس مثل الإسلام فى هاتين الصفتين دين أو منهج أو نظام، فهو من عند الله- وقد تكفل الله بحفظه- والله أعلم بما يصلح عباده فى معاشهم ومعادهم، وقد شرعه الله ليطبق وليعمل به، لا لمجرد الحديث عنه والإشادة به.



الفصل الثالث

أقسام الناس بالنسبة للتجرد وأسلوب التعامل معهم

وهـــم:

١- المسلم المجاهد.

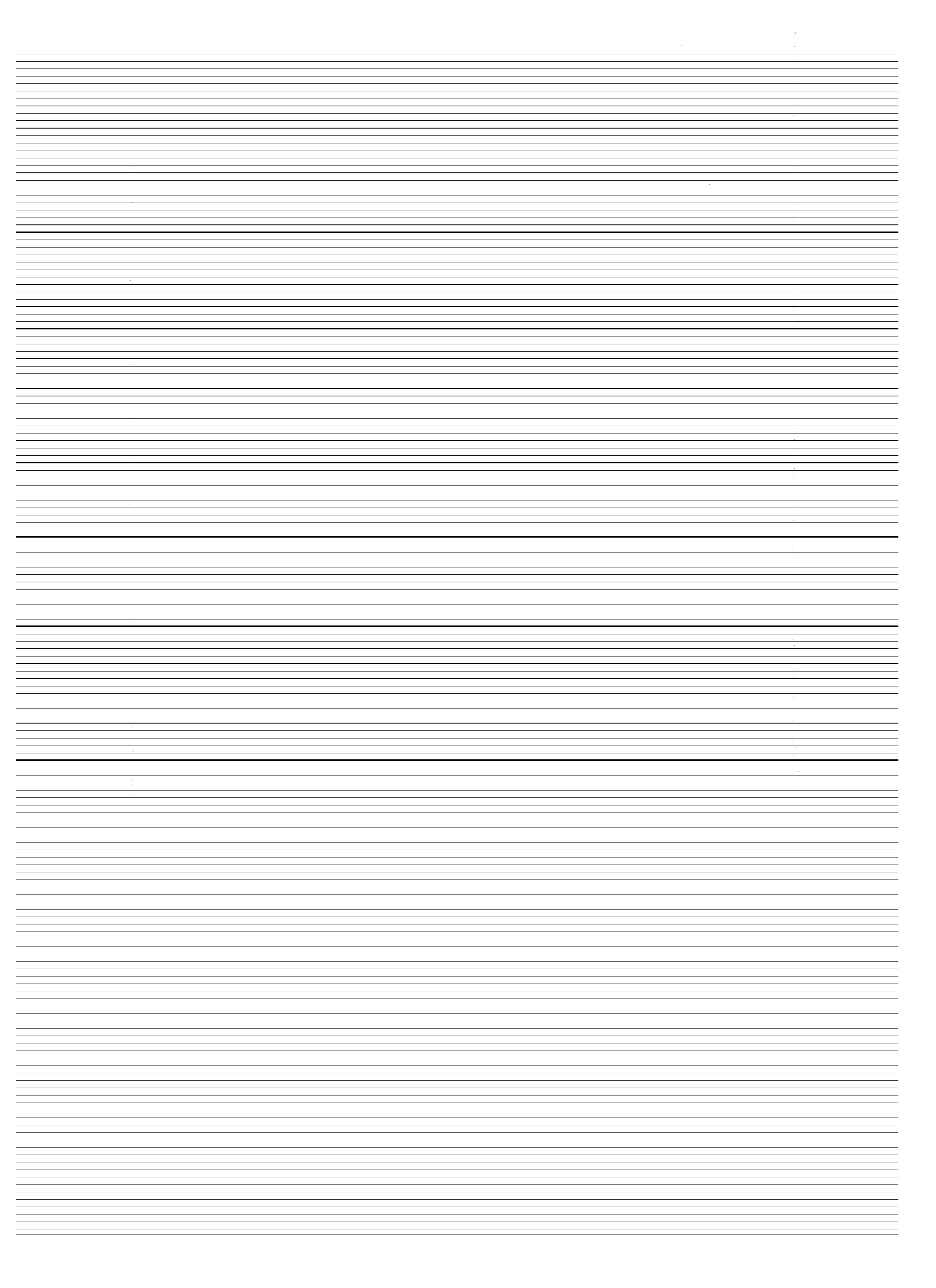
٢- والمسلم القاعد.

٣- والمسلم الآثم.

٤- والذمي المعاهد.

٥- والمحايد.

٦- والمحارب.



أقسام الناس بالنسبة للتجرد وأسلوب التعامل معهم

من الطبيعى ألا يكون الناس جميعا- أو المسلمون خصوصا- أمام التجرد سواء، إذ الأصل أن يكون المسلمون المخلصون لدينهم متجردين من أجله من كل ما يشغلهم عنه، أى مجاهدين فى سبيل الله من أجل هذا الدين لكى تكون كلمة الله هى العليا.

- ومن المسلَّم به أن هذا الدين الخاتم وفكرته الإسلامية التى تحدثنا عنها آنفا وعن خصائصها، ودعوة هذا الدين التى يجب أن تبلَّغ إلى كل إنسان على وجه الأرض- وبخاصة بعد أن أصبحت الأرض كلها قرية صغيرة بسبب وسائل الاتصال- وحركته التى يجب أن يمتد بها المسلمون يحملون مبادئها إلى الناس والآفاق.

- ومن المسلَّم به أن شيئاً من ذلك لن يحدث- على الرغم من وجوبه شرعا- مالم يكن هناك تجرد لدى القائمين بهذه الأعمال فكرة ودعوة وحركة، حتى يبلغ هذا الدين مابلغ الليل والنهار كما جاء ذلك على لسان المعصوم ﷺ.

- ومن المسلم به أن المبدأ والمنهج كلما كان مساندا للروح يمدها بوسائل تقوية صلتها بالله تبارك وتعالى، وكان سندا لها فى الشدائد والمهمات، بما يطالبها به من التعبد للخالق الأعظم سبحانه وتعالى، فى صورة صلوات مفروضة خمس مرات فى اليوم والليلة يوقف الروح فيها بين يدى خالقها تدعوه وتحس بجوده وبواسع رحمته، كلما كان المنهج كذلك كان ذا تأثير على الناس يدفعهم إلى الاستجابة لما يطلب منهم، وإلى التجرد من كل مايحول بينهم وبين أداء هذه العبادات.

- وكلما اشتمل المنهج على مطالب تعبدية لله تعالى فى صورة الامتناع عن الطعام والشراب وشهوات النفس تقربا إلى الله تعالى – فى الصيام – وفى صورة اقتطاع جزء معلوم من ماله فى وقت معلوم لإعطائه لأصحاب الحقوق فى هذا المال، وأضاف إليه ماشاء من صدقات – أى الزكاة والصدقة – وفى صورة رحلة إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج، ليشهد الناس فى هذا الحج منافع لهم فى الدين والدنيا.

كلما كان المنهج كذلك كان أشد قوة وتأثيرا فى الناس ليتجردوا له من كل مايعوقهم عن أداء عباداته.

- وكلما كان المنهج سندا للعقل يحترمه ويقدره – بوصف العقل من نعم الله الكبرى على الإنسان– ويعطيه حرية التفكير وحرية الإرادة والاختيار فى كبريات القضايا فضلا عن صغرياتها، حتى ليجعل الإيمان نفسه بالنسبة للعقل موضوع إرادة واختيار، وكلما زوّد هذا المنهج العقلى بمصادر المعرفة الموثقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ودعاه إلى النظر والتدبر والسير فى الأرض لأخذ العبرة والخبرة، كلما شعر هذا الإنسان بأن له كيانا واحتراما وتقديرا فى هذا المنهج، فلابد أن يدعوه ذلك إلى التجرد فى تطبيق ماجاءه به هذا المنهج، ليقينه بأن هذا التطبيق فى صالح دنياه وأخراه.

- وكلما كان هذا المنهج ذا قيم خلقية فاضلة إذا تمسك بها حظى بالاحترام والتقدير من كل يحيطون به من الناس، وأحسن بها التعامل مع الناس فعاش معهم فى أمن وسلام وحب ووئام وتعاون على البر والتقوى، وتعاون على قمع الشرور والآثام فأمن المجتمع وأمنه المجتمع، كلما كان المنهج كذلك، وجد من الناس من يتجرد له ولمبادئه، ويضحى فى سبيله بكل مايشغله عن التمسك بأخلاقه والتحلى بآدابه.

بل إن المنهج إذا كان كذلك جرى من الناس مجرى الدم فى عروقهم، واعتبروا كل تقصير وقعود أو تخاذل عن التمسك بعبادته أو معاملاته أو أخلاقه، جريمة فى حق أنفسهم وفى حق الناس جميعا، وجريمة فى حق واضع المنهج سبحانه وتعالى، جريمة تستحق عقاب الدنيا بأن تفوتهم مصالحها، وتستحق عقاب الله فى الآخرة لأنها معصية له ونكوص عن الأخذ بالمنهج الذى وضعه لهم وجعله يهديهم للتى هى أقوم.

- والمنهج الإسلامى كان كذلك وسوف يبقى كذلك أيضاً لأنه خاتم المناهج الإلهية وأتمها وأكملها، فهو فى هذه الخصائص لايساويه أو يجاريه منهج أو نظام.

ومن أجل هذا كان التجرد له نتيجة حتمية لفهمه وفهم مقاصده وأهدافه، وفقه عباداته ومعاملاته، وتشرب قيمه وأخلاقه، وإدراك قيمة جهاده وتضحياته.

- ولو شئنا أن ندلل على مصداقية هذه الحقيقة بضرب الأمثلة من تاريخ المسلمين على تجردهم لهذا الدين دفاعا عن أنفسهم من الخلل والاضطراب ودفاعا عن الدين نفسه من أعدائه، لما وسعتنا هذه الصفحات.

غير أن ما لا يدرك كله لا يترك جله، فلأستشهد ببعض المواقف التى جنى فيها المسلمون ثمرات حلوة عندما تجردوا لهذا الدين وواجهوا أعداء أكثر عَدَدًا وعُدَدًا فأعدوا لهم

وتجردوا لقتالهم فنصرهم الله عليهم.

- في مكة المكرمة :

كان الإسلام وليداً، وكان منهجه جديداً على الناس، وكان أعداؤه مشركين غلاظ الأكباد، تحدوا الرسول ﷺ ومن آمن معه - على الرغم من صلات القربى التي يقدسون - فعذبوهم وحبسوهم وقاطعوهم وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم - كل ذلك بعد فشلهم في مساومة الرسول ﷺ، وفتنوا بعضهم حتى أجبروه على النطق بكلمة الكفر.

ولكن الرسول ﷺ والذين آمنوا معه ثبتوا وصبروا واحتملوا، حتي جاءهم الأمر بالهجرة، فما الذى منحهم هذه القوة ليثبتوا ويصبروا ويحتملوا، إنه التجرد لهذا الدين الذى ألقاه الله فى قلوبهم وعقولهم، فكان نصر الله وكان انتشار الإسلام على الرغم من اضطهاد أتباعه وناشريه وكان أن استعصى على المشركين القضاء على هذا الدين.

- وفى المدينة فى حياة الرسول ﷺ :

كانت الدولة ناشئة والأولياء قلة، والأعداء كثرة، وكان مكر اليهود وغدرهم، وكان نفاق المنافقين، وكانت الأحزاب على أبواب المدينة وكان المسلمون قلة.

ولما قاتلت الفئة القليلة الفئة الكثيرة انتصرت فى بدر، وامتحنت فى أحد، ونجت من الكيد والحشد فى الأحزاب وظلت توالى انتصاراتها حتى فتح الله عليها مكة أعتى حصون الكفر والشرك والعداء، فهل كان ذلك إلا نتيجة للإيمان بالله والتوكل عليه والأخذ بأسباب الحرب، وبالتجرد لهذا الدين من كل ما يشغل عن معاركه؟.

- وبعد الرسول ﷺ فى عصر الخلفاء الراشدين:

واجه المسلمون حركة الارتداد عن الدين، وكانت حركة واسعة وعنيفة، وحربا ضارية، وكانت مواكبة لبعث جيش أسامة فى مواجهة الروم، والروم عَدَدٌ وعُدَدٌ وأولياء لهم من العرب أنفسهم وجيوشهم زاحفة كاسحة لا يتصور أحد أن يقاومها المسلمون فضلا عن أن ينتصروا عليها.

وواكب ذلك كله رغبة دولة الأكاسرة فى القضاء على الإسلام والمسلمين.

واجه المسلمون كل ذلك بقوة إيمانهم بالمنهج الذى جاءوا به للناس وقوة يقينهم بأنهم

على الحق، فقاتلوا كل هؤلاء الأعداء، ولم تخفهم كثرة المرتدين، ولا النظام الكسروى وجيوشه الجرارة، ولا النظام القيصرى وغروره وبطشه وجيوشه الكثيفة التى تحترف القتال وتهزم أعتى الجيوش.

انتصر المسلمون على ذلك كله لأنهم تجردوا لله ولهذا الدين وحرصوا أن يموتوا شهداء فعاشوا منتصرين.

- فى زمن الحروب الصليبية (٤٩١هـ - ٦٩٢هـ).

واجه المسلمون أعداء طامعين خلطوا بين الحرب المقدسة والمطامع الشخصية والرغبة فى الخروج من نظام الإقطاع الذى كان سائداً فى أوروبا كلها، لكنهم على الرغم من ذلك كانوا كثرة كاثرة، وتحالفا بين معظم الدول الكبيرة فى أوربا آنذاك.

وكان المسلمون أقل ما كانوا عليه أيام عصر الخلفاء الراشدين لكنهم لم يزالوا أصحاب المنهج وحماته والدعاة إليه.

وكانت هذه الحروب محنة للمسلمين لقوا فيها على أيدى الصليبيين ما لقوا من البلاء والعناء، وقتل الأطفال وبقر بطون الحوامل من النساء، واغتصاب من تطوله أيدى جيوش الكنيسة، منهن!!!

وأدعى أن كل هزيمة وقعت للمسلمين فى هذه الحروب كان سببها نقص التجرد لله وللدين بين المقاتلين.

فلما أتاح الله للمسلمين قادة وجنودا دخلوا المعارك متجردين تحقق النصر على أيديهم - على الرغم من اتساع المدى الزمنى لهذه الحروب فقد كانت قرنين من الزمان، واتساع الرقعة التى شملتها هذه الحروب فقد كانت مصر والشام بمعناهما الواسع آنذاك.

استعيدت بيت المقدس بعد بقائها فى أيديهم ما يقرب من تسعين عاما وأُجْلُوا عن آخرهم وعادوا من حيث جاءوا بعد ما يقرب من مائتى عام، وما كان هذا النصر إلا نتيجة لفقه التجرد عند عدد من القادة والجنود، منهم: نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبى، والأشرف خليل بن قلاوون.

- ودار الزمن دورة أو دورتين:

ثم واجه المسلمون دول «الاستعمار» الحديث، بكل ما أوتيت من علم بعد عصر النهضة

العلمية عندهم ومن قوة السلاح المتطور وقوة الاقتصاد، وكثافة الجيوش التى لا تغيب عنها الشمس، وكثرة هذه الدول «المستعمرة» وتنوع مناهجها، واتفاقها جميعا - على ما بينها من خلافات وصراعات - على الاستيلاء على بلاد المسلمين وحرب الإسلام فى داخل أرضه بقطع اللسان العربى وفرض لسان أجنبى مكانه، وتمزيق الثقافة وتحويل الولاء.

وقد كانت لهذه الدول وسائل وحشية فى التعامل مع المسلمين كما حدث من أسطول «فاسكو دى جاما» البرتغالى إذ تعرض لسفن الحجاج المسلمين فأحرقها بمن فيها!!!

وكما حدث من قائد الحملة البرتغالية ضد ملك كاليكوت فى معركة ٣ فبراير ١٥٠٩م إذ قال: «إنه كلما أمكنه العثور على مسلم كان إفلاته من يده مستحيلا، وأنه كان يملأ بهم المساجد ثم يضرم فيها النار ليحرقها ويحرقهم».

• على الرغم من تلك الوحشية والضراوة التى لاتستغرب منهم حتى اليوم- كما فعلوا فى الهند الصينية وفى أندونيسيا وفى فيتنام وفى إسبانيا وفى كثير من بلدان المسلمين وأقربها إلى الأذهان هيروشيما ونجازاكى، ثم دير ياسين وبحر البقر وقانا وكل أرض فلسطين، نعم بعض هذه المجازر تمت بأيدى يهود ولكنهم بالقطع يهود أوربا والغرب!!!

على الرغم من كل ذلك فإن بعض المسلمين ثبتوا لهذه المجازر، وثبتوا على دينهم ومبادئه ولايزال بعضهم حتى اليوم شجى فى حلوق هؤلاء الأعداء المتوحشين الذين تقودهم اليوم الولايات المتحدة وإسرائيل، وبعض صغار المسلمين وضعفائهم، وما ذاك إلا لأن قلة من المسلمين اليوم لايزالون متجردين لهذا الدين محتسبين عند الله ماينالهم من أعداء الإسلام والمسلمين.

- وجاءت دول «التبشير» وهى كثيرة، وكان همها اقتلاع جذور الإسلام من نفوس المسلمين فى كل مكان من الأرض وبخاصة فى آسيا وإفريقيا، فقدمت هذه الدول ومن أمامها الكنيسة على مختلف مذاهبها، كل ماتستطيع أن تقدمه لإغراء المسلمين بترك الإسلام والدخول فى المسيحية، ولكن جهودهم ذهب كثير منها مع تحمله الرياح من تراب، وبقى المسلمون معتزين بدينهم متجردين له مخلصين لله فى أقوالهم وأعمالهم.

مع أن هؤلاء المتمسكين بالإسلام لم يعطوا على هذا التمسك أجرا من دولة من دول المسلمين ولاهيئة من هيئاتهم، بل إن كثيرا منهم ما عرفوا الإسلام إلا من خلال قوافل تجار المسلمين التى تمر ببلادهم!!!

– ثم جاءت دول الدعاية المذهبية كأولئك الذين يدعون الديمقراطية ويخطفون الناس قهرا وإرهابا من سواحل إفريقية ثم يكون مستقبلهم العبودية والطوق فى الأعناق ولكن لابأس فهو طوق الديمقراطية!!!

ومن يتجول أو يتأمل فى المجتمع الأمريكى مقدس الديمقراطية وراعى حقوق الإنسان –كما يزعم– يجد بقايا هؤلاء العبيد وقد كسر عنهم طوق العبودية ولكنهم يعاملون على أنهم ملونون ويجد الهنود الحمر أصحاب البلاد الأصلاء يعيشون حياة أقل من حياة الإنسان.

ومن يذهب إلى فرنسا صاحبة وثن الحرية يجد الأحزاب التى أسست على أساس عرقى!!!

ومن رأى أو سمع مافعله الصرب والكروات فى مسلمى البوسنة والهرسك وإقليم كوسوفا، يعرف تماما كيف يتبنى الغرب الديمقراطية ويكتب المعاهدات فى حقوق الإنسان؟ ويدرك تماما إلى أى مدى قد تجرد هؤلاء الغربيون معظمهم من صفات الإنسان!!

ومن عاين ما فعله «الاتحاد السوفيتى» السابق فى مسلمى شرق آسيا ووسطها يتأكد له أن هؤلاء ليسوا من البشر وإنما هم وحوش تأكل الشيوعية وتشرب الاشتراكية وتلبس مسوح الحيوانات الضارية وتستأصل الإنسان لدينه أو لمذهبه ومعتقده، ثم مايلبث هذا الظلم أن ينهار بأيدى دعاته ومروجيه والذين كانوا يعذبون الناس ليدخلوهم فى مذهبهم الجديد.

● ومن عجب أن الفكر الماركسى الجانح والاستبداد اللينينى الغاشم، والدموية العارمة لدى «ستالين» و«بريا» ومن لف لفهما، هذا الفكر وهذا التوجه فى حكم الناس أو قهرهم يجد من بعض الحكام الغافلين أو من بعض أدعياء الفكر والتنظير من ينضم لهذا الموكب الرهيب الوالغ فى دماء غير الشيوعيين، وأن يدخلوا هذا المذهب فى بلادهم ذاهلين عن حركة التاريخ التى هدمت أركان المعبد فانهار على مؤسسيه وساكنيه.

لكن الغافلين من الشيوعيين أو اليساريين أو الاشتراكيين لايزال بعضهم حتى اليوم يتلذذ بدماء الأبرياء فى السجون والمعتقلات وجحيم سيبريا وأحواض حامض «الكبريتيك» التى تذيب أجسام أعداء المذهب والنظام!!

● ولقد نال المسلمين فى كل بلد أخذت هذا المذهب مانالهم من ألوان تعذيب تقشعر لها الأبدان، وحسبك بطوق من حديد يعصب رأس المسلم - فى سجون أذناب الاشتراكية ومعتقلاتهم - ويضيق حتى يفصل عظام الرأس، أو حسبك بخازوق الحديد يُدس فى دبر المعارض، أو حسبك باغتصاب زوجة المعارض أو بنته أو أمه أو أخته أمام عينيه من حكام يطلقون شعار «ارفع رأسك يا أخى..» نعم يرفعها ليرى مايشيب له الولدان وتضع كل ذات حمل حملها.

لقد دفع المسلمون فى هذه المعارك أبهظ الأثمان من أبدانهم وأموالهم وحرياتهم وكرامتهم الإنسانية، ولكن معظمهم كان على فقه بالتجرد لله ولدعوته، فلم يفتنه هذا عن دينه بفضل من الله.

● وقد صنف الإسلام على أيدى هؤلاء الغافلين وأقلام كتابهم على أنه مخدر للشعوب وأفيون وظلاميات وغيبيات واعتقل كثير من المسلمين من أبواب المساجد فى صلوات الفجر لأنه- عندهم- لايصلى الفجر إلا ممعن فى الظلامية والغيبية والرجعية ومعاداة الفكر الاشتراكى أو الشيوعى أو الماركسى أو اليسارى، وهو لذلك يستحق الاعتقال والتعذيب حتى الموت.

تلك كانت أياما حالكة السواد، وسنوات عجافا، وسجونا ومعتقلات حشد فيها كل مسلم صنف معارضا للنظام ولقد افتخر طاغية منهم بأنه اعتقل فى ليلة واحدة ثمانية عشر ألفا من المسلمين- وكان يعلن هذا فى زيارة له للاتحاد السوفيتى السابق، ولابد أنه وجد تصفيقاً حادا من الغوغاء المنتفعين!!!

● غير ذلك كله لم يستطع أن يقلع الإسلام من قلوب المسلمين ولا أن يهز ثقة المتجردين فى منهجهم وقيمهم وولائهم لدينهم وعدائهم لأعداء الله.

وسنة الله جارية دائماً بما تجرى به، فقد هلك الحكام الغاشمون وأذنابهم الذين كانوا آلات للتعذيب لاتملك حسا ولا شعورا، وانهار كل ذلك على رءوسهم، وبقى الإسلام شامخا فى نفوس أبنائه المتجردين لله ولدينه ولدعوته، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ولا يحسبن حاكم ظالم أنه يستطيع أن يقتلع الإسلام من نفوس المسلمين، مهما زاد ترهيبه أو ترغيبه لأن هذا الدين هو دين الفطرة لاينحرف عنه إلا من ساءت فطرته وفسدت إنسانيته.

– واليوم جاء دعاة النظام العالمى الجديد– الولايات المتحدة ومن ورائها أو من أمامها إسرائيل– وجاء الحواة بنظرية العولمة وكلاهما خدعة لاتنطلى على أشد الناس سذاجة، وحسب خداعها أنها تصدر عن أعداء الإنسانية وأعداء حقوق الإنسان وأعداء الحرية بل الحريات جميعا.

إن الناس حتى غير الإسلاميين منهم قد أشبعوا هذين الموضوعين حديثا وبحثا وكشفا لأبعادهما الخبيثة، وتوضيحا لأهدافهما التى تنحصر فى أن تسيطر الولايات المتحدة الأمريكية ومن ورائها أو من أمامها إسرائيل، وفى يدها طفل عاجز هو أوربا، لتمضى بهم فى طريق مظلم لأنه ملىء بالظلم، منافقون لأنهم يقولون مالايفعلون، مرابون متوحشون لايرعون فى أحد إلا ولا ذمة، يدوسون معاهداتهم وماوقعوه بأيديهم أول ما يدوسون، ويصنعون السلاح ويصطنعون له حروباً ليبيعوه بأبهظ الأثمان وبأفحش الربويات.

● إن هذا النظام العالمى الجديد– كما لا يخفى ذلك على أحد– ينصر الظالم على المظلوم ويعين القاتل على المقتول، كما فعل فى كثير من المواقف ومنها على سبيل المثال:

– تسليح إسرائيل وإغراؤها بضرب العرب والمسلمين ووقوفهم ضد أى قرار يدينها– مستخدمين حق «الفيتو» النقض، دون حياء، بل بتصريحات صاخبة تدين الضحايا وتؤيد الظالمين، ثم تجد لها أصدقاء ورعاة لمصالحها من العرب ومن المسلمين!!!

● إن ما فعلته إسرائيل وما تفعله من أعمال وحشية ومن عدوان على الدول المجاورة ومن استلاب فلسطين وطرد أهلها وتكسير عظامهم وهدم بيوتهم، ومالاسبيل إلى حصره مما هو معروف مألوف من أعمال اليهود طوال تاريخهم.

إن كل ذلك أحلى من العسل فى مذاق النظام العالمى الجديد ووفق لعبة العولمة!!!

– أما أن يتمسك المسلمون بحقهم فى عضوية مجلس نيابى جاءوا حسب أصول لعبة الديمقراطية فى الجزائر، فهذا جرم لايغتفر، وتحد للنظام العالمى الجديد لابد أن ينبرى له الغرب وأقربه إلى الجزائر فرنسا ومن ورائها أوربا والنظام العالمى الجديد، ليحرم أصحاب الحق من حقوقهم، ويجند الجيش الجزائرى لذلك الظلم الرهيب، ويدخل الجزائر كلها فى حرب أهلية سقط فيها أكثر من مائة ألف قتيل وشهيد –كل حسب نيته أمام الله– فإن ذلك مما يقوم به النظام العالمى الجديد على حين يدعى براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليهما السلام.

- وأما أن ينجح أعضاء المجلس النيابى الإسلاميون فى تركيا ويتولون رئاسة الحكومة مناصفة مع حزب آخر، فتلك جريمة أخرى للإسلاميين وإن جاءت كذلك عن طريق الديمقراطية- لابد أن يتصدى لها النظام العالمى الجديد ومن ورائه أو من أمامه إسرائيل، ويكون تصديه لها بتحريض الجيش التركى على حرب الإسلام فى تركيا، فيقتلع الجيش من الحكم رئيس حكومة شرعياً، ويلغى المدارس الإسلامية ويحل الحزب الذى نجح فى الانتخاب ويحظر إنشاء أحزاب تحمل فى برامجها مناهج إصلاح إسلامى، ولم تصب أحداً دهشة لموقف الجيش التركى، فقد ألف ما فعله النظام العالمى الجديد مع الجيش الجزائرى وعرفوا ما ينطوى عليه.

ثم لم يلبث النظام العالمى الجديد والجيش التركى أن أوضحا أهدافهما الحقيقية فى إقصاء الإسلاميين عن الحكومة، إذ عقدوا معاهدة أمن مع إسرائيل وأعطوها أولا حق الطيران فى سماء تركيا، ثم بنوا لها أخيرا قاعدة جوية فى تركيا!!

- أما موقف النظام العالمى الجديد من الحكومة الإسلامية فى السودان فليس خافيا على أحد، فهذا النظام يريد عزل السودان عن جاراتها واصطناع الصراعات معهم، ويؤلب بعض قادة جنوب السودان ليرفضوا الحكم بالشريعة الإسلامية، وتشتعل الحرب وتسيل الدماء، ولو أعلنت السودان فى ساعة من نهار تخليها عن الشريعة الإسلامية لأعلن النظام العالمى الجديد فى الساعة نفسها فك حصاره عنه، ومباركة خطوته فى طريق ديمقراطيتهم المزعومة!!

- وكذلك كان شأن النظام العالمى الجديد ومن ورائه إسرائيل أو من أمامه بالنسبة للصرب وهم يقتلون مسلمى البوسنة ويغتصبون نساءهم فأمدوهم بالسلاح وحظروا على البوسنة والهرسك التسلح حتى لو جاءهم من بلد مسلم!!!

وأين ذلك البلد المسلم الخارج عن تأثيرهم ونفوذهم، وظل هذا الحظر حتى عقد مؤتمر «دايتون» فى أمريكا لحل المشكلة لصالح الصرب والكروات وضد مسلمى البوسنة والهرسك!!

- واليوم يحدث نفس ماحدث فى إقليم كوسوفو المسلم أهله، والنظام العالمى سعيد بما يحدث ينوى أن يحل المشكلة لصالح الصرب أيضاً بعد أن يبيد الصرب معظم الألبان المسلمين هناك.

وأخشى مايخشى هو تدخل تركيا فإنها بالقطع سوف تتدخل لصالح النظام العالمى الجديد!!

وبعد: فهذه كلمات وجيزة فى بحر متلاطم من الأحداث لا أملك من الأسباب ما يجعلنى أستوعب كل حدث فيه فى هذا الكتاب، لكن حسبى الإشارة والاستشهاد.

وهدفى من تلك الجولة أن أقول:

إن تجرد بعض المسلمين لربهم ودينهم ومنهجه ونظامه هو الذى أبقى على وجه الأرض مسلمين يعبدون الله وفق منهجه.

والمسلمون والناس عموما كان لهم موقف من التجرد لله ولدينه ودعوته، وعلى المسلمين مهما كانوا محاطين بالأعداء أن يتعاملوا مع الناس من خلال مواقفهم من التجرد لله ولدينه ودعوته.

فالمسلمون إما أن يكونوا مجاهدين أو قاعدين أو آثمين، ولهؤلاء أسلوب فى التعامل يختلف عن غيرهم.

وغير المسلمين إما أن يكونوا أهل ذمة وعهد، أو محايدين، أو محاربين وهؤلاء لهم أسلوب فى التعامل معهم.

هذا ما نرجو أن نوضحه فى هذا الفصل الأخير من الكتاب.

والله تعالى هو الموفق الهادى إلى سواء السبيل.

١ - المسلم المجاهد

الجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ولكى تصل دعوة الله إلى عباد الله فى كل مكان، وفى كل زمان دون أن يعوق وصولها فرد أو حكومة أو نظام، هذا الجهاد لهذه الأهداف فرض عين حيناً وفرض كفاية أحياناً.

● والجهاد هو: استفراغ الوسع فى مدافعة العدو - أى قتاله.

والجهاد هو: الدعوة لدين الحق أى تبليغ دين الله لعباد الله.

والجهاد هو: توضيح البرهان وإقامة الحجة من أجل إقناع الناس بدين الحق، وما يقتضيه من إيمان وإسلام وعدل وشورى وإحسان.

● ولتشريع الجهاد تاريخ، فإن الله تعالى لم يشرع للمسلمين أن يجاهدوا فى سبيله بأنفسهم - أى بالقتال، إلا بعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ولحق به أصحابه هناك فاقام الدولة والحكومة، وكانت الهجرة إلى المدينة شرطاً من شروط الإيمان، بحيث لا يعد مؤمناً من استطاع الهجرة إلى المدينة ولم يهاجر، أى ليس بمؤمن من لم يشارك فى إقامة دولة المسلمين وحكومتهم فى المدينة المنورة.

وظل شرط الهجرة قائماً حتى فتح الله على المسلمين مكة، واستقر أمر الإسلام واستقرت دعائم الدولة والحكومة، عندئذ أعفى المؤمنون من الهجرة إلى المدينة، كما جاء ذلك فى حديث رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» كما رواه أصحاب السنن.

● عند استقرار الرسول ﷺ والمؤمنين فى المدينة شرع الله لهم أن يجاهدوا أعداءه وأعداءهم، وأخبرهم بأنه سبحانه سوف يدافع عنهم ويؤيدهم وينصرهم على أعدائهم، مادام جهادهم من أجل دين الله، ولكى تكون كلمته هى العليا، وماداموا بعد انتصارهم على عدوهم يعملون على:

- إقامة الصلاة.

- وإيتاء الزكاة.

- والأمر بالمعروف.

– والنهى عن المنكر.

لأن هذه هى دعائم المجتمع المسلم والحكومة المسلمة، وذلك واضح فى قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

[الحج: ٣٩ – ٤١].

وإنما أذن الله تعالى للمؤمنين بالقتال وأن يجاهدوا عليه أعداءهم، لأن الحق الذى يدعون إليه يحتاج إلى قوة تسانده، وتبلّغه مأمناً مكانياً وزمانياً ومادياً ومعنوياً ينطلق منه ويصل إلى كل الناس.

● وهذا الجهاد أنواع:(١)

فمن المعروف لدى علماء المسلمين فى مختلف العصور – من خلال تدبرهم فى الكتاب والسنة – أن الجهاد فى سبيل الله أربعة أنواع:

أولها: جهاد النفس:

أى حمل الإنسان نفسه على تعلم الدين والالتزام به، ثم حملها على العمل بما علمت، وعلى تعليم غيرها من الناس ما علمته من حق وخير، وإجبارها على الصبر على مشقات التعلم والعلم والتعليم أى الدعوة إلى دين الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وثانيها: جهاد الشيطان:

وإنما يكون برفض ما يلقى الشيطان فى نفس الإنسان من شكوك ووساوس وشبهات، وبترك ما يزين للإنسان من معاص أو مخالفات لمنهج الله فى التعامل مع الله ورسوله والتعامل مع النفس ومع الناس.

وثالثها: جهاد أهل الظلم والمنكرات:

وأولى درجات هذا النوع من الجهاد وأهمها هو منعهم من ممارسة الظلم والمنكر باليد أى

(١) للتوسع فى ذلك انظر لنا الحلقة الرابعة من هذه السلسلة: «الجهاد».

بالقوة، ثم جهادهم باللسان والقلم بالرد عليهم وعلى باطلهم، وتقبيح ما يفعلون وحشد الرأى العام ضدهم، ونشر دعوة الحق فيهم.

ثم جهادهم بإنكار القلب لما يفعلون، وإنما يكون ذلك عند العجز عن الإنكار عليهم باليد واللسان ومواجهتهم بالقوة التى تكفهم عن الظلم والمنكر.

ورابعها: جهاد أعداء الله من الكفار والمنافقين:

وذلك هو القتال الذى يسبقه – فى الغالب – كل أنواع الجهاد الثلاثة السابقة.

ويستلزم هذا النوع الرابع من الجهاد التضحية بالوقت والجهد والمال والنفس، والحرص فى خوض المعركة على نيل الشهادة فى سبيل الله»[1].

وإذا كانت تلك أنواع الجهاد، فنرى من الضرورى أن نوضح أغراضه، حتى يكون واضحاً للقارئ حكم المسلم المجاهد فى التعامل معه.

● أغراض الجهاد فى سبيل الله:

– شرع الله الجهاد فى سبيله ليحقق المسلمون به أغراضاً حيوية لابد منه لكى تكون كلمة الله هى العليا، وهى أغراض نبيلة إنسانية ليس فيها شئ مما يعاب على المقاتلين من غير المسلمين مثل: الغدر والخيانة وقتل النساء والأطفال وكبار السن وكل من اعتزل القتال.

وليس فى الجهاد فى سبيل الله تعذيب للأسرى، أو سوء معاملة لهم، فضلاً عن قتلهم بعد أسرهم – كما فعلت إسرائيل – وكما يفعل حتى اليوم، وكما فعل الصرب فى البوسنة والهرسك وكوسوفو، وكما فعل أسلافهم الأسبان والصليبيون القدامى، وكما يفعل الصليبيون الجدد، والهندوس والروس اليوم!!!

وإنما الجهاد فى الإسلام يستوجب حسن معاملة الأسرى، كما نصت عليه الأحاديث النبوية، قبل أن يقرر ذلك فى جنيف – حبر على ورق – بألف عام بل أكثر!!

هذه الأغراض إجمالاً هى:

أولاً: رد عدوان المعتدين على المسلمين، سواء أكان العدوان على النفس أو المال أو

---

(١) ولمعرفة تفاصيل هذه الأنواع الأربعة: انظر ركن الجهاد الصفحات من ٣٦ – ٤٨ نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م.

العرض أو الوطن، أو أى حق من الحقوق.

ثانياً: تمكين دعوة الله من أن تبلغ لعباد الله فى كل مكان يمكن أن تصل إليه، وفى كل زمان بحيث لا تتوقف أبداً ولا يعوقها أحد أو شيء.

ثالثاً: وتمكين منهج الله ونظامه من أن يحكم الناس ليعيشوا به فى أمن وسلام وتقدم وازدهار.

رابعاً: ومواجهة النظم المعادية للحق الظالمة للإنسان المستبدة بحقوق الناس، إلى أن تستقيم هذه النظم على الحق ويرتدع القائمون عليها عن باطلهم[1].

● وليس معنى ذلك أن الإسلام ينتشر بين الناس بالقوة أو الإكراه، لأن ذلك مرفوض بنص من القرآن الكريم، فضلاً عن عدد من الأحاديث النبوية، فقد قال الله تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦].[2]

وأحب هنا أن أنقل كلمة للإمام البنا قوية جامعة قال فيها: «فرض الله الجهاد على كل مسلم فريضة لازمة جازمة لامناص منها ولا مفر معها، ورغَّب فيه أعظم الترغيب، وأجزل ثواب المجاهدين والشهداء، فلم يلحقهم فى مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم، ومن اقتدى بهم فى جهادهم، ومنحهم من الامتيازات الروحية والعملية فى الدنيا والآخرة مالم يمنح سواهم، وجعل دماءهم الطاهرة الزكية عربون النصر فى الدنيا، وعنوان الفوز والفلاح فى العقبى، وتوعد المخلَّفين القاعدين بأفظع العقوبات، ورماهم بأبشع النعوت والصفات، ووبخهم على الجبن والقعود ونعى عليهم الضعف والتخلف، وأعد لهم فى الدنيا خزياً لا يرفع عنهم إلا إن جاهدوا، وفى الآخرة عذاباً لا يفلتون منه ولو كان لهم مثل أحد ذهباً، واعتبر القعود والفرار كبيرة من أعظم الكبائر، وإحدى السبع الموبقات المهلكات.

ولست تجد نظاماً قديماً أو حديثاً، دينياً أو دنيوياً عنى بشأن الجهاد والجندية واستنفار الأمة وحشدها كلها صفًا واحداً للدفاع بكل قواها عن الحق، كما تجد ذلك فى دين الإسلام وتعاليمه.

وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم ﷺ فياضة بكل هذه المعانى السامية،

---

(١) انظر المرجع السابق: ٦٢ — ٧٠.

(٢) انظر المرجع السابق: ٦١.

داعية بأفصح عبارة وأوضح أسلوب إلى الجهاد والقتال والجندية، وتقوية وسائل الدفاع والكفاح بكل أنواعها من برية وبحرية وغيرها على كل الأحوال والملابسات[١].

● تلك كلمات كان لابد منها عن الجهاد في سبيل الله، تلك الفريضة الماضية في أعناق المسلمين إلى يوم القيامة.

والناس أمام هذه الفريضة واحد من الستة الأصناف التي أشار إليهم الإمام البنا في قوله في ركن التجرد:

« والناس عند الأخ الصادق واحد من ستة أصناف:

– مسلم مجاهد، أو مسلم قاعد، أو مسلم آثم، أو ذمي معاهد، أو محايد، أو محارب، ولكل حكمه في ميزان الإسلام... ».

فما حكم المسلم المجاهد في ميزان الإسلام؟

المجاهد هو من أدى فريضة الجهاد بماله ونفسه، سواء أكان أداؤه لها فرض عين عليه أم فرض كفاية إذا فعله بعض المسلمين سقط عن سائرهم.

● ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع:

أحدهما: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان – أي التحمت الجيوش في القتال، عندئذ يتعين على المجاهد المضي في القتال، والثبات والمقام لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الأنفال: ٤٥].

بل إن الفرار في هذه الحالة من أكبر الكبائر، وأعظم الجرائم التي نهى عنها الله تعالى وتوعد من فرّ أو تراجع عن غير خطة، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ [الأنفال: ١٥ – ١٦].

والثاني: إذا نزل الكفار ببلد من بلاد المسلمين ليستولوا عليه أو يفسدوا فيه، عندئذ يتعين على أهل هذا البلد قتال الأعداء، ومن قعد منهم عن قتالهم فقد أتى كبيرة من الكبائر ودخل تحت وعيد الله تبارك وتعالى.

---

(١) الإمام حسن البنا: رسالة الجهاد، ص ٢٧٣، ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا – نشر دار الدعوة بالإسكندرية: ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

والثالث: إذا استنفر إمام المسلمين قوماً أى دعاهم للقتال، لزمهم النفير معه، لأن الله تعالى أوجب ذلك بأن استنكر على من تثاقل ولم يجب نفير الإمام.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

● هذه هى المواضع الثلاثة التى يجب فيها الجهاد فى سبيل الله وجوباً ولا يجوز القعود عنه، إنما يجب الجهاد فيها على من استوفى شروط الجهاد، وهى سبعة:

– الإسلام، وهو شرط لكل التكاليف الشرعية والجهاد منها.

– والبلوغ، إذ الصبى غير مكلف وغير مطالب بالجهاد.

– والعقل، لأن الله تعالى أعفى من فقد عقله أو غاب عنه لسبب من الأسباب من كل التكاليف الشرعية ومنها: الجهاد.

– والحرية، إذ العبد مشغول بذمة مالكه، ولا يملك أن يفعل شيئاً إلا بإذن مالكه.

– والذكورية، لأن المرأة معفاة من الجهاد ومن بذل أى مجهود فوق طاقتها.

– والسلامة من الضرر، لأن أصحاب الأعذار جميعاً معفون من كل تكليف فوق طاقتهم.

– ووجود النفقة، لأن الأصل أن المجاهد يعد نفسه من نفقته الخاصة، ويعده بيت المال فيما لا يستطيع هو القيام به من أدوات القتال ونحوها.

● فمن استوفى هذه الشروط وأدى تلك الفريضة فهو المجاهد وهو عند الله تعالى فى أرفع المنازل والدرجات، لقيامه بعمل هو من أفضل أعمال الإسلام.

● وإذا وزن المجاهد بميزان الإسلام فإنه يستحق أرفع درجة وأعلى مكانة.

ويجب أن يتعامل المسلمون مع المجاهد بالتكريم والاحترام والتقدير الذى كفله له الإسلام فى عدد من الأحاديث النبوية الشريفة التالية:

– روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنهما – قال: قيل: يا رسول الله، أى الناس أفضل؟ قال: «مؤمن مجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله».

– وروى الترمذى بسنده عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن النبى ﷺ قال: «ألا

أخبركم بخير الناس؟ رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله».

هكذا يتعامل المسلمون مع المجاهد بإنزاله المنزلة التى وضعه فيها رسول الله ﷺ إذ اعتبره أفضل الناس وخير الناس.

بل يجب أن يتعامل الحكام والقادة مع المجاهد بالتكريم والتقدير، فتلك هى سنة الرسول ﷺ فى التعامل معهم، وللمسلمين جميعاً فى رسول الله ﷺ أسوةٌ فقد كان ﷺ يشيع المجاهد أو القائد المتجه إلى معركة فى سبيل الله تكريماً له واحتراماً لعمله، بل كان يشيعهم ماشياً زيادة فى تكريمهم.

- روى أحمد بسنده عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ، مشى مع الذين وجههم لقتل عدو الله ورسوله كعب بن الأشرف، مشى معهم إلى بقيع الغرقد، ثم قال لهم: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم».

- وروى أحمد بسنده عن معاذ - رضى الله عنه - «أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن خرج معه يوصيه - ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت ظل راحلته..».

- وقد شيَّع أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - يزيد بن أبى سفيان - رضى الله عنه - حين بعثه إلى الشام، ويزيد راكب وأبو بكر - رضى الله عنه - يمشى.

- وإذا كانت هذه مكانة المجاهد فى سبيل الإسلام، فإن مكانته فى المجتمع المسلم إنما تستمد من تلك المكانة، ولذلك كان - وسوف يظل - أهلاً للاحترام والتوقير، والاقتداء به فى أعماله الجليلة وعلى رأسها الجهاد فى سبيل الله.

- والأصل فى المسلمين جميعاً أن يكونوا مجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وبكل ما يستطيعون، لأن فى ذلك عزة للإسلام والمسلمين بحماية عقيدتهم ومنهجهم، وحماية المجتمع كله، والتمكين لدين الله فى الأرض.

- وإنما كان المجاهد بهذه المكانة لأنه يتقيد فى جهاده بالشروط والآداب التى وضعها الإسلام فى سبيل الله.

- فالجهاد فى الإسلام ليس مجرد حرب أو قتال يستهدف هزيمة العدو أو القضاء عليه، وإحراز ربح الدنيا ومكاسبها، وإنما يستهدف أن تصل كلمة الله إلى عباد الله وأن تكون هى العليا فإن جاء مع ذلك غنم مادى فلا بأس وإن لم يأت فحسبه أجره عند الله تعالى.

– والجهاد فى سبيل الله لا يستهدف حمل الناس على الدخول فى دين الله – لأن ذلك محظور – وإنما هو فرصة لعرض الإسلام على قلوب الناس وعقولهم لإنقاذهم من فساد الكفر وضلال الهوى فهو احترام للناس بمحاولة إنقاذهم، ولذلك أحيط بقيم خلقية ما عرف فى تاريخ الحروب مثلها لا قبل الإسلام ولا بعده، ولا فى هذا العصر الذى يزعمون أنه أرقى العصور وأزهاها وأكثرها احتراماً لحقوق الإنسان – فيما يزعمون – وإن كان الواقع يكذبهم.

● وهذه القيم الخلقية وآداب الحرب واضحة فى حديث النبى ﷺ الجامع، الذى رواه مسلم بسنده عن بريدة – رضى الله عنه – قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش، أو سَرِيَّة، أوصاه فى خاصته بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، ثم قال له:

– اغزوا فى سبيل الله باسم الله.

– قاتلوا من كفر بالله.

– اغزوا ولا تغلّوا[1].

– ولا تغدروا.

– ولا تمثّلوا.

– ولا تقتلوا وليداً.

– وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.

– ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.

– ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم.

---

(١) أى تسرقوا أو تأخذوا خفية.

- وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوا أن تنزل على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم، أم لا.

- وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ﷺ فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ﷺ، فهل عرف الناس قيما أخلاقية فى التعامل مع عدو أرفع من هذه القيم؟.

- سلوا اليهود قديماً وحديثاً يجبكم ما ارتكبوا من جرائم حرب تقشعر لها الأبدان مع الأسرى والنساء والأطفال والتخريب والتدمير لكل ما أجبروا على تركه ومغادرته.

وسلوا الغرب كله تجبكم أعمالهم الوحشية البربرية:

- إسبانيا والمقاصل وإرغام المسلمين على ترك دينهم، وذبح الأطفال والنساء.

- وفرنسا وبشائع ما ارتكبت من أعمال وحشية لا تليق بإنسان كحرقهم للمكتبة العامة فى الجزائر غداة أكرهوا على الرحيل عنها.

- وانجلترا ومأساة دنشواى فى مصر، وفى غيرها من البلاد التى احتلتها.

- وألمانيا وإيطاليا وهولندا وبلجيكا والبرتغال.

- وسلوا الصرب وما فعلوا فى البوسنة والهرسك وكوسوفو.

- وسلوا النظام العالمى الجديد، وما فعلوا فى حرب الخليج - عاصفة الصحراء.

لن يكون الجواب على هذه التساؤلات إلا مخزياً للغرب وأمريكا وروسيا والهند!!

أين ما فعله المسلمون بمن حاربوهم بما يفعله هؤلاء الوحوش بمن يحكمونهم بغير شرعية تبيح لهم احتلال البلاد وإذلال العباد؟.

ثم يتشدقون بحقوق الإنسان!!

ثم يرمون الإسلام بكل إفك وباطل ويصفون المسلمين بمالا يقبله عقل ولا يقره منطق!!

أين سماحة الجهاد وآدابه من تلك الغابة التى يأكل فيها القوى الضعيف، وتعربد فيها إسرائيل فى كل مكان تغتصبه من أصحابه ومن ورائها أمريكا تبرر لها ما تفعل، ثم تدعى أنها شريك نزيه فى الحرب بين إسرائيل والعرب، أو فى السلام بينهم؟ نزاهة تمكن إسرائيل

من إنتاج القنابل النووية وتحريم التفكير في ذلك على العالم العربي كله!!

● إن الأمة الإسلامية أمة مجاهدة أو يجب أن تكون كذلك، لأن الجهاد ذروة سنام العبادات، ومصدر احترام الآخرين لأن الأمة المجاهدة تأخذ بكل أسباب القوة المشروعة في الإسلام والعدو يقدر القوة ويهابها ويفكر مليًا وطويلاً قبل أن يعتدى على أمة قوية لأنها مجاهدة.

● والأحاديث النبوية – بعدما قدمنا من آيات توجب الجهاد على المسلمين – توجب على الأمة المسلمة أن تكون أمة مجاهدة ومن تلك الأحاديث:

– ما رواه الترمذى بسنده عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: مَرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعْبٍ فيه عيينة من ماء عذبة، فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس، فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى استأذن رسول الله ﷺ، فقال الرسول ﷺ: لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة(١) وجبت له الجنة».

– وما رواه مسلم بسنده عن عقبة بن عامر الجهنى – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى».

● والرمى في الحديث الشريف هو: رمى العدو وإصابته بأى آلة من آلات الحرب، وليست القوس والسهم فقط.

● والتدرب على الرمى أى على فنون القتال مطلب شرعى واجب على كل مسلم، لأن المسلم يجب أن يعد نفسه للجهاد في سبيل الله، وكل ثقافة أو عمل يهيئه للجهاد فإن تعلمه واجب شرعى.

– روى مسلم بسنده عن عقبة بن عامر الجهنى – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من علم الرمى ثم نسيه فليس منا، أو فقد عصى»، وإنما يكون نسيان الرمى بترك التدرب عليه والاهتمام به، والمقصود أن كل ثقافة المجاهد وفنون الجهاد وعلومه، من واجب المسلم أن يتعلمها ولا يترك التدرب عليها حتى لا ينساها.

---

(١) الفواق للضرع: ما يعد فيجتمع من اللبن بعد ذهابه برضاع أو حلاب والمقصود: مدة قصيرة.

- وكل مسلم مطالب بأن يمنى نفسه بالجهاد والاشتراك فى المعارك - بعد أن يعد نفسه لذلك - وأن تحدثه نفسه بذلك، حتى لا يكون منافقاً أو على شعبة من النفاق.

- روى مسلم بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يَغْزُ ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق».

- بل إن عمل المسلم الراغب فيما عند الله التارك لمباهج الدنيا، المحب للذهاب فى الأرض سائحاً يعبد الله، هذا المسلم قد علمه رسول الله ﷺ أن الجهاد فى سبيل الله هو السياحة الحقيقية، وهو العبادة التى يقصد بها وجه الله تعالى.

- روى أبو داود بسنده عن أبى إمامة - رضى الله عنه - أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لى فى السياحة، فقال النبى ﷺ: «إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله عز وجل».

- إن الأمة الإسلامية اليوم - ممزقة فقيرة تابعة لأعدائها تبعية ظاهرة حيناً وباطنة أحياناً، مصنفة كلها بجميع دولها بين دول العالم الثالث أو النامى أو الفقير، وهذه الأمة الإسلامية لا تستطيع أن تخرج من فقرها وتبعيتها، إلا أن تصبح أمة مجاهدة تأخذ بأسباب القوة وتعد نفسها بإحياء هذه الفريضة إعداداً يمكنها من الاستعصاء على الاحتواء والتبعية.

والعالم اليوم عالم متوحش يقوده وحش كاسر هو النظام العالمى الجديد ومعه أشر عباد الله اليهود، والعالم بهذه الصفة لا يحترم إلا الأقوياء فلا ينتهك لهم حرمة، ولا يستغلهم ولا يستعلى عليهم كما يفعل مع الضعفاء.

- ومن المعروف عندنا أن الجهاد فريضة مستمرة إلى يوم الدين.

- ومن المعروف كذلك أن المسلمين ما تخلوا عن الجهاد أو عطلوه إلا أصابهم الضعف السياسى والاقتصادى، فطمع فيهم العدو واستولى على بلادهم.

- إن تاريخ الأمة الإسلامية وهى فى أوجها وفى فترات ازدهارها حضارياً، إنما قام على أساس أنها أمة مجاهدة مستعدة لأعدائها بما تستطيع أن تعده لهم من قوة ومن رباط الخيل - أى الآلة العسكرية.

- وإن أعداء المسلمين فى الشرق وفى الغرب، وفى الحاضر وفى المستقبل، يقيمون خططهم فى هزيمة المسلمين وجعلهم أتباعاً فى الاقتصاد والسياسة والفكر والثقافة على أساس إقصاء هذه الأمة عن الجهاد، ولقد نجحوا فيما أرادوا، وحققوا فى الأمة الإسلامية ما شاءوا من أغراض.

● والأمة الإسلامية تعيش اليوم فترة يعتبر الجهاد فيها متعيناً؛ فرض عين على أهل البلاد المحتلة أراضيهم، وفرض كفاية على سائر المسلمين.

– إن على كل مسلم أن يعد نفسه وعقله وبدنه وماله وجميع أسباب حياته إعداداً يلائم هذا الواقع الذى تعيشه الأمة الإسلامية اليوم، ليخوض بهذا الإعداد معركة حياة له ولأمته أو موت له ولها، ولا عذر لأحد فى ذلك مادام ينتمى لأمة الإسلام.

● وبهذه النية عند كل مسلم، وبهذا الحديث الذى يدور بينه وبين نفسه يمنيها الجهاد فى سبيل الله والموت فى سبيله، وبهذا الإعداد والاستعداد مع تلك النية يوزن المسلم بميزان الإسلام الصحيح الذى لا يعفى أحداً من مسئوليته عما آل إليه أمر أمته من ضعف وضياع.

إن على الأمة أن تأخذ هذا الطريق أفراداً وجماعات وحكومات، معتمدة على الله متوكلة عليه آخذة بالأسباب كلها، تاركة إثم تعطيل فريضة الجهاد فى سبيل الله.

والمسلم المجاهد – على هذا النحو – متجرد لفكرته الإسلامية مما سواها من الأفكار والمبادئ والأشخاص والقادة والزعماء، ومن كل ما يصرفه عن هذا الهدف النبيل.

إن المسلم بهذا الوصف لهو فى أعلى المنازل وأرفع الدرجات، وعلى هذا يجب أن يوزن وأن يعامل من إخوانه الصادقين في الدنيا، ثم له عند الله أعظم الثواب فى الآخرة وحسبه أنه إذا مات شهيداً أن يُغفر له كل ذنب إلا حقوق العباد.

٢ - المسلم القاعد

القاعد عن الشيء: المتكاسل عنه أو عن أدائه، أو تاركه، أو المتأخر عنه، وفي القرآن الكريم: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [التوبة: ٩٠].

- وجمع القاعد: قَعَدَةٌ، وهم الذين يتخلفون عن الحرب، وسميتْ فرقة من الخوارج بالقَعَدة، هم الذين امتنعوا عن الحرب، ورأوا التحكيم ونادوا به.

● والقاعدون عن الجهاد في سبيل الله غير آثمين - مادام الجهاد ليس فرض عين بالنسبة لهم - ولكنهم أقل درجة ومكانة من إخوانهم الذين جاهدوا في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

● والقعود عن الجهاد في سبيل الله يجد تبريراً عند المنافقين، وهو دليل على النفاق، وقد ارتبط ذلك بغزوة أُحُد، وبما أصاب المسلمين منها من هزيمة امتحنهم الله تعالى بها، لأنهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ فترك الرماة منهم مواقعهم وأقبلوا على الغنائم بعد الجولة الأولى من المعركة.

- وقد برَّر المنافقون قعودهم عن المشاركة في معركة أُحُد بدعويين كاذبتين.

إحداهما: زعمهم أنهم لا يعلمون أن المعركة فيها قتال، قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

والأخرى: عندما قعدوا عن القتال وحدثت الهزيمة وقتل من قتل من المسلمين، قالوا لإخوانهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي لو أطاعونا في القعود عن هذه المعركة ما كان نصيبهم القتل.

● وهؤلاء القاعدون منافقون، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ

للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون (١٦٧) الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾

[آل عمران: ١٦٧، ١٦٨].

● والمنافق يدعوه نفاقه إلى أن يقعد عن الجهاد فى سبيل الله وعن كل عمل يعود بالخير على المسلمين فى دينهم أو دنياهم.

كان هذا شأنهم فى غزوة أحد وكذلك كان شأنهم وسوف يكون.. أليسوا منافقين؟.

● وهذا المنافق القاعد يرتكب أضراراً بليغة بعضها يعود عليه هو أمام الله وأمام الناس، وبعضها يعود على المسلمين إذ يتسبب فى هزيمتهم أمام أعدائهم.

والمنافق عدو للإيمان والمؤمنين، وهو فى ذلك كالكافر وجزاؤه عند الله كجزائه: ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ [النساء: ١٤٠].

● فالقاعد عن الجهاد فى سبيل من غير أولى الضرر على شعبة من النفاق، فإن كان من أولى الضرر فهو أقل درجة من المجاهد، هذا هو ميزان الإسلام للقاعدين عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، وعلى أساس هذا الوزن يجب أن يعاملوا من المسلمين.

● ويدخل فى القاعدين غير أولى الضرر عن الجهاد فى سبيل الله أولئك المخلَّفون، فهؤلاء وأولئك لم يتجردوا للدعوة إلى الله فيجاهدوا فى سبيل الله كما هو الأصل.

وهؤلاء المُخلَّفون، قد منعهم رسول الله ﷺ من الخروج معه، لأن الله تعالى أعلمه بأنهم يفسدون ويشوهون ويشوشون، والمتوقع منهم الفرار من المعركة وهى مستعرة فيخذلون المسلمين، أو قد ينحازون للعدو فى أثناء المعركة، كل ذلك وارد عليهم وقد فعلوه أو فعلوا قريباً منه فى بعض المواقف.

وهؤلاء المخلَّفون قد توعدهم الله تعالى بالعذاب، قال الله تعالى: ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون (٨١) فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴾

[التوبة: ٨١، ٨٢].

– هؤلاء المخلَّفون ارتكبوا عدداً من الأخطاء أحصتها عليهم هاتان الآيتان الكريمتان وهى:

– فرحهم بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ حين لم يشاركوا معه فى الجهاد فى سبيل الله، وكان الأصل أن يغتموا لذلك.

– وكراهيتهم للجهاد فى سبيل الله بأموالهم أو بأنفسهم.

– وتبريرهم القعود عن الجهاد بخوف الحر.

وقد توعدهم الله تبارك وتعالى بأنهم سوف يضحكون فى الدنيا قليلاً لعدم مشاركتهم فى الجهاد فى سبيل الله ولكنهم سوف يبكون كثيراً يوم القيامة.

● وهذا شأن المنافقين جميعاً فى كل زمان ومكان، لا يحبون بل يكرهون أن يشاركوا فى معارك الحق، ولا فى ردع الباطل، أليسوا منافقين؟.

● ومن سخافات ما قال القاعدون ليبرروا قعودهم عن الجهاد قولهم بعضهم لبعض: ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وهو تبرير ساذج مغالط، فمن الذى قال: إن الجهاد فى سبيل الله يجب ألا يكون فى الحر؟ ومن قال: إن الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس عمل سهل خالٍ من العناء والمشقة؟.

ومن الذى يزعم أن الصبر على عناء الجهاد واحتمال متاعبه أقل تعباً من الجهاد فى الحرّ؟

أليس الجهاد استفراغ ما فى الوسع من إمكانات وطاقات فى سبيل الله؛ دينه ودعوته والحق الذى ألزم به؟.

فمن ذا الذى يدعى أن الجهاد فى الحر أصعب من كل هذا؟ إنهم المنافقون!!

– ولقد رد الله تعالى عليهم وعلى مغالطاتهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

والمعنى أنهم لو تفادوا حر الدنيا بقعودهم عن الجهاد والنفير فى الحر، فكيف يتفادون حر نار جهنم يوم القيامة وهو بالقطع أشد وأصعب؟.

إنهم لو كان لديهم قدر من الفقه للأمور لأدركوا ذلك، لكن المنافقين دائماً هم أبعد الناس عن فقه الأمور ومعرفة حقائقها، أليسوا منافقين؟.

والنتيجة التى أدى إليها عدم فقههم وسوء تبريرهم للقعود عن الجهاد، أنهم عندما يكونون بين يدى الله تعالى يوم القيامة وتتكشف أمامهم يومئذ الحقائق، النتيجة هى أنهم يدركون أنهم فى موقف سيئ يقال عنهم فيه: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا

يكسبون ﴾ [التوبة: ٨٢] فى الدنيا من مكاسب وقتية مرحلية.

● هذا هو وزن القاعدين عن الجهاد فى سبيل الله.

● ويجب أن يعاملهم المسلمون على هذا الأساس إن كانوا من غير أولى الضرر، فلا ثقة فيهم ولا تكليف لهم بعمل يتطلب صبراً واحتمالاً، ولا نبذ لهم ولا قطيعة عسى الله أن يتوب عليهم وكان الله تواباً رحيماً.

● والحقيقة المؤكدة فى شأن هؤلاء القاعدين غير أولى الضرر أنهم منافقون، بكل ما تدل عليه كلمة النفاق من معنى، ولذلك كان حكمهم حكم المنافقين.

هؤلاء المنافقون قد اختاروا لأنفسهم هذا القعود فتخلفوا عن رسول الله لغير ضرر بهم، ولذلك لن يسمح لهم رسول الله ﷺ بالخروج معه بعد ذلك ولن يعطيهم شرف المشاركة فى قتال أعداء الله.

● وهكذا ينبغى أن يعاملهم المسلمون دائماً.

وهذا التعامل أجراه معهم رسول الله ﷺ من غير أن يحدث منهم انحياز فعلى للأعداء، بل استمروا فى صفوف المسلمين، بل اعتبرهم ﷺ كالكافرين، ومن أجل هذا النفاق، وذلك الكفر نُهى الرسول ﷺ أن يصلى عليهم بعد موتهم، بل نُهى نهياً أبدياً فإن صلاته على ميت رحمة الله بالتأكيد، وهؤلاء ليسوا أهلاً لهذه الرحمة لأنهم آثروا القعود والتخلف والنفاق ففسقوا بذلك عن أمر ربهم، قال الله تعالى: ﴿ **فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [التوبة ٨٣، ٨٤].

● والحقيقة الأخرى المؤكدة فى هؤلاء أنهم فى قلق وخوف بما أنعم الله عليهم فى الدنيا من نعمة الأولاد والأموال، تلك النعمة التى تركوا الجهاد والتعرض للموت خوفاً عليها.

فالأموال والأولاد نعمة تتحول فى الحقيقة إلى نقمة بل مصدر شقاء وعذاب لهم فى الآخرة، وبالتالى فلا ينبغى أن يعجب أحد بما أنعم الله عليهم من مال وولد، ففى الحقيقة أنهم أعطوا هذه النعمة فلم يشكروها فكانت مصدر عذاب لهم فى الدنيا تجعلهم يموتون على الكفر إن خالفوا بها وفيها أمر الله، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا**

يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٨٥] .

● ومن الحقائق التى يجب أن تكون معروفة عن هؤلاء القاعدين المنافقين أنهم عندما تنزل سورة من القرآن الكريم على الرسول ﷺ تأمر بالإيمان بالله والجهاد مع رسوله يبحثون لأنفسهم عن المعاذير التى تبرر لهم بالكذب والباطل هذا القعود على الرغم من قدرتهم على الجهاد وتوافر أسبابه لديهم، وجاءوا يستأذنون النبى ﷺ فى القعود، وذكروا له المعاذير والتعلات التى يبررون لأنفسهم بها أن يبقوا بعيدين عن الحرب كالنساء والضعفاء ومن إليهم، هؤلاء بفعلهم هذا قد ختم الله على قلوبهم فأصبحوا بمواقفهم هذه أبعد عن الفقه والفهم والعقل، لأن الله تعالى علم عنهم أنهم سوف تكون لهم هذه المواقف .

يتحدث عنهم القرآن الكريم فى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ۝ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ** ﴾ [التوبة : ٨٦، ٨٧] .

– ومطالبتهم بالإيمان والجهاد تعنى أنهم تجردوا من هاتين الصفتين، أما عندما توجه هذه المطالبة للمؤمنين كقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ...** ﴾ [النساء : ١٣٦]، فعندئذ يكون المعنى : يا أيها الذين آمنوا استمروا على إيمانكم بالله ورسوله . . . هذا ما يفهم من سياق الآيات الكريمة .

● وموضوع القعود عن الجهاد فى سبيل الله من غير عذر، من أهم الموضوعات التى أولاها القرآن الكريم أهمية بالغة لأنه عند التأمل تخاذل يؤدى إلى شق صف المؤمنين، وقد يؤدى إلى هزيمة، وإلى أضرار بالغة .

ومن أجل ذلك سنلقى عليه بعض الضوء فيما يلى والله الموفق[١] .

● من القاعدين عن الجهاد فى سبيل الله – الذين هم بكل تأكيد لم يتجردوا لدينه ودعوته، نوعان :

الأول : الذين جاءوا بأعذار مقبولة للقعود عن الجهاد، وكان هؤلاء من الأعراب، لا من أهل المدن والقرى – والأعراب أبعد عن الحق وأقرب إلى الكفر من أهل المدن والقرى – وهم

---

(١) سنفصل ذلك فى كتابنا : التربية الإسلامية فى سورة التوبة آخر حلقات التربية فى القرآن الكريم، إذا أذن الله تعالى وأعان .

فى الحقيقة يتكلفون أعذاراً بالباطل.

والنوع الآخر: القاعدون الذين كذبوا الله ورسوله.

وقد توعد الله تعالى الذين كفروا منهم بعذاب أليم، قال الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[التوبة: ٩٠].

ثم أوضح الله تعالى لمن يكون العذر فى القعود، وعلى من يقع الإثم فيه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩١ : ٩٤].

- والآيات الكريمة توضح أن أصحاب الأعذار المقبولة الذين لا حرج عليهم ولا إثم إذا قعدوا عن الجهاد فى سبيل الله ثلاثة وهم:

– الضعفاء والمرضى الذين لا يستطيعون تحمل أعباء الجهاد.

– والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ليجاهدوا فى سبيل الله.

– والذين جاءوا مجاهدين ولكنهم فقراء، فلم يجد الرسول ﷺ ما يؤمن لهم نفقة الجهاد، فخرجوا من عند رسول الله ﷺ باكين تفيض أعينهم من الدمع ألا يجدوا ما ينفقون.

- أما الذين عليهم الإثم والحرج فى القعود عن الجهاد فى سبيل الله فهم:

الذين يستأذنون النبى ﷺ فى القعود وهم أغنياء قادرون على النفقة، غير مَرْضَى ولا ضعفاء، فهؤلاء مؤاخذون، لأنهم لا عذر لهم فى القعود.

وهم آثمون إذ رضوا لأنفسهم أن يكونوا قاعدين عن الجهاد كالنساء والصبية والضعفاء، وبئس الموقع الذى ارتضوه لأنفسهم.

وهؤلاء قد طالب الله تعالى رسوله والمؤمنين معه أن يتخذوا منهم موقفاً معيناً هو :

- الا يقبلوا عذرهم، لانهم يكذبون .

- والا يصدقوهم فيما يقولون .

- وان يخبروهم بأن الله تعالى قد كشف أمرهم للمؤمنين .

- وانهم مردودون إلى الله تعالى فمحاسبهم على ما كانوا يعملون .

● وعند تدبر آيات القرآن الكريم الخاصة بالمتخلفين عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، نجد أن الآيات الكريمة قسمتهم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

المنافقون الذين مردوا – أى مرنوا عليه وتعودوا – وفيهم جاء قوله تعالى : ﴿ ... وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة : ١٠١] .

والقسم الثانى :

الذين تابوا عن ذنوبهم فى القعود أو محاولته، وهؤلاء جاء فيهم : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[التوبة : ١٠٢] .

والقسم الثالث :

الذين ابقاهم الرسول ﷺ موقوفين حتى يأتى فيهم أمر من الله وهم ثلاثة من الصحابة – رضوان الله عليهم – قعدوا عن الجهاد وهم قادرون عليه لكن كانت لهم مواقف إيمانية مشهورة فى الجهاد والبذل فى سبيل الله وهم : كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع .

● وحكم هؤلاء قد أوضحه الله تعالى على النحو التالى :

- أما المنافقون فهم مرفوضون توعدهم الله بالعذاب .

- وأما الذين تابوا عن ذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتخلفوا عن بعض معارك رسول الله ﷺ، وخاضوا معظمها، وما حملهم على التخلف نفاق، وإنما هو كسل وتقصير فخلطوا بموقفهم بين عمل صالح أدوه مع الرسول ﷺ في معارك سابقة وعمل سيئ هو القعود عن كسل وتقصير، هؤلاء عسى الله أن يتوب عليهم - وعسى من الله تفيد التحقق - وهؤلاء الذين تاب الله عليهم تقبل منهم أموالهم التي يقدمونها في سبيل الله، سواء أكانت واجبة كالزكاة، أو مستحبة كأموال الصدقة.

وقال بعض العلماء:

إن هذه الآية استئناف كلام فيه إيجاب الزكاة على الأغنياء بدليل ما جاء فيها من بعض أحكام الزكاة، قال الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٢ - ١٠٤].

- ففي الآية الكريمة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ...﴾ دليل على وجوب الزكاة في الأموال كلها، بالقدر الذي حددته السنة النبوية المطهرة، بشرط أن يكون المال ملكاً للمزكي أو المتصدق.

- وفيها بيان أن الزكاة طهرة عن الآثام وزيادة في العمل الصالح.

- وفيها مطالبة الرسول ﷺ بأن يدعو لمن أخذ منهم الزكاة، وقد كان ﷺ يدعو لهم أي يصلي عليهم، كما فعل عندما جاءه مال آل أبي أوفى، فقال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»

ثم أصبحت هذه الدعوة سنة للإمام ومن أنابه في أخذ أموال الزكاة والصدقات أن يقول لمن قدم المال: آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت.

● وهؤلاء الذين تابوا عن ذنوبهم وقعودهم، وتصدقوا بأموالهم وتاب الله عليهم هؤلاء يعلمون أن الله تعالى هو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ منهم الصدقات - لأنها تقع في يده سبحانه وتعالى - وأنه هو التواب الرحيم.

والآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ...﴾ تقرر هذه الحقيقة وإن جاءت على صيغة الاستفهام، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا ...﴾؟ لأن تلك من خصائص اللغة العربية ومن عادات العرب الذين نطقوا بها وعنهم أُخذتْ، عند رغبتهم فى إزالة الشك عن السامع أن يلجأوا إلى الاستفهام التقريرى، كقولهم: أما علمت أن من أحسن إليك وجب عليك شكره؟

– وأما الثلاثة الذين تخلفوا عن جيش العسرة – غزوة تبوك – مع أنهم كانوا قادرين على الإسهام فيها وهم الثلاثة المعروفون فى تاريخ الإسلام الذين نزل فيهم القرآن وهم: كعب وهلال ومرارة، وقبل الله توبتهم، فى قوله تعالى: ﴿... وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ...﴾ [التوبة: ١١٨].

هؤلاء ضم الله تعالى توبته عليهم إلى توبته على النبى ﷺ والمهاجرين والأنصار الذين تركوا الأفضل، أو وقعوا فى بعض الهفوات الصغائر، فقال الله تعالى فيهم: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨].

– ومخالفة الأفضل من الرسول ﷺ فى أمور الدنيا وارد ولا يطعن فى عصمته، إذ هو معصوم عن الخطأ فى أمور الدين؛ فقد خالف الأفضل فى قبول الفداء من أسرى بدر. وفى قبوله عذر بعض المنافقين فى التخلف عن الجهاد، ونحو ذلك من الأمور.

وقد وقع كثير من المؤمنين مهاجرين وأنصارا فى بعض الهفوات الصغائر، فتاب الله عليهم من ذلك كله.

وتاب سبحانه وتعالى عن الثلاثة الذى خلفوا عن غزوة تبوك عندما استأذنوا فى الانتظار بعض الوقت على أن يلحقوا بالنبى ﷺ عند اكتمال استعدادهم، ولكنهم لم يلحقوا به وإنما بقوا بالمدينة.

فلما عاد الرسول ﷺ من الغزوة سألهم عن سبب تخلفهم عنه فأجاب كل منهم بما أجاب، فلم يقبل الرسول ﷺ أعذارهم فاتخذ الرسول ﷺ معهم موقفا رأى أنهم يستحقونه، وذلك كالتالى:

- قاطعهم عن الكلام وأمر المسلمين بمقاطعتهم مدة.

- وبعد فترة أمرهم باعتزال نسائهم.

وقد استمرت مدة مقاطعتهم خمسين يوما كانت قاسية عليهم كما تحدثوا هم بذلك.

ثم تاب الله عليهم فى هذه الآية الكريمة.(١)

وبعـــد:

فتلك ظروف المسلم أو المسلمين القاعدين عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، أو الذين لم يتجردوا للفكرة الإسلامية من بعض الشواغل التى حالت بينهم وبين المشاركة فى الجهاد فى سبيل الله تعالى.

● وحكم هؤلاء القاعدين عن الجهاد فى سبيل الله أنهم مقصرون - وتلك منزلتهم بين المسلمين.

وأسلوب التعامل معهم أن يبصروا بتقصيرهم، وأن يُدْعوا إلى التوبة إلى الله من هذا التقصير.

وهم مع ذلك من المسلمين المقصرين، ولا يجوز لنا أن نعاملهم إلا بمقتضى هذا الوصف: مسلم مقصر قعد عن الجهاد الذى هو فرض كفاية، لا فرض عين - على ما بينا من الفرق بين فرض الكفاية وفرض العين.

---

(١) انظر قصتهم مفصلة فى كتب التفسير وكتب السنة وكتب الفقه وفى كتابنا: التربية الإسلامية فى سورة التوبة - وهو قيد الطبع إذا أذن الله.

٣ - المسلم الآثم

الإثم: المعصية لله تعالى، والخطيئة.

والإثم: اسم للفعل المبطئ لصاحبه عن الحصول على ثواب الله تعالى.

والإثم: الذنب الذى يستحق صاحبه العقوبة عليه.

والآثم: هو المتحمل للإثم الواقع فيه، وهو آثم وأثيم.

والمسلم الآثم: هو المبطئ عن فعل الخيرات.

- وقد حرم الله تعالى الآثام كلها، وعاقب عليها عقابا دنيويا بالحدود التى فرضها، وعاقب عليها فى الآخرة لمن لم تقم عليهم الحدود فى الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

- والفواحش: الكبائر من الذنوب وأخطرها: الزنى.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أى: سر الزنى وهو العشق والمحبة، وما ظهر منه: هو ما يقع علانية، أو ما ظهر من الزنى هو الملامسة والمعانقة، وما بطن هو: الإيلاج.

- والإثم: كل ذنب كبيرا كان أو صغيرا.

- وفى الآية الكريمة تحريم للجنايات كلها، وذلك أن الجنايات محصورة فى خمسة أنواع:

أحدها: الجنايات على الإنسان وهى تحصُل بالزنى - وهو من الفواحش.

وثانيها: الجنايات على العقول، وذلك بشرب الخمر - وهى من الكبائر بل أمها جميعا.

وثالثها: الجنايات على الأعراض، وذلك بالقذف بالزنى ونحوه وهو من الفواحش.

ورابعها: الجنايات على النفوس والأموال، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿..الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

وخامسها: الجنايات على الأديان وهى نوعان:

الأول: الطعن فى توحيد الله تعالى، وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿ .. وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ﴾.

والآخر: القول فى الدين بغير معرفة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ .. وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾.

● والفاحشة منها: ما ظهر وما بطن - كما أوضحنا آنفا - والإثم كذلك منه ما ظهر وما بطن، قال الله تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

- وظاهر الإثم: هو الإعلان عنه وباطنه: هو الإسرار به.

وقيل: ظاهر الإثم: الإقدام عليه وممارسته، وباطنه: ما أضمره الإنسان من أفعال القلوب، مثل: الكِبر والحسد والعُجْب، وإرادة السوء بالناس، واللوم على فعل الخيرات.

وقيل: ظاهر الإثم: ما يراه الناس، وباطنه ما لا يطلع عليه الناس، وإنما يقع فى السر.

● وكل ذلك أوجب الله تعالى تركه، وعاقب على فعله، وكل مقترف لإثم، يعاقبه الله تعالى، إلا إذا تاب.

● ومن الآثام التى نبه عليها القرآن، وهى مما يبتلى الناس به فى كل عصر: من أكل المال بالباطل سواء أكان المال مالَ الآكل، أو مال غيره، من طريق الرشوة أو نحوها مما يُضَيِّع حقوق الآخرين.

- ومَنْ أكَل مال نفسه بالباطل، هو مَنْ أسرف فى الإنفاق أو انفقه فى الحرام، كشرب الخمر ونحوه، فذلك إثم وهو حرام.

- ومَنْ أكَل مال غيره بالباطل، هو من قام بسلب مال غيره أو غصبه أو سرقه، أو غش أو رابى أو أكل مال اليتيم أو الضعيف، ونحوها.

وقد يكون أكل مال الغير بالرشوة يقدمها لحاكم أو مسئول ليحصل على مال ليس له حق فيه.

وقد يكون أكل مال الغير بالباطل بالإدلاء بحجج قوية وخصام فيه لدد، وقد يكون بلحن فى القول، بينما الطرف الآخر لا يستطيع ان يقيم حجة أو يشتد فى خصام أو يتلاعب بالألفاظ مع أنه صاحب الحق، فيقضى القاضى لمن هو ألحن فى حجته، وهذا المال الذى يحكم به القاضى فى هذه الظروف لا يجوز أخذه لأن أخذه إثم وحرام؛ فقد روى البخارى

ومسلم بسنديهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر، لقى الله وهو عليه غضبان».

وروى مسلم بسنده عن أبى أمامة الحارثى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم الله عليه الجنة، وإن قضيبا من أراك».

وروى البخارى بسنده عن أم سلمة زوج النبى رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر، وإنه يأتينى الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق، فأقضى له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو يتركها».

- فالآثم الآكل لأموال الناس بالباطل مخالف لما أمر الله به، ولما نهى عنه، ومخالف لهدى النبى ﷺ، وتلك معصية لله ورسوله يستحق صاحبها عقاب الدنيا والآخرة.

- وهذا هو حكم الآثم فى شرع الله. وعلى ضوء ذلك يجب أن يعامل أو يوزن، وهو بهذا الإثم أبعد ما يكون عن التجرد.

- ومن الآثمين: كل من أشرك بالله تعالى، لأن الشرك إثم عظيم يفتريه المشرك، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٤٨].

فهذه الآية الكريمة تصف الشرك بالله بأنه إثم عظيم، ومن البدهى أن المشرك قد تجرد للشيطان لا لله ولدينه ودعوته، وهذا الشرك بالله أكبر الذنوب عند الله وأعظمها وأجدرها أن لا يغفره الله تعالى، روى البخارى بسنده عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبد الله: قال رجل يا رسول الله أى الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعو لله نداً وهو خلقك»، قال: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك أن يطعم معك» قال: ثم أى؟ قال: «أن تزانى حليلة جارك».

فأنزل الله عز وجل تصديقها: ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وروى ابن مردويه[1] فى مسنده بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أخبركم بأكبر الكبائر، الإشراك بالله ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] وعقوق الوالدين ثم قرأ: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

● ومن الآثمين: من يفترون على الله الكذب بتزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أفضل من سواهم، وهم اليهود وبعض النصارى حين قالوا: كما يحكى عنهم القرآن الكريم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وفيما يحكى عنهم أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ...﴾ [البقرة: ١١١].

وكل من يزكى نفسه إنما يفترى على الله الكذب، ويخالف نهيه سبحانه وتعالى، فقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال جل شانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩، ٥٠].

– وقال بعض العلماء:

نزلت هذه الآية فى ذم التمادح والتزكية عموما.

● ومن الآثمين: مَنْ يزكون غيرهم من الناس، إذ التزكية لأى أحد من الناس من شأن الله عز وجل وحده فهو أعلم بمن اتقى، روى البخارى بسنده عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ، سمع رجلا يثنى على رجل فقال: «ويحك قطعتَ عنق صاحبك».

ثم قال: «إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذا ولا أزكى على الله أحدا» «بل الله يزكى من يشاء». أى أنه سبحانه وتعالى هو المرجع فى ذلك لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها.

فهؤلاء الكاذبون على الله فى تزكيتهم أنفسهم أو تزكيتهم غيرهم من الناس آثمون لهم فى الدنيا عقاب، وفى الآخرة عقاب إلا أن يعفو الله تعالى عنهم إذا تابوا مستوفين لشروط التوبة النصوح.

(١) هو أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهانى (٣٢٣ – ٤١٠ هـ) حافظ محدث مفسر، مؤرخ. له كتاب فى تفسير القرآن، وله فى السنة: مسند، ومستخرج.

● ومن الآثمين: كل خائن أو مضلل، لأن الخيانة كبيرة من الكبائر نهى الله عنها، والتضليل كبيرة أيضًا لأنه إخفاء للحق وخداع للناس عنه وتمويه وتزوير.

وكل منهما من الصفات التى أعلن الله تعالى أنه لا يحبها ولا يحب من يتصف بها، وحسب الإنسان من الإثم أن يتصف بصفة لا يحبها الله.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧]، قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨].

فالخائن لنفسه أو للناس أو للأمانة، أو لأى أمر حرم الله الخيانة فيه آثم يستحق العقاب.

– والمضلون لأنفسهم أو لغيرهم عن الحق شياطين، إذ الإضلال أصلا من عمل الشيطان، قال تعالى يحذر بنى آدم من الشيطان ويبين لهم عداوته لله وللناس، وأنه أضل من الناس أمما كثيرة وأعدادا كثيرة: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٢] – والجبل: الخَلْق.

وقال جل شانه: ﴿ .... وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

– والإضلال من عمل بعض أهل الكتاب يهودا ونصارى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى:

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

[آل عمران: ٦٩].

● ونخلص من هذا العرض لأنواع الإثم وأصناف الآثمين إلى عدد من الحقائق تمثل فى مجموعها الميزان الذى يوزن به الآثمون فى المجتمع المسلم، وتحدد الطريقة التى يجب أن يعاملوا بها من المسلمين.

هذه الحقائق هى:

– إن الآثم من المسلمين هو من يخالف أمر الله تعالى ونهيه وقد أمر الله بكل خير ونهى عن كل شر.

– وإن الآثم مستحق لعقاب دنيوى تضمنته الحدود – وهى عقوبات مقدرة لكل جناية يرتكبها الإنسان، وله عقاب أخروى لا يعفى منه إلا من تاب.

– وإن الآثم يوزن فى المجتمع المسلم – كما أوضحت ذلك شريعة الإسلام – بأنه عاص لله مخالف لشرعه.

– وإنه يجب أن يعامل من المسلمين على أنه عاص لله، والعاصى لله يجب أن توصد فى وجهه أبواب المعصية وأبواب المسلمين فلا يصادق ولا يوادّ، حتى يتوب.

● ومن البدهى: ان الآثم الذى تحدثنا عنه هذا الحديث لا يلتزم بالفكرة الإسلامية بل يخالف أحكامها وأخلاقها وآدابها.

وما دام غير ملتزم بها فكيف يمكن أن يتجرد لله ولدينه ودعوته؟.

٤ - الذميّ المعاهد

الذمة: هي العهد والأمان والكفالة.

ورجل ذميّ: أي له عهد أي عقد، قال الجوهري: الذمة: أهل العقد.

وقال أبو عبيدة: الذمة: الأمان، في قوله ﷺ: «ويسعى بذمتهم أدناهم».

والذمة: العهد والضمان والحرمة والحق.

وقال التهانوي[١]: قال القاضي الإمام أبو زيد: إن الذمة شرعا وصف يصير به الإنسان أهلاً لما له ولما عليه.

وفي اصطلاح الفقهاء:

الذمّي: هو المعاهد الذي أعطى عهدا يأمن به على نفسه وماله وعرضه ودينه، نظير التزامه بالجزية، ونفوذ أحكام الإسلام.

● وتحصل الذمة لأهل الكتاب ومن في حكمهم بما يلي:

- بالعقد وغالبا ما يكون مكتوبا.

- وبالقرينة وهي كل ما يدل على أنه رضي بالذمة.

- أو بالتبعية لغيره من أهل الذمة.

- أو بالغلبة والفتح، وتركه قتال المسلمين.

وحكم أهل الذمة: أن يتركوا على دينهم، وأن يدفعوا الجزية في مقابل حماية دولة الإسلام لهم.

● وعقد أمان أهل الذمة دائم مؤبد، ما لم يخلوا بشروطه، فإن أخلوا به أصبحوا محاربين، فنُقِض عهدهم وحوربوا.

● ويمكن أن تعطى الذمة والعهد للمستأمنين - وهم أهل الأمان - غير أن عهودهم وعقودهم موقوتة بزمن بعينه ينص عليه في عهد الأمان، وليست دائمة أبدية كعقود أهل

---

(١) التهانوي: كشاف مصطلحات الفنون. مادة: ذمة.

الذمة وعهودهم، وأهل الأمان يطلبون لزمن محدود أو فى مكان معين، ويجوز إعطاؤهم الأمان مع الاحتراز منهم.

● والذى له حق إبرام عقود أهل الذمة هو إمام المسلمين أو من ينيبه كحكام الأقاليم.

ويرى بعض الفقهاء أن عقد الذمة يبرمه أى مسلم، لأن هذا العقد فى جوهره دعوة إلى الإسلام، ولكل مسلم أن يدعو إلى الإسلام.

● والهدف من عقود الذمة هو أن يترك الذمى قتال المسلمين وأن يعايشهم له ما لهم وعليه ما عليهم، لاحتمال دخوله فى الإسلام عند مخالطته المسلمين ووقوفه على محاسن الدين، وحسن تعامل المسلمين معه.

فعقد الذمة فى جوهره دعوة إلى الإسلام، وحركة بمبادئه وأخلاقه فى أهل الذمة، وليس هدفه أخذ مال منهم «جزية» بقدر ما هو حرص على دعوتهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

● ولعقد الذمة شروط، يمكن إجمالها فيما يلى:

أ - أن يكون العقد مؤبدا حتى يعصمهم على الدوام ما داموا ملتزمين به وبشروطه.

ب - وأن يقبلوا أحكام الإسلام فى غير العبادات، كالحقوق والواجبات ونحوها، وأن يلتزموا بتحريم الزنى والخمر فيما بينهم لأن ذلك محرم عندهم أيضاً.

جـ - وألا ينتهكوا حرمات المساجد بالإساءة إليها بأى وجه من الوجوه.

د - وألا يفتنوا مسلما عن دينه.

هـ - وألا يطعنوا فى الأحكام الإسلامية.

و - وألا يذكروا الإسلام ولا رسوله ولا الصحابة ولا المؤمنين بسب أو تجريح.

ز - وألا يعينوا على المسلمين عدوا ولا يؤووا لعدو جاسوسا.

ويمكن أن تضاف إلى هذه الشروط شروط أخرى يقبل بها أهل الذمة ويراها المسلمون ضرورية.

● وأهل الذمة بوفائهم بهذه الشروط يتمتعون بأمان حقيقى فى المجتمع المسلم وسلام ينعمون به دون أدنى مضايقة، فقد روى الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشُّعَب

بسنديهما عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأمانًا لأهل ذمتنا».

● وهذه الشروط كلها تمثل واجب أهل الذمة إذا عاهدهم المسلمون.

وفى مقابل أدائهم هذه الواجبات فلابد أن تكون لهم حقوق على الدولة المسلمة، فما هى هذه الحقوق؟.

هى قاعدة عامة فى الإسلام تقول: «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين» غير أن هذه القاعدة تحتاج إلى تفصيل لأنها أحياناً لا تكون على إطلاقها فى كل ظرف من الظروف.

ويمكن تفصيل هذه الحقوق فيما يلى:

أ - حماية الدولة لهم، والمحافظة عليهم، أى أن لهم حق الإقامة فى الدولة آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم لا يتعرض لهم أحد بما يسىء إليهم.

وقد أوجبت أحاديث النبى ﷺ ذلك فقد روى أبو داود بسنده عن صفوان بن سليم عن عدة من الصحابة رضى الله عنهم عن آبائهم دنْيَةً - أى آبائهم المباشرين - وليس الأجداد ولا آباؤهم- عن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة».

ب - ولهم حق التنقل فى أرجاء الوطن الذى يقيمون فيه.

جـ - ولهم الأمان والاطمئنان على دينهم وما يعتقدون، وعلى عباداتهم، وأفكارهم.

د - ومن حقهم أن يعاملوا فى البيع والشراء والإجارة وسائر التصرفات المالية كالمسلمين، باستثناء التعامل على الخمر والخنزير بيعا وشراء وكذلك فى إقامة الحدود عليهم ماعدا حد شرب الخمر.

هـ - ولهم حق الكفالة وتامين ظروف العيش الكريم لهم فى المجتمع كالمسلمين سواء بسواء.

و - ولهم حرية العمل وحرية الكسب.

ز - ولهم الحريات العامة التى للمسلمين بشرط الا يكون فيها ما يخل بشروط عقدهم.

● وعلى وجه الإجمال، فإن التزام أهل الذمة بشروط عقد الذمة يعطيهم الحق فى التمتع بكافة هذه الحقوق التى ذكرنا.

وليس لأحد من المسلمين أن يتعرض لهم بأذى، فقد روى الخطيب البغدادى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آذى ذميا فأنا خصمه، ومَنْ كنتُ خصمه خصمته يوم القيامة».

– فالذمى بوفائه بعقد الذمة، مصون الحرية والكرامة أمام دولة المسلمين وجماعاتهم وأفرادهم، لم يخالف فى ذلك أحد من العلماء، وكان هذا هو دأب المسلمين على مرّ تاريخهم مع الذميين فى كل العواصم الإسلامية.

فإن حدث تقصير أو تعدٍ حوسب المقصر والمعتدى عليهم كالمقصر والمعتدى على أحد من المسلمين سواء بسواء.

– وإذا أخل أهل الذمة بعقد الذمة تحولوا إلى أعداء محاربين، ووجب قتالهم، وسقطت بذلك النقض كل حقوقهم.

هكذا تتعامل الدولة المسلمة والمجتمع المسلم مع الذمى المعاهد، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

● والذمىّ من بين الأصناف الستة الذين ذكرهم الإمام البنا لا يمثلون خطراً على المسلمين ولا على مسيرة الدعوة الإسلامية والحركة بالإسلام فى الناس والآفاق ما داموا ملتزمين بعهودهم ومواثيقهم.

٥ - المحــــايد

حاد عن الطريق أو الأمر: مال عنه وتركه.

والمحايد: هو الذى اتخذ الحياد موقفا له، فهو لا ينضم لأى طرف من طرفى التنازع أو أطرافه، فلا يكون مع طرف ضد طرف. هذا هو المعنى اللغوى للكلمة.

● وللحياد مفهوم سياسى: اصطلح عليه الباحثون المعاصرون وهو: عدم التحيز مطلقا، لا لفترة زمنية معينة وإنما بشكل دائم.

– وقالوا: الحياد رغبة فى التجرد عن مناصرة جانب أو طرف دون جانب أو طرف آخر فى حرب أو نزاع.

● ويقسم فقهاء القانون الحياد إلى نوعين: دائم ومؤقت.

أ - الحياد الدائم:

وهو أن تتعهد دولة من الدول بعدم اللجوء إلى القوة إلا فى حالة دفاعها عن نفسها، وعن استقلالها، محافظة على أرضها، وفى مقابل ذلك تتعهد الدول المجاورة لها والدول الكبرى باحترام حيادها، وضمانه لها ضد كل دولة معتدية تحاول خرق حيادها.

– وهذا النوع من الحياد يعد مركزا قانونيا، تتعهد فيه الدولة أن تظل بعيدة عن الحروب، فى مقابل امتناع الدول الأخرى عن الاعتداء عليها بأى صورة من الصور.

– ويتم هذا الحياد بمقتضى معاهدة موقعة، من الدولة المحايدة ومن الدول الأخرى التى تضمن لها حيادها.

– وهناك ظروف وأسباب أملت على دول أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى فكرة هذا الحياد الدائم لإحدى دول أوربا، ومن هذه الأسباب:

– الرغبة فى المحافظة على الدول الضعيفة، وتجنيبها الاحتكاك بالدول الكبرى، لما فى ذلك من مصالح متبادلة بين هذه الدولة المحايدة وبين باقى الدول.

– والرغبة فى إيجاد توازن دولى، وسلام عالمى.

● والدولتان صاحبتا الحياد الدائم فى أوربا اليوم هما:

سويسرا، والنمسا.

وقد اعترفت الدول الكبرى بهذا الحياد، وأقرته، وهى تحافظ عليه وتكرسه بمعاهدات دولية.

ب - الحياد المؤقت:

وهو أن تتعهد إحدى الدول بأن تكون على الحياد بين الأطراف فى حرب معينة بين دولتين أو دول، وتلتزم بذلك، فتعلن رغبتها فى عدم المشاركة فى هذه الحرب.

- وينتهى هذا الحياد المؤقت بانتهاء تلك الحرب المعينة.
- ولهذه الدولة المحايدة بعد انتهاء الحرب أن تتخذ لنفسها ما تشاء من نوعى الحياد الدائم أو المؤقت، أو تخرج نفسها من هذا الحياد.
- وهناك واجبات متبادلة بين الدولة المحايدة والدول الأخرى نشير إلى أهمها فيما يلى:

أ - بالنسبة للدولة المحايدة:

واجباتها مايلى:

- أن تعمل على حماية حيادها ولو عن طريق السلاح، إذا اقتضت ضرورة هذا التسلح.
- ومطالبة الدول الأخرى - وبخاصة المتعهدة معها بالمحافظة على حيادها، بحمل الآخرين على فرض حيادها.
- ومقاومة جميع الضغوط الأجنبية التى تحاول المساس بحيادها.
- وعدم القيام بأى عمل قد يؤدى إلى إحراج موقفها أو تعريض حيادها للخطر، وهى تتعامل مع الدول المتنازعة.

ب - وبالنسبة للدول الموافقة على حياد تلك الدولة:

فإن واجباتها هى:

- احترام حياد تلك الدولة، والمحافظة على أمنها.
- وتشجيع الدولة المحايدة على الحد من صلاحيتها وفقا لنظام الحياد، احتراما للحياد وتمكينا له من تحقيق الهدف منه.

● وبعد الحرب العالمية الأولى وقيام عصبة الأمم؛ اضطرب أمر الحياد، وأصبح من الضرورى التوفيق بينه وبين الواجبات التى نص عليها ميثاق عصبة الأمم، وبخاصة فيما يتعلق بالعقوبات العسكرية.

وقد اضطر المجلس الأعلى لعصبة الأمم لأن يعترف بحياد «الاتحاد السويسرى»، مع إعطائه الحق فى الامتناع عن المساهمة العسكرية فى توقيع العقوبة العسكرية.

ومع ذلك اضطرت سويسرا إلى الانسحاب من عصبة الأمم والعودة إلى نظام الحياد التام الدائم.

● وبعد الحرب العالمية الثانية وقيام هيئة الأمم المتحدة، كان لابد من مواجهة المشكلة نفسها، لأن نظام الأمن الجماعى الذى يفرضه الميثاق الجديد يتعارض مع واجبات الحياد التام، لأن مجلس الأمن كان عليه أن يحدد المعتدى، وأن يفرض عليه العقوبات العسكرية والاقتصادية، ولكنه لم يستطع ذلك، لأسباب منها:

- أنه لم يتمكن من تعريف العدوان.

- ولم يستطع أن يضع القواعد التى يحق له بموجبها إدانة المعتدى.

- وأن استعمال دولة كبرى لحق «الفيتو» النقض، قد شل حركة المجلس فى اتخاذ الإجراءات المناسبة لصد العدوان.

- وأن الاتحاد السويسرى الذى رفض الانتماء لهيئة الأمم المتحدة، بدأ يشارك بشكل فعال فى عدد من المنظمات التابعة لها.

● وهناك نوع من الحياد سمى «الحياد الإيجابى وعدم الانحياز» ابتكرته دول العالم الثالث - وكان على رأسها: «مصر والهند ويوغوسلافيا» قبل انهيار ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى.

وهذا الحياد الإيجابى بالنسبة للدول المشاركة فيه: أن تتفاعل هذه الدول سياسيا مع الأحداث العالمية، وأن تشارك فى حل المشكلات الدولية على أساس من عدم الانحياز.

- وربما كان السبب فى التفكير فى هذا النوع من الحياد، المخالف لنوعى الحياد المعروفين - الدائم والمؤقت - هو ما كان يسود العالم آنئذٍ (١٩٥٦م) من حرب باردة بين المذهب الرأسمالى والمذهب الشيوعى، أى الصراع بين الغرب ومعه أمريكا، وما كان يعرف

بالاتحاد السوفيتي وما يتبعه من دول قهرها بقوة السلاح وحولها إلى دول شيوعية في شرقي أوربا، وغيرها من البلاد.

● وقد عبر هذا الحياد الإيجابي عن نفسه في مؤتمر باندونغ سنة ١٩٥٥م، ومؤتمر بلجراد ١٩٦١م.

ولا يزال هذا الحياد قائما، ولكن معظم دوله اليوم تابعة للغرب عموما وللولايات المتحدة الأمريكية بوجه خاص تبعية اقتصادية وعسكرية، فهو حياد ظل في باطن مقرراته حبرا على ورق!!!

● وهذا الصنف المحايد من الناس لا يمثل لدى المسلمين أي نوع من أنواع الخطر، ما دام محايدا حقا.

والتعامل معه يكون بمقتضى حياده.

٦ - المحـــارب

المحارب للمسلمين: هو من يعاديهم ويضمر لهم الشر والسوء، سواء أكاد ذلك كيدا وحيلة وتجسسا وتخابرا لإيقاعهم فى الشر والفتنة الداخلية أو الطائفية أو العامة، أم حربا وقتالا وجنودا وأسلحة ضد المسلمين.

● والحرب: هى القتال بين فئتين، ومنها الحرب الباردة، وهى أن يكيد كل من الطرفين المتعاديين لخصمه، دون أن يؤدى ذلك إلى قتال مباشر، وأكبر حرب باردة هى ما كانت بين الغرب ومعه أمريكا، وما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى، وهى حرب لم تنته إلا بعد انهيار الاتحاد السوفيتى على أيدى أبنائه الذين استفاقوا من غفلة طالت سبعين سنة، وتحرروا من تحكم و« ديكتاتورية » نظام يبيد المعارض السياسى ويفرض مذهبه بالحديد والنار ومجاهل سبيريا وجبروت « بريا » على الناس قهرا، فيجردهم من أديانهم إلى الإلحاد، ومن أخلاقهم إلى الولاء للمستبدين بهم وإلى شيوعية النساء، ومن مساجدهم وكنائسهم إلى التيه والضلال، ومن إنسانيتهم إلى آلات تتحرك لا تعى ولا تحس ولا تملك التفكير أو التعبير أو التنقل أو الكسب..

● **والحرب فى المفهوم السياسى:**

هى ظاهرة استخدام العنف والإكراه أسلوبا وطريقة لحماية المصالح، أو لتوسيع النفوذ، أو لحسم خلاف حول مصالح أو مطالب متعارضة بين دولتين أو جماعتين من الناس.

● وتصنف الحرب حسب الدوافع والأسباب والأهداف الرئيسية إلى أنواع كثيرة أحصينا منها عشرة وإن كانت هى أكثر من ذلك بكثير.

وهذه الأنواع هى:

١ - الحرب التقليدية:

وهى التى تحركها - فى الغالب أسباب اقتصادية - تجارية أو مالية - لتوسيع النفوذ أو رقعة الأرض.

وتستهدف الأرباح أو الخسائر أو توسيع النفوذ أو الانكماش حسب ما يؤدى إليه النصر أو تقضى إليه الهزيمة.

٢ - والحرب العقائدية:

ويسمونها الحرب المقدسة، وتحركها أسباب عَقَديّة، وهذه الحرب تستهدف - فى الغالب - خضوع الخصم واستسلامه أو اعتناقه عقيدة من هزمه، أو القضاء عليه حتى الموت.

٣ - والحرب الأهلية:

وتسمى الحرب الداخلية فى وطن بعينه، حيث تتحارب فئات أو طوائف من أبناء الوطن الواحد، وتستهدف إخضاع فئة لإرادة فئة أو القضاء عليها.

٤ - والحرب الدولية أو القومية أو الإقليمية:

وتكون هذه الحرب بين دولة وأخرى أو قومية وأخرى، أو إقليم وآخر، وتستهدف الاستيلاء على هذه الدولة أو القضاء على تلك القومية أو إخضاع هذا الإقليم، ولا تنتهى هذه الحرب إلا باستسلام طرف للطرف الآخر.

٥ - والحرب العالمية:

وهى التى تتحارب فيها أكبر مجموعة من دول العالم، وتشمل رقعة أوسع من الإقليم أو الدولة أو الدول.

وخير مثال لهذه الحرب حربان:

- الحرب العالمية الأولى: (١٩١٤ - ١٩١٨م)، وكانت بين الحلفاء - إنجلترا وفرنسا وروسيا وبلجيكا وصربيا والجبل الأسود واليابان - من جانب، وبين قوات الحلف الثلاثى - ألمانيا والنمسا والمجر، والدولة العثمانية من جانب آخر.

وانتهت بفوز الحلفاء.

- والحرب العالمية الثانية: (١٩٣٩ - ١٩٤٥م)، وكانت بين قوات المحور - ألمانيا وإيطاليا واليابان - وبين الحلفاء أيضا - إنجلترا وتوابعها دول الكومنولث، وفرنسا، ثم دخلت الولايات المتحدة الأمريكية وضربت اليابان فى هيروشيما ونجازاكى بالقنابل الذرية وانتهت هذه الحرب بفوز الحلفاء واستسلام ألمانيا وحلفائها.

٦ - والحرب الاستعمارية:

وهى تلك التى تكون بين دولتين أو مجتمعين غير متساويين فى القوة، وتستهدف الاستيلاء على بلدان الطرف الأضعف وتحويلها إلى تابع يدعم اقتصاد البلد الأقوى ويمدها

بما تحتاج إليه من مواد أولية كالقطن والقمح والنفط إلخ.

وقد شنت هذه الحرب على معظم بلدان العالم الإسلامى، وانتصر فيها الاستعمار واحتل معظم بلدان المسلمين.

٧ - والحرب الثورية:

وهى الحرب التى تخوضها الشعوب المحتلة ضد العدو الذى يحتل أرضها ويسيطر على قرارها وإرادتها ويتحكم فى اقتصادها وسياستها وكثيرا ما تكون هذه الحرب طويلة الأمد. وتستهدف إجلاء المحتل وطرده.

٨ - والحرب الباردة:

وهى صراع غير مسلح فى ظل أوضاع متوترة بين دولتين أو مذهبين سياسيين، كما كانت بين الغرب وما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى، وما هو قائم الآن بين شعوب العالم العربى وإسرائيل على الرغم من معاهدات الصلح والسلام التى فرضتها أمريكا على الحكومات لصالح إسرائيل.

وتستهدف هذه الحرب إضعاف الجانب الآخر معنويا أو ماديا دون قتال.

٩ - وحرب العصابات:

وهى حرب تشنها طوائف وطنية من شعب محكوم بعدو قاهر، ضد القوى المسيطرة على أرضها وخيراتها وتستهدف ضرب العدو ضربة أو ضربات خاطفة سريعة لإزعاجه وحمله على الرحيل، دون تدخل جيوش.

١٠ - والحرب النفسية:

وهى التى تستخدم فيها وسائل الإعلام للدعاية وإلقاء الرعب فى نفوس الطرف الآخر، وتستخدم فيها كل وسائل التأثير على آراء الطرف الآخر ومشاعره، دعما لسياسة راهنة أو أهداف معروفة، أو خطة عسكرية إذا كانت الظروف ظروف حرب أو أزمات، لتحويل العدو من موقف إلى موقف.

وتستهدف هذه الحرب التأثير فى معنويات الطرف الآخر، بحيث يفقد الثقة فى نفسه وفى قدراته وقيادته، لتضعف مقاومته أو تبدد.

وهذه الحرب تعد من عناصر حرب العصابات.

● وهذا المحارب للإسلام والمسلمين، سواء أكان مشركا أو من أهل الكتاب فإن له حكما فقهيا واحدا هو: حربه وقتاله.

● ويعرف أهل الحرب فى الفقه الإسلامى بأنهم: «غير المسلمين الذين لم يدخلوا فى عقد الذمة، ولا يتمتعون بأمان المسلمين ولا عهدهم، وقد شنوا على المسلمين حربا».

ويسمون حربيين وواحدهم حربى - وهو المحارب للمسلمين -.

● ويساويهم فى الحكم:

أهل البغى أو البغاة وهم الذين خرجوا على إمام المسلمين لمنع حق، أو لخلع إمام وكانوا أهل قوة ومنعة، فهؤلاء يحاربون ويقاتلون ولكن لهم جزاء خاص فى الدنيا إن قتلوا نفسا وسلبوا مالا، أو سلبوا مالا ولم يقتلوا نفسا.(١)

● والمحارب المقيم فى ديار المسلمين إقامة مؤقتة، يعطى له الأمان فى مدة عهده، ثم يعتبر محاربا فيقاتل لكن بشرط أن يبلغ مأمنه أولا عملا بقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤].

● وقد يصبح من له الأمان - المستأمن - محاربا إذا انقضت مدة أمانه، أو إذا نقض هو عهد الأمان من جانبه، أو عاد إلى دار الحرب بنية الإقامة فيها، ثم عاد إلى دار الإسلام، فكل ذلك ينهى عهد أمانه ويصبح محاربا يقاتل.

● وللمسلمين أن ينبذوا للحربى عهده إذا خافوا خيانته لوجود دليل على ذلك، عملا بقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

● وللمحارب أو الحربى أحكام فى الفقه الإسلامى كثيرة نذكر منها ما يلى:

١ - إذا دخل المحارب ديار المسلمين بغير أمان نظر فى أمره على النحو التالى:

(١) انظر فى ذلك اى كتاب من كتب الفقه الإسلامى، أو انظر لنا: التربية الإسلامية فى سورة المائدة، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

– إن ادعى أنه دخل بأمان، أو لسماع كلام الله صُدِّق وأمن ولا يتعرض له أحد بسوء فضلا عن أن يقتل، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ....﴾ [التوبة: ٦].

– وإن لم يدع ذلك فلا يؤمن أن يكون جاسوسا أو مريدا الشر بالمسلمين، أو متلصصا، وفى هذه الحالة يحل قتله.

٢ – والمحارب غير المعاهد أو الذى له عهد أمان مؤقت، فهو مهدر الدم والمال، فيجوز قتل المقاتلين منهم وتصبح أموالهم من عقار ومنقول ملكا – غنيمة – للمسلمين، ويكون ولى الأمر مخيراً فى الأسرى بين أمور:

– القتل لهم.

– أو استرقاقهم.

– والمنّ عليهم بإطلاق سراحهم بغير مقابل.

– وقبول الفداء منهم، أو مبادلتهم بأسرى المسلمين.

فى كل ذلك يفعل الإمام ما يراه ملائما لأحوال المسلمين، بعد أن يستشير العلماء والخبراء – ولا يستبد هو برأى.

٣ – والمحارب المستأمن مؤقتا، يعصم نفسه وماله بعقد الأمان، ولا يجوز إتلاف أموالهم.

٤ – ومن أحكامهم أنهم:

تجوز الصدقة عليهم إن كانوا فقراء.

وتجوز الهبة لهم.

وتجوز الوصية لواحد منهم أو لهم جميعا.

كل ذلك جائز لقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وبقوله جل شانه: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ....﴾ [لقمان: ١٥].

وذلك هو ما اتفق عليه الأئمة الأربعة، فقد ثبت فى السيرة النبوية المطهرة أن النبى ﷺ أهدى إلى أبى سفيان بن حرب تمر عجوة حين كان بمكة محاربا واستهداه أَوَمًا».

كما ثبت من أنه ﷺ بعث بخمسمائة دينار إلى أهل مكة حين قحطوا لتوزع بين مساكينهم وفقرائهم.

وقال الزمخشرى فى تفسيره: «الكشاف» قال الحسن: كان رسول الله ﷺ يُؤْتَى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: «أحسنْ إليه» فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثره على نفسه.

وعند عامة العلماء: يجوز الإحسان إلى الكفار فى دار الإسلام، وعن قتادة قال: «كان أسيرهم يومئذ المشرك».

٥ - ويجب على المسلم أن ينفق على والده وولده المشركين المحاربين، وعلى زوجته المشركة الحربية، وذلك لوجود الموجب للنفقة وهو الجزئية والبعضية بالنسبة للوالد والولد، ورابطة الزوجية للزوجة حتى لو كانت فى العدة.

● وليس هناك سماحة أكثر ولا أعظم من سماحة الإسلام فى التعامل مع الناس جميعًا، حتى المحاربين منهم فما بالنا إذن بأهل الكتاب وسائر المسلمين؟.

وبعد:

فتلك هى معاملة المحارب، كما تحدثت عنها آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكلمات المفسرين للقرآن الكريم، وكلمات فقهاء الإسلام.

● والإمام البنا - رحمه الله - عندما قال: «والناس عند الأخ الصادق واحد من ستة أصناف: مسلم مجاهد، أو مسلم قاعد، أو مسلم آثم، أو ذمى معاهد، أو محايد، أو محارب، ولكل حكمه فى ميزان الإسلام، وفى حدود هذه الأقسام توزن الأشخاص والهيئات ويكون الولاء أو العداء».

حينما قال ذلك إنما أراد أن يوقظ فى نفوس الدعاة إلى الله هذه القيم الإسلامية، وتلك الموازين العادلة التى يوزن بها الناس والهيئات، لتسود المودة والمرحمة بين الناس جميعا، ولتبلغ الدعوة إلى الله بهذه المعايير أقصى ما يمكن أن تصل إليه. وليرى الناس جميعًا كيف يعامل الإسلام الناس كلهم - حتى الأعداء منهم - تلك المعاملة الكريمة النادرة المثال، أنها معاملة نابعة من دين الله تعالى ومنهجه ونظامه، والله رءوف بالعباد رحيم بهم يحب لهم الخير ويدعوهم إليه.

خــاتمــــة الكتــاب

الحمد لله الذى بفضله تتم الصالحات، وارجو الله تعالى أن يكون هذا العمل من العمل الصالح الذى يتقرب به إلى الله تعالى، وأسأله أن يرزقنا التجرد لدينه ولدعوته فى كل أمر من أمورنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين محمد ﷺ.

وسبحانك اللهم وبحمدك نستغفرك ونتوب إليك.

على عبد الحليم محمود

ثبت موضوعات الكتاب

الباب الثانى

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

رقم الإيداع : ٢٧٦٢/ ١٩٩٩ م

الترقيم الدولي
I . S . B . N . 977- 265- 2455

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣